مريد البرغوثي

# رأيت رام الله

شكر وتقدير للزميلة eva لتوفيرها الرواية

منتدى الحنين
http://www.elhanen.com

## الجزء الأول

### الجِسْر

الطقسُ شديد الحرارة على الجسر ، قطرة العرق تنحدر من جبيني إلى إطار نظارتي ، ثم تنحدر على العدسة ، غبشٌ شاملُ يغلّل ما أراه ، و ما أتوقعه ، و ما أتذكره.... مشهدي هنا تتئرجح فيه مشاهد عمر، انقضى أكثره في محاولة الوصول الى هنا.

ها أنا اقطع نهر الأردن،اسمع طقطقة الخشب تحت قدميّ ، على كتفي الأيسر حقيبةٌ صغيرة ، امشي باتجاه الغرب مشيةً عادية، مشيةً تبدو عادية، ورائي العالم ، و أمامي عالمي.

آخر ما أتذكره من هذا الجسر أنني عبرته في طريقي من رام الله إلى عمان قبل ثلاثين سنة، و منها إلى مصر لاستئناف دراستي في جامعة القاهرة، انه العام الدراسي الرابع و الأخير ٦٧/١٩٦٦ عام تخرّجي المنتظر.

صباح الاثنين ٥ حزيران ١٩٦٧ ، امتحان اللغة اللاتينية ، لم يبقَ إلا هذا الامتحان ، بعده بيومين اثنين ، مادة الرواية و بعده مادة المسرح ، ثم أكون وفيتُ بعهدي لمنيف بان انجح، و حققت رغبة أمي في أن ترى أول ولدٍ جامعيّ من أولادها.

مرت الامتحانات السابقة في تاريخ الحضارة الأوربية و الشعر الإنجليزي و النقد الأدبي و اللغويات والترجمة بدون مفاجآت ، هانَتْ ... بعد ظهور النتيجة سأعود إلى عمّان و منها عبر نفس الجسر إلى رام الله ، حيث علِمْتُ من رسائل الوالدين انهما شرعا في طلاء بيتنا في عماة اللفتاوي استعداداً لعودتي ب" الشهادة".

الطقس شديد الحرارة في قاعة الامتحان، قطرة العرق تنحدر من جبيني إلى إطار نظارتي ، تتوقف هناك ، ثم تنزلق على العدسة و منها إلى الكلمات اللاتينية على ورقة الامتحانات: آلتوس/ آلتا / آلتوم . لكن ما هذه الأصوات في الخارج ؟ انفجارات ؟ هل هي مناورات الجيش المصري؟ أحاديث الأيام السابقة كلها أحاديث حرب، هل نشبت؟ امسح نظارتي بمنديل ورقيّ أراجع إجاباتي و أغادر مقعدي ، اسلم ورقة الإجابة لمراقب القاعة ، قشرةٌ صفراء من طلاء السقف تسقط بجواري ، وتتفتت على الطاولة المغطاة بأوراق الطلاب بيني و بين المراقب ... ينظر إلى أعلى ممتعضا ، اتركه إلى الخارج اهبط درج كلية الآداب.

مدام عيشة ، زميلتنا المتوسطة العمر التي التحقت بالجامعة بعد وفاة زوجها ، جالسة في سيارتها تحت نخلات الحرم الجامعي، تناديني بلكنة فرنسية و باضطراب:

- مُغيد! مغيدْ! ... الحَغب قامت ، سَأطْنا تلاتة و عِشْغينْ طيّاغَة!

وقفت مائل الجذع ممسكاً بباب سيارتها الأيمن ، كان احمد سعيد سعيداً في مذياع السيارة ، و الأناشيد عالية، اجتمع حولنا عددٌ من الطلبة ، دارت التعليقات الواثقة منها و المتوجسة.شدّدت قبضة يدي اليمنى على زجاجة الحبر البيليكان التي لا تفارقني في الامتحانات. لا اعرف حتى يومنا هذا لماذا رسمت بذراعي قوسا واسعا في

الهواء و قذفت المحبرة بكل قوة ، مصوّبا على جذع تلك النخلة لتناثر مع ارتطامها الكحليّ شظايا الزجاج التي استقرّت على العشب.

مِن هنا ، من إذاعة صوت العرب قال لي احمد سعيد أن " رام الله" لم تعد لي و أنني لن أعود إليها ، المدينة سقطت.

توقفت الامتحانات لأسابيع ، استؤنفت الامتحانات ، نجحت و تخرّجت حصلت على ليسانس من قسم اللغة الإنجليزية و آدابها ، و فشلت في العثور على جدارٍ اعلق عليه شهادتي.

من تصادف وجودهم خارج الوطن عندما قامت الحرب ، يحاولون الحصول على تصريح " لمّ الشمل" بكل الوسائل ، عن طريق أقربائهم من الدرجة الأولى في فلسطين أو عن طريق الصليب الأحمر ، و البعض غامر بالعودة تسللا كما فعل آخى مجيد.

إسرائيل تسمح لمئاتٍ من كبار السن و تمنع مئات الآلاف من الشبّان من العودة ، و صار العالم يسمّينا "نازحين" !

الغربة كالموت ، المرء يشعر أن الموت هو الشيء الذي يحدث للآخرين ، منذ ذلك الصيف أصبحت ذلك الغريب الذي كنت أظنه دائما سواي ، الغريب هو الشخص الذي يجدد تصريح إقامته ، هو الذي يملا النماذج و يشتري الدمغات و الطوابع ، هو الذي عليه أن يقدّم البراهين و الإثباتات ،هو الذي يسألونه دائما : " من وين الأخ؟ " أو يسألونه : " و هل يكون عندكم الصيف حارّ؟ " لا تعنيه التفاصيل الصغيرة في شؤون القوم أو سياساتهم "الداخلية" لكنه أول من تقع عليه عواقبها ، قد لا يفرحه ما يفرحهم لكنه دائما يخاف عندما يخافون. هو دائما "العنصر المندس" في المظاهرة إذا تظاهروا ، حتى لو لم يكن يغادر بيته في ذلك اليوم ، هو الذي تنعطب علاقته بالأمكنة ، يتعلق بها و ينفر منها في الوقت نفسه ، هو الذي لا يستطيع أن يروي روايته بشكل متصل و يعيش في اللحظة الواحدة أضغاثا من اللحظات ، لكن لحظة عنده خلودها المؤقت ، خلودها العابر .

ذاكرته الصمته فيه ، يحرص على أن يصون غموضه ، و لا يحب من ينتهك هذا الغموض ، له تفاصيل حياةٍ ثانية لا تهم المحيطين به ، و كلامه يحجبها بدلا من أن يعلنها ، يعشق رنين الهاتف ، لكنه يخشاه و بفزع منه ، الغريب هو الذي يقول له اللطفاء من القوم " أنت هنا في وطنك الثاني و بين اهلك " ، هو الذي يحتقرونه لأنه غريب أو يتعاطفون معه لأنه غريب و الثانية اقسي من الأولى.

في ظهيرة ذلك الاثنين ، الخامس من حزيران ١٩٦٧ أصابتني الغربة.

هل كنت بالنضوج الكافي لإدراك أن لي أشباها من المواطنين الغرباء في عواصمهم ذاتها ؟ و دون أن تتعرض بلدانهم للاحتلال ؟ هل نظر أبو حيان التوحيدي عبر عصور المستقبل ، فكتب في ماضيه السحيق ، غربتنا الراهنة في النصف الثاني من القرن العشرين ؟ هذا النصف الأطول من نصفه الأسبق؟ لا اعرف.

لكنني اعرف أن الغريب لا يعود أبدا إلى حالاته الأولى ، حتى لو عاد ، خَلَصْ ، يصاب المرء بالغربة كما يصاب بالرّبو ، و لا علاج للاثنين و الشاعر أسوأ حالا لان الشعر بحد ذاته غربة.

ما الذي أتى بالربو هنا؟ هل هي نوبة السعال التي فاجأتني أثناء انتظاري في الجانب الأردني لساعات طويلة قبل أن يسمح لي "الجانب الآخر" كما يسميه رجال الشرطة الفلسطينية ، بان تلامس قدماي هذا الحد الفاصل بين زمنيين؟

كنت وصلت من عمان إلى هذا الجانب الأردني من الجسر ، أوصلني أخي علاء بسيارته و معنا زوجته الهام و أمي ، انطلقنا من بيتنا في الشميساني في التاسعة و الربع صباحا ووصلنا إلى هنا قبل العاشرة ، هذه آخر نقطة يمكن أن يسمح لهم بالوصول إليها و دعتهم و عادوا إلى عمان.

جلست في غرفة انتظار مقامة عند حافة الجسر تماما، سالت الضابط الأردني عن الخطوة التالية: -تنتظر هنا حتى تأتينا إشارة "منهم" و بعدين تقطع الجسر.

انتظرت بعض الوقت في الغرفة قبل أن أتبين أن انتظاري سيطول ، اتجهت إلى الباب وقفت أتأمل النهر، لم يفاجئني ضيق مجراه ، نهر الأردن كان دائما نحيلا جدا هكذا عرفناه في الطفولة ، المفاجأة انه اصبح بعد هذه السنين الطوال نهرا بلا ماء، الطبيعة اشتركت مع إسرائيل في نهب مياهه ، كان لمجراه صوت ، هو الآن نهرٌ ساكت كأنه سيارة واقفة في مرآب.

الضفة المقابلة تعرض نفسها بوضوح كامل أمام الأعين ، و العين ترى ما ترى ، قال لي أصدقاء عبروا النهر بعد غيبة طويلة انهم بكوا هنا.... لم أبكِ.

لم يصعد ذلك الخدر الخفيف من صدري إلى عينيّ ، لم يكن معي أحد ليقول لي كيف كانت ملامح وجهي في ساعات الانتظار تلك.

أتأمل جسم الجسر ، هل سأجتازه بالفعل؟ تنشا مشكلة طارئة في اللحظة الأخيرة، يعيدونني من هنا، يخترعون لي خطا في الإجراءات المطلوبة ، هل سأمشي بقدميّ على الضفة الأخرى ؟ على هذه التلال المعلنة أمامي؟

لا فارق بين التضاريس بين الأرض الأردنية التي اقف عليها الآن و الأرض الفلسطينية على الجانب الاخر من الجسر ، هذه إذا هي " الأرض المحتلة"!

في أواخر عام ١٩٧٩ كنت أشارك في أحد مؤتمرات اتحاد الأدباء و الكتّاب العرب في دمشق، أخذنا المضيفون لزيارة قلب مدينة القنيطرة ، ذهبنا في موكب سيارات إلى المدينة ووصلناها بعد وقت قصير ، شاهدنا التدمير الفظيع التي تعرّضت له القنيطرة على أيدي الإسرائيليين ، وقفنا بجوار الأسلاك الشائكة التي يرتفع وراءها العلم الإسرائيلي مددت يدي من فوق السلك ، و أمسكت بالأفرع العلوية من إحدى الشجيرات البرّية في الجانب المحتل من الجولان ، أخذت أهز الشجيرة المضمومة في يدي وقلت للدكتور حسين مروّة، و كان يقف بجواري مباشرة:- هذه هي " الأرض المحتلة" يا " أبو نزار" إنني أستطيع أن امسكها باليد! عندما تسمع في الإذاعات و تقرا في الجرائد و المجلات و الكتب و الخطب كلمة " الأرض المحتلة" سنة بعد سنة، و مهرجانا بعد مهرجان و مؤتمر ، قمةٍ بعد قمة ، تحسبها وهما في آخر الدنيا! تظن أن لا سبيل للوصول إليها

بأي شكل من الأشكال... هل ترى كم هي قريبة ، ملموسة، موجودة بحق! إنني أستطيع إمساكها بيدي كالمنديل. و في عيني حسين مروّة تكوّن الجواب كله ،و كان الجواب صامتا مبلولا.

الآن ها أنا انظر إليها ، إلى الضفة الغربية من نهر الأردن ، هذه هي " الأرض المحتلة" إذا؟ لم يكن معي أحد لأكرر له ما قلته منذ سنوات لحسين مروّة من أنها ليست مجرد عبارة في نشرات الأنباء ، أنها إذ تراها العين تتمتع بكل وضوح التربة و الحصى و التلال و الصخور ، لها ألوانها و درجة حرارتها و لها أعشابها البرّية أيضا،

من يجرؤ على تجريدها الآن و قد تجلت جسدا أمام الحواس؟

هي الآن ليست تلك الحبيبة في شعر المقاومة ، و لا ذلك البند في الأحزاب ، ليست جدلا و لا مجازا لغويا ، ها هي تمتد أمامي ملموسة كعقرب ، كعصفور، كبئر، و مرئية كحقلٍ من الطباشير ، كآثار الأحذية، قلت لنفسي ما هى استثنائيتها لو لم نكن فقدناها؟ هي ارضٌ كالأرض ، نحن لا نرفع لها الأغنيات إلا لكي نتذكر الإهانة المتجسدة في انتزاعها منا ، الإهانة تنغص حياة المهانين ، نشيدها ليس للقداسة السالفة ، بل لجدارتنا الراهنة ، فاستمر الاحتلال يشكل تكذيبا يوميا لهذه الجدارة. لم اصل إليها بعد ، إنني فقط أراها بشكل مباشر كنت كمن ابلغوه بالفوز بجائزة كبرى ، لكنه لم يستلمها بعد .

ما زلت على الجانب الأردني، الساعات تمر... أعود لقاعة الانتظار ، من الواضح أن لا جديد بالنسبة لي... اجلس على الكرسي ، أخرج أوراقي ، أتسلى بتقليبها...

املوحات و توقيعات و مشاهد شعرية اعدّها للنشر باسم " منطق الكائنات" .... انه ديواني الشعري التاسع ، القي نظرة مستعجلة لا معنى لها على الأسطر و أعيد الأوراق للحقيبة، تشتت ذهني في هذه اللحظات يمنعني من التركيز في أمر واحد ، في أي أمر... قلق الانتظار ينعكس قلقا على النصوص ، قبل النشر مباشرة افقد الحماس و أتشكك في قيمة النص الذي يوشك على الإفلات من سيطرتي.

احب القصيدة و هي تتخلق بين أصابعي و تتشكل صورة بعد صورة ، حرفا بعد حرف ، بعد ذلك يبدأ الخوف و يهرب اليقين... تنتهى عندي تلك اللحظة الراضية التي يسمونها "فتنة الخالق بالمخلوق"... يحدث ذلك و حدث منذ أول قصيدة نشرتها في حياتي ، أتذكرها جيدا كانت لها دلالة لا أستطيع أن احددها لكنها ارتبطت بتاريخ لا ينسى... كنت في السنة الرابعة في الجامعة... عرف الزملاء و بعض الأساتذة أنني اكتب الشعر ، السنة الدراسية تقترب من نهايتها و مغادرتي لمصر باتت وشيكة ، لدي قصائد كثيرة كنت أقرا بعضها لرضوى على درج المكتبة هي تؤكد لي أنها قصائد جيدة، و أنني بالتأكيد سأصبح شاعرا ذات يوم... و ذات يوم قدمت للأستاذ فاروق عبد الوهاب واحدة من تلك القصائد لنشرها في مجلة " المسرح" التي كان يرأس تحريرها رئيس القسم الدكتور رشاد رشدي ، بعد ذلك مباشرة قضيت أياما من الرعب...

كنت أفكر يوميا في أن أستعيدها منه لكني خجلت من أن يعدّني مترددا ضعيف الشخصية ، أراه في الكلية و أكاد أساله عن رأيه و أعدِل عن ذلك في اللحظة الأخيرة... بمجرد أن خرجت تلك القصيدة من يدي شعرت أنها رديئة و لا تصلح للنشر، و اجزم أنها كانت رديئة بالفعل.

مرت الأيام إلى أن جاء ذلك اليوم الرهيب، الاثنين ٥ حزيران ١٩٦٧ ، ذهبت إلى أحد الأفران لأتزود بما يتيسر من أرغفة الخبز استعدادا لمواجهة احتمال اختفائه في ظروف الحرب (كنا نظنها حربا طويلة بالضرورة!) وقفت في الطابور الطويل المتلاطم انتظارا لدَوْري... كان على الأرض بجوار المكان الذي وقفت فيه ، بسطة جرائد و مجلات و كتب، هي امتدادٌ لمكتبةٍ صغيرة ما تزال مفتوحة ، رأيت بين عشرات المجلات مجلة " المسرح" ، دفعت ثمنها للبائع و بسرعة أخذت اقلبها بحثا عن القصيدة ... و.. وجدتها! ...مريد البرغوثي : قصيدة " اعتذار إلى جندي بعيد" ... أية صدفة هذه! أول قصيدة لي تظهر في هذا الصباح الغريب! على غلاف المجلة كان تاريخ الصدور واضحا : الاثنين ٥ يونيه ١٩٦٧... سألني صحفيّ ذات يوم عن هذا الأمر، رويت له ما أسلفت ثم أضفت مداعبا:
- ترى هل انهزم العرب و ضاعت فلسطين لأنني كتبت الشعر؟ ضحكنا ، و لم نضحك.

أغادر الغرفة ثانية.... اخرج لأتمشى في المساحة القليلة بينهما و بين النهر... أتأمل المشهد... لم يكن لديٍّ ما افعله سوى التأمل، ارضٌ صحراوية ملاصقةٌ للماء! و الشمس عقرب... " قولوا لعين الشمس"... تلك الأغنية الحزينة التي أصبحت مرثية الهائمين في صحراء أخرى لا تبعد كثيرا عن هذا المكان تعنّ على البال... في ١٩ حزيران ١٩٦٧ يطرق باب شقتي في الزمالك شخص حرّقت الشمس وجهه و يبدو غريب الهيئة و الملابس، عانقته كأنه هبط من غيمة مباشرة إلى ذراعيّ ،
- كيف وصلت إلى هنا يا خالي عطا؟
بعد أن ارتاح قليلا اصبح الحديث فيما جرى ممكنا... ظل يمشي أربعة عشر يوما في صحراء سيناء ، من ٥ حزيران و هو يمشي.
- لم نحارب ... دمروا أسلحتنا و لاحقونا بالطائرات من أول ساعة...الخ.
كان خالي ضابطا في الجيش الأردني ثم ذهب للعمل مدربا في الجيش الكويتي في أوائل الستينات، في حرب ال٦٧ أرسلوه مع الكتيبة الكويتية للاشتراك في الحرب إلى جانب مصر، قال انهم الآن في معسكر قرب دهشور و بإمرة الجيش المصري، و انهم لا يعرفون الخطوة القادمة . لم اعرف شخصا عنيدا و متشددا كخالي، معنى الحياة بالنسبة له أن يأمر فيُطاع ... شؤون بيته يجب أن تدار على طريقته وحده، احترام زوجته و بناته و أولاده له، يختلط بالخوف و الخشية من عقابه ... عصبيّ سريع الانفعال رغم انه في أعماقه مخلوق عاطفي و حنون. عندما رايته في ذلك اليوم العجيب، اختفت كل جوانب القسوة في شخصيته، لم يبق منه سوى الهشاشة و الانكسارو الذهول و الرغبة في الصراخ.

لم أر من الجنود العائدين من المعركة غيره، و كان هذا كافيا ليحزن القلب ، رؤية شخص واحد تكفي لكي تشخصن الفكرة كلها، فكرة الهزيمة...

انتصف النهار، توتري يتصاعد مع كل دقيقة انتظار أخرى... هل سيسمحون لي باجتياز الماء ؟ لماذا تأخروا إلى هذا الحد؟ أو عند هذا الحد، سمعت من ينادي على اسمي!

-خذ شنطتك و اقطع المَيّ.

أخيرا! ها أنا امشي بحقيبتي الصغيرة على الجسر، الذي لا يزيد طوله عن بضعة امتارٍ من الخشب ، و ثلاثين عاما من الغربة... كيف استطاعت هذه القطعة الخشبية الداكنة أن تُقصي امّةً بأكملها عن أحلامها؟ أن تمنع أجيالا من تناول قهوتها في بيوتٍ كانت لها؟

كيف رمتنا إلى كل هذا الصبر و كل هذا الموت؟ كيف استطاعت أن توزعنا على المنابذ و الخيام و أحزاب البوشوشة الخانقة؟

أنني لا أشكرك أيها الجسر القليل الشان و الأمتار ، لست بحرا و لست محيطا حتى نلتمس في اهوالك أعذارا ، لست سلسلة جبال تسكنها ضواري البرّ و غيلان الخرافة حتى نستدعي الغرائز و الوقاية دونك ، كنت ساشكرك ايها الجسر لو كنت على كوكب غير هذا و على بقعة لا تصل إليها المرسيدس القديمة في ثلاثين دقيقة، كنت سأشكرك لو كنت من صنع البراكين و رعبها البرتقالي السميك . لكنك من صنع نجارين تعساء، يضعون المسامير في زوايا الشفاه و السيجارة على الإذن . لا أقول لك شكرا أيها الجسر الصغير.

هل اخجل منك؟ أم تخجل مني؟ أيها القريب كنجوم الشاعر الساذج ، أيها البعيد كخطوة مشلول ، أي حرج هذا؟ إنني لا أسامحك، و أنت لا تسامحني.

صوت الأخشاب تحت قدميّ.... فيروز تسميه جسر العودة ، الاردنيون يسمونه جسر الملك حسين ، السلطة الفلسطينية تسميه معبر الكرامة، عامة الناس و سائقو الباصات يسمّونه جسر اللنبي... أمي و قبلها جدتي و آبي و امرأة عمي أم طلال يسمونه ببساطة : الجسر.

الآن اجتازه للمرة الأولى منذ ثلاثين صيفا ، صيف ١٩٦٦ و بعده مباشرة و دون ابطاء صيف ١٩٩٦... هنا ، على هذه العوارض الخشبية المحرّمة ، أخطو و أثرثر عمري كله لنفسي ، أثرثر عمري ، بلا صوت و بلا توقف.... أوقاتٌ من الصور المتحركة تظهر و تختفي بلا نسق مفهوم.... لقطاتٌ لحياة شعثاء.... ذاكرة ترتطم بجهاتها كالمكوك ، صورٌ تتكون و اخرى تُستعاد.... تستعصي على المونتاج الذي يمنحها شكلها النهائي، شكلها هو فوضاها.

طفولة غابرة، وجوه أحباب و أعداء، ها أنا الشخص القادم من قارّات الآخرين و لغاتهم و حدودهم ... الشخص ذو النظارة البنية على عينيه و الحقيبة الصغيرة على كتفه. و هذه عوارض الجسر .... هذه هى خطواتي عليها ها أنا أسير نحو ارض القصيدة : زائرا؟ عائدا؟ لاجئا؟ مواطنا؟ ضيفا؟ لا ادري!

أهي لحظةٌ سياسية ؟ أم عاطفية ؟ أم اجتماعية ؟ ... لحظة واقعية؟ سريالية؟ .. لحظة جسدية ؟ أم ذهنية؟
الخشب يطقطق.... ما مضى من العمر يغلله الغبش الذي يكشف و لا يكشف ، يُبدي و لا يُبدي...لماذا أتمنى لو تخلصت من هذه الحقيبة!

ماء النهر تحت الجسر قليل ، ماء بلا ماء ، كانه يعتذر عن وجوده في هذا الحد الفاصل بين تاريخين و عقيدتين و مأساتين.... المشهد صخري ، بري، عسكري، صحراوي ، مؤلم كوجع الأسنان....

العلم الأردني هنا بألوان الثورة العربية ، بعد أمتارٍ قليلة هناك العلم الاسرائيلي باللون الازرق للنيل و الفرات و بينهما نجمة داود... هبة هواء واحدة تحركهما، بيض صنائعنا ، سود وقائعنا ، خضر مرابعنا... الشعر في البال... لكن المشهد نثري كفاتورة الحساب.

عوارض الخشب تطقطق تحت قدميّ....هواء حزيران اليوم ، يغلي و يفور كهواء حزيران الامس ، "يا جسرا خشبيا"... فجأة تحضر فيروز على غير المألوف في كثير من اغنياتها كلام الاغنية اكثر مباشرة مما يفضّل المرء عن كيف استقرت في وجدان المثقفين و الحرّاثين و الطلاب و الجنود و الصبايا و العمات و الخالات و الثوار؟

هل هو احتياج الناس لإسماع صوتهم عبر سماعهم له من أفواه الآخرين؟ هل هو تعلقهم بصوتٍ من خارجهم يقول ما في داخلهم؟ الصامتون يعيّنون المتكلمين نوابا في برلمان خيالي محرّم عليهم ، الناس يتعلقون بالشعر المباشر في ازمنة البطش فقط ، ازمنة الخرس الجماعي ، أزمنة الحرمان من الفعل و القول.

الشعر الذي يهمس و يومي و يوحي لا يستطيع أن يتذوقه الا مواطن حر، مواطن بوسعه ان يجهر بما يشاء و لا يُحَمّل المهمة لسواه ، قلت لنفسي ان مُنظّري النقد الادبي عندنا ينسخون النظريات الغربية باعين نصف مغمضة و يرتدون قبعات الكاوبوي فوق قمباز العروبة ، ( استعارة القبعة هذه ممجوجة و مكررة ، كيف ترد على خاطري الآن؟)

هذا أول جندي إسرائيلي يطل بقبعة المتدينين.... هذه قبعة واقعية و ليس استعارةً بلاغية ، بندقيته تبدو لي أطول من قامته... ها هو يتكئ على باب غرفته المنعزلة المقامة على الجانب الغربي للنهر، حيث تبدأ سلطة دولة اسرائيل.... لم استطع التأكد من مشاعره ... وجهه لاينبئ بما يفكر فيه... نظرت إليه كالناظر إلى باب مغلق .

قدماي الآن على الضفة الغربية للنهر، اصبح الجسر ورائي .... اقف للحظة على التراب على " اليابسة"! ... لست من بحارة كولومبوس الذين صاح احدهم و هم على شفا الهلاك : " ارض! ارض! إنها الأرض!" .... لست ارخميدس الذي صاح مذهولا : "وجدتها ! وجدتها!" ... لست جنديا منتصرا يقبّل التراب.... لم اقبل التراب...

لم اكن حزينا.و أيضا لم أبكِ... لكن صورته تظهر و تختفي في هذا الخلاء الشاحب.... صورة ابتسامته القادمة من هناك، من قبره الذي وسّدْته فيه بيديّ و عانقته العناق الاخير في عتمته ، قبل ان يتنزعني المشيّعون و اتركه وحيدا تحت شاهدةٍ كتبنا عليها:
" منيف عبد الرازق البرغوثي ١٩٤١-١٩٩٣"

سرت خطوات... نظرت إلى وجه الجندي ، للحظةٍ بدا لي انه يقف وقفة موظفٍ ضجر و ملول.... لا .... انه متوتر متحفز.... (أم هذه حالتي أنا أسقطها عليه؟)... لا.... أنها وقفة روتينية يقفها يوميا و هو يرى الافا من الفلسطينين امثالي يمرون بحقائب زياراتهم الصيفية او يغادرون الى عمّان لقضاء شئون حياتهم.... لكنّ وضعي يختلف عن أوضاعهم.
قلت لنفسي: لماذا يظن كل شخص في هذا العالم ان وضعه بالذات هو وضعٌ " مختلف"!؟ هل يريد ابن آدم أن يتميز عن سواه من بني آدم حتى في الخسران؟
هل هي أنانية الأنا التي لا نستطيع التخلص منها؟ هل يبرر ذلك إنني امرّ من هنا للمرة الاولى منذ ثلاثين سنة ؟ المرور على هذا الجسر ظل متاحا دائما للمقيمين تحت الاحتلال، و للمغتربين الذين يحملون تصاريخ الزيارة او لمّ الشمل طوال السنوات الثلاثين ، فشلت في الحصول على أي من التصريحين.
من أين له أن يعرف ذلك؟ و لماذا أريده أن يعرف؟ المرّة السابقة مباشرةً ، كانت نظارتي الطبية اقل سمكا، و شعر راسي كان اسود تماما، ذكرياتي كانت اكثر خفة و ذاكرتي اكثر ثقلا.... المرة السابقة كنت ولدا هذه المرة أنا والد، والدٌ لولدٍ هو الآن في مثل عمري عندما مررت من هنا لآخر مرة!
المرة السابقة مررت من هنا مغادرا وطني لاتعلم في الجامعة البعيدة، الآن تركت ابني ورائي في نفس الجامعة ليتعلم.... المرة السابقة لم يكن احد يجادلني في حقي في رام الله الان اتساءل عن دوري في حفظ حقه في رؤيتها و هل ساخرجه من سجلات اللاجئين و النازحين و هو لم يلجأ و لم ينزح و كل ما فعله انه وٌلد في الغربة؟
الان امر من غربتي الى... وطنهم؟ وطني؟ الضفة و غزة؟ الاراضي المحتلة؟ المناطق؟ يهودا و السامرة؟ الحكم الذاتي؟ اسرائيل؟ فلسطين؟
هل في هذا العالم كله بلدٌ واحدٌ يحار الناس في تسميته هكذا ؟
في المرة السابقة كنت واضحا و الامور كانت واضحة، الان انا غامضٌ ملتبسٌ و الامور كلها غامضة ملتبسة.... هذا الجندي ذو القبعة ليس غامضاعلى الاطلاق، على الاقل بندقيته شديدة اللمعان بندقيته هى تاريخي الشخصي، هى تاريخ غربتي، بندقيته هى التي اخذت منا ارض القصيدة و تركت لنا قصيدة الارض، في قبضته تراب و في قبضتنا سراب.... لكنه ملتبسٌ من ناحية اخرى ، هل جاء ابواه من ساخسن هاوزن ام من داحاو؟ ام انه مستوطن جاء حديثا من بروكلين؟ وسط اوروبا شمال افريقيا؟
امريكا اللاتينية؟ هل هو منشق روسي مهاجر؟ هل ولد هنا ووجد نفسه دون ان يتامل لماذا هو هنا؟

هل قتل منّا احدا في حروب دولته لو في انتفاضاتنا المتصلة ضد دولته؟
هل هو مستعد للقتل بتلذذ؟ ام انه يقوم بواجب العسكري الذي لا مفر منه؟
هل هناك من امتحن انسانيته الفردية؟ انسانيته هو بالذات؟ ... اعلم كل شئ عن لا انسانية وظيفته، انه جندي احتلال، و هو في كل الاحوال في وضع مختلف عن وضعي،خصوصا في هذه اللحظة.... هل هو مؤهل للانتباه الى انسانيتي؟ انسانية الفلسطينيين الذين يمرون تحت ظل بندقيته اللامعة كل يوم؟
نحن هنا في بقعة الارض نفسها ، في المكان نفسه ... ولكن ، لا حقيبة في يده .. ويقف بين علمين اسرائيلين يحركهما الهواء و الشرعية الدولية....
- "انتظر هنا حتى تحضر السيارة" ... قالها باللغة العربية.
- "اين تاخذني السيارة"؟
-"الى مركز الحدود.... الاجراءات كلها هناك."
انتظرت في غرفته الضيقة التي توقعتها اكثر نظافة و ترتيبا، ملصقات سياحية عن معالم ( اسرائيل!) توقفت عيناي طويلا عند ملصق عن المسادة.... تقول اسورتهم انهم صمدوا في قلعة "مسادة" حتى ابيدوا جميعا لكنهم لم يستسلموا... هل هذه هى رسالتهم لنا يعلقونها على البوابة حتى يذكرونا بانهم باقون هنا الى الابد؟ هل تعمدّوا هذا الاختيار بايحاءاته.. ام انه مجرد ملصق سياحي؟
اتامل الغرفة: كرسيان قديمان ، طاولة مستطيلة، مرآة زاويتها اليسرى مكسورة ، جرائد باللغة العبرية ، مطبخٌ صغير، و موقد كهربائي مختصر لاعداد الشاي و القهوة، غرفة حراسة عادية، الحارس فيها يحرس وطننا ... منّا!
ظننته سيحقق معي، لم يتبادل معي أي حديث.... حتى لو حدثني ، او سالني، هل كنت ساسمعه؟ ام كنت ساعير له " اذنا غير صاغية؟" و كيف اسمعه و اصواتهم تحيط بصمتي منذ جلست على الكرسي؟ اؤلئك الذين رايتهم يدخلون من الباب تباعا، ليقفوا حولي في هذه الغرفة التي هي جسرٌ بين عالمين، العالم الذي كانت لهم فيه وقفاتٌ و مباهج و مواجع، و العالم الذي سأراه عما قليل... هل كنت ساصغي له و اصوات سكوتهم الابدي تنشر رعشتها هنا؟ بالضبط هنا؟ في المكان الذي ماتوا بعيدا عنه او استشهدوا دونه؟ الموتي لا يطرقون الباب...

تدخل جدتي، الشاعرة التي افقدتها الايام بصرها، و التي ارتجلت اشعارها غناءً و نحيبا في اعراس البلد و في جنازاتها... اسمع تمتمات دعائها في صلاة الفجر، دعاء لم يرد في شعر الناس و لا في نثرهم، هو صياغتها الخاصة بها وحدها ، كنت ارفع رف اللحاف و اصغي لموسيقى كلامها .. فاترك سريري و اندّس بجوارها عندما تعود للنوم ، اطلب منها ان تعيد دعائها السحري ، آخذ موسيقاه معي الى النوم الساخن، و تلازمني الموسيقى في الصف... ترن على صفحات الدفاتر المدرسية و تجعل من بلادة "جدول الضرب" اول عدو عرفته في الطفولة...

ياتي ابي ... من شاهدةٍ خلفتها ورائي في " بيادر وادي السير"... ياتي بحنانه الصامت ، بعينيه الضيقتين ، و هدوئه الموجوع من الدنيا و الراضي بها في الوقت نفسه....
يدخل منيف الذي بدَّده الموت ، كسروا جمال قلبه و جمال نواياه ، ضربوا إلى الأبد أحلامه في رؤية رام الله و لو لأيام....

يدخل غسّان كنفاني بصوته الذي كان لابدّ لدويٍّ يهز الحازمية كلها أن يواريه... هل كنت سأصغي لهذا الحارس النيّئ العمر، و غسان يغرس حقنة الأنسولين في ذراعه، و يدبّر ابتسامه ترحيب أخرى برضوى و بي في مكتبه؟ وحدها الملصقات التي تغطي الجدار خلف كتفيه كانت تبرق و ترعد ، و تؤدب السكون بالضجة... ملصقات ذلك الزمان الذي لم يعد يشبه هذا الزمان : النجمة على قبعة جيفارا " من اجلها ".... الأسئلة على جبين لينين " من اجلها " ... تطريزٌ بقلمه و ريشته " لاسمها " السليب ، حصانٌ بلا إطار لكنه في إطار.... صورةٌ لقادة التحرر في اسيا و افريقيا و امريكا اللاتينية ، شعارات و صور و كتابات ظنناها ستقوده اليها.... اتساءل؟ هل ازداد غسان الان قربا من عكا ام ازداد ابتعادا؟
أقارن بين الملصقات في غرفة هذا الجندي المراهق، و تلك الملصقات في مكتب غسان في بيروت، عالمان متناقضان : في عالم غسان متسع لاشعار نيرودا، و مقتطفات املكار كابرال، و بيريه و لينين و بصيرة فرانز فانون و الألوان الشخصية التي يحاول بها ان يجد لها ان يرسم الحلم بالكحليّ و المشمشي و البرتقالي و بما يقترحه قوس قزح واسع على سماء ضيّقة كابية تنذر بالخسران و الويل .... امّا هنا؟ انظر الى الجدران و الى الصور انها مناظر من بلادي لكن سياقها و معنى وجودها في هذا المكان على بوابة الحدود المحرمة كان عدوانيا ، اتذكر الصورة الكبيرة التى اهداها لي ناجي العلي.... دعاني و رضوى الى العشاء في مطعم ميامي على شاطئ البحر في بيروت، في نهاية السهرة اتجه الى سيارته و اخرجها:
- هاي اللي نزلت مع قصيدتك "السفير" رسمتها مرة ثانية بحجم كبير اللك و لرضوى و لتميم.
ثم انطلق بسيارته الى بيته في صيدا، و عدنا رضوى و انا الى فندق البوريفاج... وجه تلك الطفلة يملا مركز اللوحة، بينما تمتد جديلتاها في خطين مستقيمين الى اليمين و اليسار و حوّل ناجي الجديلتين الى اسلاك شائكة تلامس طرفي اللوحة ذات الخلفية السوداء جدا.يدخل ناجي العلي قادما من موته القديم من موته الطازج....هذه ضحكة عينيه و هذا قوامه النحيل اصغي الى صرختي التي فجاة انفلتت من صدري و انا اقف امام قبره في ضاحية من ضواحي لندن همست و انا انظر الى قوس التراب بكلمة واحدة هي :
- لا!
قلتها تمتمة.... قلتها الى الداخل لنفسي ... لم يكد يسمعها احد، حتى اسامة ذو السنوات التسع الذي كنت اقف خلفه و احيط كتفيه بذراعيّ، و نحدق معا في قبر ابيه لكنني لم استطع ان استرد السكوت بعد ذلك.

تلك ال (لا) رفضت أن تنتهي... كبرت... ارتفعت... انني اصرخ صرخة متصلة ، ممتدة... اعجز استردادها من الهواء كانها علقت هناك في ذلك الرذاذ الذي كان يبللنا معا انا و اسامة و جودي و ليال و خالد ووداد، كانها تنوي ان تظل معلقة بالسماء الى يوم القيامة، تلك السماء البعيدة ، تلك السماء التي لم تكن بيضاء و لم تكن زرقاء و لم تكن تخّنا و لم تكن تعرفنا و لم .. تكن..!

سمعت شقيق وداد يقول لي محاولا تهدئتي و هو يحتضن كتفي:

- من شان أله يا مريد اهدا يا خوي .. إهدا ، من شان نقدر نظل واقفين على رجلينا.... و جدتني استرد نفسي من الصرخة التي تحولت الى ما يشبه الاغماءة، اغلقت فمي بيدي و بعد قليل وجدتني اقول له بصوت متهدج و ضعيف:

- هوّ اللي واقف، مش احنا!

عدنا من قبره الى بيته في ويمبلدون.... اصرت عائلته على ان تقدم لي غرفته لاقيم فيها! كنت انام بين لوحاته المتروكة و مسوداته الناقصة، أرى في كل لحظة كرسيه و مكتبه المرفوعين على منصة خشبية مستطيلة هيأها بنفسه ليرفع حافة المكتب بحيث تلامس حافة النافذة المطلة على السماء و العشب النافذة بلا ستائر، الزجاج في مواجهة العالم مباشرة.

قالت وداد انها وضعت لها ستارة في البداية لكن ناجي انتزعها لانه " بيحب الفضا" و بيحس ان "البردايه خنقة".... قفزت عتمة قبره إلى اذنّي و انا اسمعها تصف شغفه بالفضا.... في غرفته تلك قضيت مع العائلة أسبوعا على مكتبه الصغير على أوراقه البيضاء و بأحد أقلامه كتبت شيئا عنه، عن حياته و رسومه و موته قصيدة أسميتها " أكله الذئب" ... و هو اسم واحدة من لوحاته الشهيرة جدا، القيتها بعد ذلك في حفل افتتاح معرض لرسوماته ، نظّمه أصدقاؤه في إحدى قاعات لندن،بإشراف مباشر من الفنان العراقي ضياء العزاوي.... و على باب القاعة فوجئت بالمشهد الذي لا ينسى:

اصطف ثلاثة شبان لاستقبال الجمهور القادم للمشاركة في حفل التأبين و مشاهدة المعرض:

"خالد" ابن الشهيد ناجي العلي.

و" فايز" ابن الشهيد غسان كنفاني.

و "هاني" ابن الشهيد وديع حداد.

شباب زي الورد! كان حلقي جافا و انا أعانقهم على مدخل القاعة ، أية جنازات أنجبت هذه الأكتاف العالية و العيون الشديدة الانتباه؟ ايّة أنقاض خرجت منها تلك الطفولة الى رجولتها بلا اذنٍ من القتلة؟

قدّم لي خالد رفيقيه، سألتهما عن أحوالهما... اردت ان اسمع الصوت ايضا و النبرة و اللهجة... بدا لي مشهدهم في تلك الليلة و كأنه مشهدٌ في خيال روائيّ لا في الحياة اليومية المعتادة، قلت لنفسي و انا اتوقف امام اجتماعهم صفا مستعدا لاستقبال الناس عند الباب: في تقاليدنا المتوارثة كان الذين يقفون هذه الوقفة لاستقبال المعزّين او المهنئين هم وجهاء العائلات ووجهاء الفصائل (للفصائل وجهاؤها ايضا).... هؤلاء الشباب يقدمون اليوم معناهم الجديد الرائع و الطازج " للوجاهة" ... تلك المفردة التي قَبْلهم لم اكن أطيقها.

عدت بعدها الى بودابست و أنا ارتجف من "شكل أيامنا القادمة" تاركا تحت التراب البريطاني البعيد واحدا من أشجع الفنانين الذين أنجبتهم فلسطين في تاريخها كله...

طافت وجهوهم حولي كأنها أيقونات "اندريه روبلييف" تومض في عتمة المعابد النائية في القرن الثالث عشر، و لم تكن غرفة الحارس المسلح معتمة، ولا كان العراء خارج غرفته معتما.... لم أرَ ظهيرة قائظة كهذه! ام هى بدايات حمى تصيبني خلسة و تسللا؟ جاء أبو سلمى و جاء معين و جاء كمال و جاء شعر قلوبهم التي كانت اكبر من أوراقهم، جاء منيف و ناجي ثانية و ثالثة و عاد التوجس يملأ الغرفة، الوجوه و الخيالات و الأصوات تبين و لا تبين، أنظر الى النظرة ، انادي على الصوت معكم تماما وحدي تماما لتغفر لي عتمتكم هذا النهار الخصوصيّ ايها الأصدقاء!

اكلّ هذا التشويش ليّ؟ اكلّ هذ الحضور و الغياب للغائب؟ اكلّ هذا الضجر المحاط بأملاح البحر الميت؟

انا متعود على الانتظار، لم ادخل بسهولة الى أي بلد عربي و في هذه الظهيرة لن ادخل بسهولة ايضا....

جاءت السيارة... اتجهت نحوها ببطء ، سائق طويل القامة ابيض الوجه يرتدي قميصا مفتوح العُري بدا لي انه قال شيئا ما باللغة العربية، لم يتحدث كثيرا، و الا لتأكدت ان كان عربيا او يهوديا ابتدأت الأمور تختلط ، كنّا نقرا عن العمال العرب في إسرائيل هل هو "عامل عربي في إسرائيل؟" هل هو يهودي يعرف العربية؟ ملامح الوجه وحدها لا تكفي للتمييز بيننا و بينهم.... لم تدم تساؤلاتي طويلا وصلنا الى مركز الحدود... اخذ أجرته بالدينار الأردني... دخلت صالة واسعة تذكر بصالات المطار هنا رأيت الشرطة الفلسطينية و الشرطة الإسرائيلية... صفٌ من الشبابيك الخاصة بمعاملات الذاهبين الى الضفة ، و الى غزة.. خلقٌ كثير.

دلت الى الصالة التي تفضي إلي باب إلكتروني ضيق افراد الشرطة الإسرائيلية طلبوا مني ان أضع كل ما هو معدني، كالساعة و المفاتيح و بعض القطع النقدية في طبق البلاستيك... عبرت البوابة وجدتني مباشرة امام ضابط إسرائيلي مسلح ، استوقفني ، طلب أوراقي،اخذ يقلبها ثم أعادها لي.

في محاولة مني لمعالجة توتري قررت ان اكون البادئ بالسؤال:

- اين اذهب الان؟

- الى الضابط الفلسطيني طبعا.... و أشار الى غرفة قريبة.

الضابط الفلسطيني يأخذ اوراقي و يقلبها بين يديه ثم يعطيها لنفس الضابط الاسرائيلي الذي يتعمّد الابتسام، و يطلب مني الانتظار... سألته اين؟

- عند الضابط الفلسطيني طبعا.

جلست في غرفة الارتباط، الضابط الفلسطيني يظهرا قليلا و يختفي قليلا و في الحالتين لم ينشغل بوجودي... كنت شارد الذهن، الضابط جالس وراء طاولته صامتا تماما.

كنا اثنين في الغرفة، و كان كل منّا وحيدا.

في هذه الغرفة وجدتني انسحب الى هناك الى تلك البقعة المتوارية في كل شخص بقعة الصمت و الانطواء، فراغ غامق اللون يخص المرء و لا يعني احدا غيره ... الوذ به عندما يصبح الخارج عبثيا او غير مفهوم، كأنّ هناك ستارة سرية تحت تصرفي اشدها عند الحاجة فاحجب العالم الخارجي عن عالمي اشدها بسرعة و بشكل تلقائي عندما تستعصي ملاحظاتي و أفكاري على الانكشاف بكامل وضوحها عندما يكون حجبها هو الطريقة الوحيدة لصيانتها... لم انشغل بشيء هنا و لم انشغل بأحد.
دخلت تلك المساحة الفارغة التي لا يكون الكلام مع الآخرين جزءا منها، لم اشغل نفسي طويلا بالوضع المحير للرجل، من الواضح ان الاتفاقيات وضعته في موقف لا يستطيع معه ان يقرر شيئا ... هنا كل الإجراءات الأمنية و الجمركية و الإدارية من اختصاصهم ، هم ... من اختصاص "الجانب الاخر".

بعد ساعة تقريبا ظهر منهم ضابط غير الضابط الأول، اصطحبني إلى غرفة فيها رجل بملابس مدنية أمامه نموذج مطبوع و أسئلته ذات طابع إحصائي لم يسأل أي سؤال سياسي ، انه لن يفتح لي ملفا.
- اذهب الان للتعرف على حقيبتك.
انتظار اخر لوصول الحقيبة على الحزام المتحرك.... قاعة مزدحمة بعابري الجسر الذين ينتظرون حقائبهم مثلي و على يمين القاعة غرفة خاصة بتفتيش ما يقررون تفتيشه منها... صناديق كرتونية ، اجهزة منزلية ، تلفزيونات ، و ثلاجات، مراوح و اغطية صوفية ، لفائف و حشيات و حقائب من كل الاشكال و الاحجام، عندما اسافر الى اى مكان احمل معي اخف و اصغر حقيبة ممكنة، لا احب ما تفعله الحقائب بالمسافر، و اكره اضطراري لفتحها و عرض محتوياتها على موظف يبحث عما لا اعرف!
إسرائيليون و إسرائيليات يرتدون قفازات النايلون و يتفحصون محتويات ما تكتظ به الغرفة أصحاب الحاجيات ينتظرون الافراج عنها... مجندة إسرائيلية شقراء تضاهي بكسل روتيني ارقام الحقائب على الكمبيوتر بالرقم الملصق على جواز السفر قدمت لها جواز سفري لافتا نظرها الى ان ما لدي هو حقيبة يد واحدة فقط، و اني أراها بالفعل بين الحقائب الجاهزة في وسط القاعة، رغم ذلك طلبت مني الانتظار... و بعد وقت قصير اشارت لي بالدخول الى قاعة الحقائب... التقط حقيبتي الصغيرة ، اعبر البوابة الضخمة... اغادر المبنى كله الى الشارع....

بوابة الأبواب... لا مفتاح في يدنا ، و لكنّا دخلنا لاجئين الى ولادتنا من الموت الغريب.. و لاجئين الى منازلنا التي كانت منازلنا و جئنا في مباهجنا خدوش لا يراها الدمع الا و هو يوشك ان يهيلا.

مشيت خطوتين ثم توقفت... ها انا اقف بقدميّ على التراب ... منيف لم يصل الى هذه النقطة، برودة تسري في عمودي الفقري ، الشعور بالراحة ليس كاملا، الشعور بالأسى ليس كاملا... فتحت لنا بوابة المنفى من الجهة العجيبة! من الجهة التي تفضي إلى "البلد" و ليس الى "البلاد"... بلاد الآخرين.

اقف بقدميّ على تراب الأرض، على "ارض" الأرض... بلاد تحملني...
فلسطين في هذه اللحظة ليست الخريطة الذهبية المعلقة بسلسال ذهبي يزّين أعناق النساء في المنافي... كنت أتساءل كلما رأيت الخريطة تحيط بأعناقهن عمّا إذا كانت المواطنة الكندية أو النرويجية أو الصينية تعّلق خريطة بلدها على نحرها كما تفعل نساؤنا!
قلت مرّةً لصديق:
-عندما تختفي فلسطين كسلسال على ثوب السهرة ، كحليةٍ او كذكرى او كمصحف ذهبي أي عندما نمشي بأحذيتنا على ترابها، و نمح غبارها عن ياقات قمصاننا و عن خطانا المستعجلة الى قضاء شؤوننا اليومية العابرة العادية و المضجرة عندما نتذمر من حرها و من بردها و من رتابة البقاء فيها طويلا عنئذ نكون قد اقتربنا منها حقا.
ها هى الان امامك ايها المسافر اليها.... انظر جيدا.

على الرصيف المقابل للمبنى التقى بأول فلسطيني يمارس صلاحيات واضحة و مفهومة: رجلُ نحيل متقدم في السن يجبس وراء طاولة صغيرة، نصبها في ظل الحائط ليتقى قيظ حزيران ، ينادي عليّ بصوتٍ مرتفع:
- تعال هون يا أخ ، خذ تذكرة للباص.
ليس هناك ما هو موحش للمرء اكثر من أن ينادى عليه بهذا النداء " يا أخ ".
(يا أخ) هي بالتحديد العبارة التي تلغى الاخوة!
تأملته لحظة.... دفعت له ثمن التذكرة بالعملة الأردنية ابتعدت خطوتين أو ثلاث ثم توقفت ، التفت إليه مرة أخرى ، ركضت إلى الباص ... لا ، لم اركض بالضبط، كنت امشي مشية عادية جدا، شئ بداخلي كان يركض... جلست في الباص إلى أن امتلأ بأمثالي من عابري الجسر، سالت السائق إلى أين نذهب الآن؟
- إلى استراحة أريحا.
ها أنا ادخل إلى فلسطين أخيرا.... لكن ، ما هذه الأعلام الإسرائيلية؟
انظر من نافذة الباص فأرى أعلامهم تبدو و تختفي على نقاط الحراسة المتكررة، بعد كل بضعة أمتار، تظهر أعلامهم!
شعور بالانقباض لا أريد أن اعترف به، شعور بالأمان يرفض أن يكتمل.... عيناي لا تفارقان النافذة و صورةٌ لأزمنةٍ مضت و انقضت لا تفارق عينيّ... في هذا الباص البطيء أستعيدها كاملة كأنني كنت فيها أمس...
صالة الإفطار في فندق الكارفان الذي التمّ فيه شملنا كأسرة لأول مرة بعد ال٦٧... كان ذلك في صيف العام التالي للحرب، صيف ١٩٦٨... كنت اعمل في الكويت الوالدة و الصغير علاء في رام الله، الوالد في عمان و مجيد في الجامعة الأردنية و منيف يعمل في قطر...عبر كافة وسائل الاتصال المتاحة في تلك الأيام، اتفقنا أن

نلتقي جميعا في عمان، وصلنا تباعا إلى فندق "الكارافان" في جبل اللويبدة و هو فندق صغير و أنيق من ثلاثة أوأربعة طوابق.

كان ذلك أول لقاء بأمي و أبى و اخوتي منذ فرّقتنا الحرب، نزلنا في ثلاث غرف متجاورة، الفنادق ترتبط بالنوم لم ننم... كان الصباح يفاجئنا كأنه ليس متفقا عليه في النظام الشمسي، كأنه يظهر و يختفي بلا منق و على غير توقع من أحد.لم أذق إفطارا كإفطارات ذلك الصيف... مثيرٌ أن تبدأ نهارك مع العائلة كلها بعد مضي كل تلك الشهور الغريبة، كنا ننظر الى بعضنا كأن الواحد منا يكتشف وجود الآخر لاول مرة في نفس المكان، كأننا نستعيد في كل يوم أمومة أمنّا و أبوة أبينا، و اخوة الاخوة و بنوة الأبناء. الغريب ان أحدا منا لم يفصح عن تلك المشاعر باللغة المنطوقة كان فرحنا بوجودنا معا في هذا الفندق معلقا في الهواء المحيط بنا، نشعر به و لا نريد أن نفضحه ، كأنه سر من الأسرار، و كان المطلوب منا جميعا ان نكتمه.

الفندق بحد ذاته فكرة الفندق بحد ذاتها كانت تحمل معها اليقين بان اللقاء عابر، مؤقت ، و يوشك على الانتهاء.... منذ الليلة الاولى تحول اللقاء الى ذعر من الانفصال الاكيد .. بدأ التوتر يختلط بالبهجة لم نكن نتفق هل نطلب السلطة بزيت الزيتون ام بدون ، هذا يريده ناعمة ، و ذاك يريدها خشنة... الخ.

و في برامج الخروج تجلى التوتر الأكبر، هذا يقترح زيارة احد الأقرباء المقيمين في عمان و ذاك لا يريد الخروج أصلا، و ذاك يقترح مكانا آخر و لكن الأمر لم يخل من فكاهات و قفشات و طرائف يومية أتذكر أجواءها و لا أتذكرها الآن.

في الكارفان جددت التعرف على اخوتي و على أمي و آبي لقد جدّت على الجميع ظروف استثنائية لا اعرفها. و جدّت علىّ ظروف غيرها، اضطرني خالي عطا بإلحاحه الذي لا يُرد أن أسافر الى الكويت و هناك وجدت عملا في الكلية الصناعية فلا يعقل ان يواصل منيف الإنفاق عليّ بعد تخرجيّ أيضا، لم احب مهنة التدريس ابدا، قبلتها كحل مؤقت الى ان تتضح الأمور.

منذ ال٦٧ و كل ما نفعله مؤقت و"الى ان تتضح الأمور"... و الامور لم تتضح حتى الان بعد ثلاثين سنة (!) حتى ما افعله الان ليس واضحا لي، أنا مندفع باتجاهه و لا أحاكم اندفاعي، و هل يكون الاندفاع اندفاعا إذا حاكمناه!

في نكبة ال١٩٤٨ لجا اللاجئون الى البلدان المجاورة كترتيب "مؤقت"... تركوا طبيخهم على النار آملين العودة بعد ساعات!... انتشروا في الخيام و مخيمات الزنك و الصفيح و القش"مؤقتا".

حمل الفدائيون السلاح و حاربوا من عمان " مؤقتا" ثم من بيروت "مؤقتا" ثم أقاموا في تونس و الشام "مؤقتا".... وضعنا برامج محلية للتحرير "مؤقتا" و قالوا لنا انهم قبلوا اتفاقية أوسلو "مؤقتا" الخ الخ.

قال كل منا لنفسه و لغيره " إلى أن تتضح الأمور"...

علاء الصغير يلح باللحاق بابيه و اخوته، الوالد لا يتيح له عمله كعسكري في الجيش الأردني ان يذهب الى الضفة الغربية بعد احتلالها الخ.

رغبة الوالدة في التخطيط لحياة الأسرة في ظروف تجعل فكرة التخطيط فكرة اقرب الى العبث، منهمكة في تقليب البدائل... وجهها المرهق اكتسب حيوية مضافة بفعل الرغبة في تحدّي الصعوبة و التبعثر ، عيناها الخضروان بشكلهما الأقرب إلى شكل المثلث، تلمعان بيقظتهما الدائمة حتى في ذروة النعاس آخر الليل.
الوالد بهدوئه الذي يشعرك ان الأمور ستسير في النهاية حتى لو لم يفعل المرء شيئا لتسييرها، شئ من صبر حكماء الهند يزيد من هدوئه الذي يستفز امي المتسائلة دائما و الباحثة بالأظافر عن حلول.
عيناه الضيقتان بسوادهما العميق لا تفصحان عن أحوال قلبه الا عندما يضحك، انا الوحيد الذي ورثت عنه سواد العينين و ضيقهما، منيف و مجيد و علاء لهم عيون خضراء كعيني امي.
منيف الشاب الشديد الوسامة الذي يقوم بدور تربوي لاشقائه الأصغر و هو لم يتجاوز السابعة و العشرين من عمره، كل عقبة يتبرع بحلها و كل تضحية يسارع لتقديمها باستعجال و دون تردد.
مجدي الفارع الطول ازداد طولا، له طريقة في اشتقاق المرح و الفكاهة حتى من المأساة، يرسم و ينحت و يكتب الشعر دون رغبة في نشره (حتى الآن يرفض ان يسعى للنشر مع ان ما يكتبه شديد التميّز) و له قلب شديد الانتباه.
علاء الصغير الذي يعشق الفلسفة، يريد تعلم الهندسة ، يكتب الأغاني باللهجة المحكية، و يريد ان يتعلم العزف على العود... وجه المائل للشقرة و شعره الإفريقي الاكرت منحاه وسامة خاصة به، حافظ علاء على طفولة يندر ا ن يحافظ الرجال على مثلها و بياض شعرهم يخالط سوداه
تبعثر الاسرة علمها الترابط و في لحظة اللقاء نصبح نحن الرجال الأربعة أطفالا أمام الوالدين حتى بعد ان اصبحنا آباء لأحفادهما.
بعد اسبوع عاد كل منا الى مكانه... اتفقنا ان تقيم الوالدة مع أبى و مجيد و علاء في عمان بعض الوقت ثم تعود إلي رام الله لتجديد تصريحها و هويتها ، حتى لا تفقد حقها في الإقامة في فلسطين التي أصبحت بأكملها محتلة.
كان الاحتفاظ بحق المواطنة و لو تحت الاحتلال مكسبا لا ينبغي التفريط به مهما كانت الظروف، و ما زالت الوالدة تحمل هويتها و ما تزال مواطنة، لكن لم يسمحوا لها أبدا أن تحصل لمنيف و لي على "لمّ شمل"... لم نلتق كأسرة كاملة إلا بعد عشر سنوات في مدينة الدوحة في زيارة لمنيف قبل تركه قطر إلى فرنسا. ...

فوجئت بتوقف الباص كأنه وصل قبل أوانه، الحمّالون يتصايحون تحت نوافذه، تذكرت قِصَر المسافات عموما بين كل الأماكن في فلسطين... حملت حقيبتي و نزلت.
هذه هى استراحة أريحا...
من هنا يتوزع القادمون إلى مختلف مدن البلاد... هنا ترتفع الأعلام الفلسطينية وحدها.... سيارات التاكسي تصطف تحت اليافطات التي تحمل أسماء المدن، رام الله ، نابلس، جنين ، طولكرم ، الخليل، غزة والقدس.
كما في كل المحطات يستقبلك شجار السائقين للاستحواذ على راكب، صراخ ... تهديدات... شد وجذب... يظهر شرطي فلسطيني شاب يفض النزاع بحكمة...

تنطلق بي السيارة إلى رام الله.
أجلس بجوار السائق في سيارة مرسيدس قديمة تحمل سبعة من الركاب... في السيارة ، أبدو كشخص أصابه الخرس... أم أنني بالفعل أهذي عمري وأثرثره دفعة واحدة
على مسامع نفسي فأكون منها كما يكون المصاب بالحمى ، تظنه نائما أو صامتا بينما كل جسده حكايات؟
هؤلاء أهلي لماذا لا أتبادل معهم الحديث؟
كنت أقول لزملائي وزميلاتي المصريين في الجامعة إن فلسطين خضراء مغطاة بالأشجار ... والأعشاب والزهور البرية ، ما هذه التلال؟ جيرية كالحة وجرداء!هل كنت أكذب على الناس آنذاك؟ أم أن إسرائيل غيرت الطريق الذي تسلكه سيارات الجسر وحولته إلى هذا الطريق الكالح الذي لا أذكر أنني سلكته في سنوات الصبا؟ هل قدمت للغرباء صورة مثالية عن فلسطين بسبب ضياعها؟ قلت لنفسي عندما يأتي تميم إلى هنا سيظن أنني وصفت له بلادا أخرى!
أردت أن أستفسر من السائق عما إذا كان الطريق هكذا على امتداد السنين ،لكني لم أفعل... شعرت بغصة غامضة وبنوع من الخذلان... هل كنت أصف للناس دير غسانة بتلال الزيتون المحيطة بها وأقنع نفسي أنني أصف كل تضاريس البلاد؟ أم أنني كنت أصف لهم رام الله ، المصيف البديع الأخضر متوهما أن كل بقعة من فلسطين تشبه رام الله تماما؟ وهل كنت حقا أعرف الكثير من ملامح الأرض الفلسطينية؟

السيارة تواصل طريقها وأنا أواصل النظر من نافذتها على يميني وعلى يسار السائق... ما هذا العلم الإسرائيلي ؟ ألم ندخل "مناطقنا" منذ فترة؟ هذه هي المستوطنات إذا!
أن يتحدث المتحدثون عن المستوطنات شيء ، وأن تراها بعينك شيء آخر.
كل الإحصائيات سخيفة بلا معنى... الندوات والخطب والاقتراحات والاستنكارات والذرائع وخرائط التفاوض وحجج المفاوضين، وكل ما سمعناه وقرأناه عن المستوطنات، لا يساوي شيئا أمام مشاهدتها بعينيك.
أبنية متدرجة من الحجر الأبيض متلاصقة ومتكاتفة... تصطف خلف بعضها في سطور منسقة، راسخة في أماكنها... بعضها عمائر وبعضها بيوت يغطي سقوفها القرميد... هذا هو البادي للعين الناظرة من بعيد... ما هو شكل حياتهم من الداخل يا ترى؟
من يكون سكان هذه المستوطنة؟ من أين أتوا قبل أن يؤتى بهم إلى هنا؟ هل يلعب أطفالهم الكرة وراء هذه الأسوار؟ وهل رجالهم ونساؤهم يمارسون الحب خلف هذه النوافذ ؟ هل يفعلون ذلك والمسدسات على جنوبهم؟ والرشاشات هل يعلقونها معبأة وجاهزة على جدار غرفة النوم ؟ على التلفزيون لا نشاهدهم إلا مسلحين... هل يخافون منا حقا أم نحن الذين نخاف؟
إذا سمعت من الخطيب على المنبر كلمة "تفكيك المستوطنات" فاضحك واضحك كما تشتهي... إنها ليست قلاعا من الليجو أو الميكانو التي يلهو بها الأطفال... إنها إسرائيل ذاتها.إنها إسرائيل الفكرة والأيديولوجيا والجغرافيا والحيلة والذريعة... إنها المكان الذي لنا وقد جعلوه لهم... المستوطنات هي كتابهم... شكلهم الأول... هي

الميعاد اليهودي على هذه الأرض...هي غيابنا ... المستوطنات هي التيه الفلسطيني ذاته... قلت لنفسي إن مفاوضي أوسلو كانوا يجهلون المعنى الحقيقي لهذه المستوطنات وإلا لما وقعوا الاتفاقية!

تنظر من نافذة السيارة يمينا فتفاجأ بأن الشارع النحيل المتآكل الذي يحملك ، يصبح أكثر اتساعا ونعومة وأناقة .. اسفلته يزداد بريقا ، وسرعان ما ينفصل عن الطريق، صاعدا إلى تلة فاخرة المباني ، فتدرك أنه يفضي إلى مستوطنة ... تنظر إلى يسارك بعد قليل ، فترى مستوطنة ثانية وشارعا أنيقا عريضا آخر يؤدي إليها . ثم ترى الثالثة والرابعة والعاشرة وهكذا. الأعلام الإسرائيلية ترتفع على مداخلها... وتلاحظ أن الكتابة على إشارات المرور باللغة العبرية فقط.

من أقام كل هذا الهول؟ من بناه؟ ... عندما اجتزت الجسر كان زعيم "الليكود" بنيامين نتنياهو بانتظار النتائج النهائية لتأكيد فوزه في الانتخابات... إنه "حزب العمل" إذا... إنه شمعون بيريز الذي صوره الإعلام العربي لرجالنا وكأنه صلاح الدين الأيوبي، ولنسائنا كأنه عمر الشريف ولجامعة الدول العربية كأنه من بني قحطان!

منذ بن جوريون وحزب العمل يبني على أرضنا هذه المستوطنات... بلهاء الليكود يثيرون لغطا وضجيجا عاليا حول سياستهم في الإستيطان، وحول كل مستوطنة جديدة يبنونها... لكن دهاة حزب العمل يذكرونني بتلك الحيلة الخبيثة التي قرأتها في أيام الطفولة، عن اللص الذي سرق سيارة... في اليوم التالي أعادها لأصحابها وترك لهم بداخلها رسالة اعتذار رقيقة، يقول فيها إنه لم يقصد السرقة، بل كل ما حدث ، أنه احتاجها لليلة واحدة فقط ، للخروج مع حبيبته ، إنه يعيد السيارة الآن ، وبداخلها بطاقتان للدخول إلى المسرح، يقدمها هدية لصاحب السيارة وزوجته ، تأكيدا لاعتذاره وحسن نواياه... ابتسم الزوجان وأعجبا برقة اللص العاشق وظرفه... في المساء ذهبا بالفعل إلى المسرح... عادا في وقت متأخر من الليل طبعا ليكتشفا أن اللص الرائع قد سر ق أثناء غيابهما كل ما هو ثمين في منزلهما وهرب!

قد يخنقك المجرم بشال من الحرير وقد يهشم رأسك بفأس من الحديد... وسيضمن مصرعك في الحالتين. التطابق ليس تاما بالطبع بين حكاية حزب العمل وحكاية ذلك اللص ، لكن ثنائية الدهاء والغباء، تمتزج في المشروع الصهيوني منذ بداياته... وهناك باستمرار في إسرائيل، رموز تمثل طرفي المعادلة الواحدة... ومهما حدث هم يستفيدون في الحالتين... يستفيدون من التدبر الناعم ، ويستفيدون من البلطجة أيضا. المعتدلون يتعلمون لغة الحديد من المتطرفين في فترة من الفترات...والمتطرفون سيتعلمون لغة الحرير من المعتدلين إذا اقتضى الأمر... ونحن أصحاب المنزل .. نخسر في كل الأحوال ، ونخسر على كل الوجوه.

كيف تراهم يقيمون كل هذه المدن؟ القلاع؟ الثكنات؟ سنة بعد سنة؟ قال لي بشير البرغوثي قبل عدة سنوات إنه من شرفة بيته في دير غسانة كان يرى أضواء

المستوطنات تتزايد سنة بعد سنة حتى باتت تحيط بدير غسانة على شكل دائرة، وانهم بالتدريج وفي ظل صمتنا الطويل انتشروا في كل مكان.

نسيج السجادة هو المستوطنات... عليها بعض النقوش متناثرة هنا وهناك هي كل "ما تبقى لنا "من فلسطين ، وفي الترتيبات التفاوضية الأخيرة خرجوا من منازلنا لكنهم يواصلون احتلال الطرقات المؤدية إليها... ولهم الحق في إيقافك على الحواجز الأمنية الكثيرة وعليك الانصياع...

أما القدس فلم يسمح لي أن أراها بالعين وأن أدخلها... لا ماشيا ولا راكبا ولا طائرا بجناحين. حتى الطريق إلى رام الله الذي كان يمر من القدس غيروه عبر شوارع التفافية

معقدة حتى لا نراها من زجاج السيارة ، فقط برفقة قيادي فلسطيني من الذين يحملون بطاقة "شخص مهم جدا" يمكنك الذهاب إلى القدس...(والشخص المهم جدا بالنسبة للإسرائيليين لن يأخذك لرؤية القدس إلا إذا كنت أنت شخصا مهما بالنسبة له هو ! ). لم أجد من يصطحبني إلى القدس.

عندما وصلنا إلى"دوار الشرفة" سألت السائق إن كان يعرف بيت الدكتور حلمي المهتدي... فقال على الفور:

-ولكنه مات منذ سنين!

-أعرف.

-(لم أكن أعرف... لكن "أبو حازم" وصف لي بيته بأنه مقابل بيت الدكتور حلمي المهتدي)

ثم أضفت موضحا :

-أنا رايح لبيت قريب منه.

كان أبو حازم يسكن في عمارة اللفتاوي التي سكناها أيضا ولكنه انتقل إلى بيت جديد .. بعد ضلك ورغم الوصف المعتنى به الذي كان شرحه لي ولمنيف من قبلي لعنوان البيت إلا أنني بسبب تشتت الذهن والتوتر لم أستطع استعادة الوصف، وزاد من صعوبة الأمر أنني دخلت رام الله بعد حلول الظلام.

قال السائق:

-والله أنا باعرف عيادته على المنارة بس باعرفش البيت.

سألتني السيدة الجالسة في المقعد الخلفي عن البيت الذي أقصده بالضبط. قلت لها:

-بيت مغيرة البرغوثي، أبو حازم.

سألت عن إم زوجته... قلت لها:

-فدوى البرغوثي... تشتغل في "جمعية إنعاش الأسرة".

قالت إنها تعرفها وإنهما عملا معا في الجمعية...لكنها لا تعرف موقع البيت.

تدخل شخص آخر من المقعد الخلفي وقال للسائق:

-جرب أدخل من الشارع القادم إلى اليسار وبعدين اسأل في المنطقة هناك... أعتقد أن بيت الدكتور قريب من هنا.

انعطف السائق يسارا وقطعنا مسافة قصيرة ثم توقفنا لعل أحد المارة يدلنا ، كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف ليلا. ما إن توقفت السيارة حتى سمعت أصواتا تناديني:

-عمو مريد عمو مريد.اطلع إحنا هون!

في لمح البصر كانوا حولي...

-وين الوالد؟

قالت فدوى إنه بمجرد رؤيته لسيارة من سيارات الجسر تتوقف (حقائب الركاب مرصوصة فوقها) ركض إلى الهاتف ليطمئن أم منيف في عمان.

كنت متأكدا أن أمي ستقضي اليوم بطوله بجوار الهاتف حتى تتأكد من وصولي سالما.ما زالت تجربة إعادتهم لمنيف من الجسر ماثلة أمام عينيها... حين ودعتني عند الجسر كان على وجهها مزيج من ملامح الرجاء واليأس.

وكنت واثقا أيضا أن رضوى وتميم في القاهرة ينتظران اتصالي بهما من رام الله منذ الظهر.

-كلنا على البرندات من الظهر.

وقالت ابنتها عبير:

-أبراج المراقبة... بابا وماما في برندة الطابق الأول وأنا وسام في الطابق الثاني...الحمد لله على السلامة.

هجم أبو حازم فاتحا ذراعيه...هجم علي بشعره الأبيض وذراعيه الأفقيتين ... صليب يركض... صليب مبتهج يركض نحوي... التقت أكتافنا في ثلث الشارع تقريبا باتجاه بيته.اتصلت بأمي وعلاء وإلهام في عمان،و برضوى وتميم في القاهرة:

-أنا في رام الله.

وفي برندة "أبو حازم" كانت هناك،داخل إطارها الأسود ، معلقة على الجدار، وهي أول ما وقعت عليه عيناي :صورة"منيف"

**انتهى الفصل الاول**

## الجزء الثاني

**هنا رام الله.**

الصباح الأول في رام الله ... أستيقظ وأسارع بفتح النافذة...

-شو هالبيوت الأنيقة يا أبو حازم؟

سألت وأنا أشير بيدي إلى "جبل الطويل" المطل على رام الله والبيرة.

-مستوطنة.

ثم أضاف،

-شاي ؟ قهوة؟ الإفطار جاهز.

يا لها من بداية لاستئناف العلاقة بالوطن! ولماذا تداهمني السياسة هكذا؟ إن في رام الله والبيرة أشياء أخرى غير المستوطنات! أنت العائد إلى مدينة صباك وشبابك بعد ثلاثين سنة تحاول على الفور استدراج الفرح إلى قلبك كما تستدرج الدجاجات إلى صحن الشعير.... ما الذي يجعل فرحك يعتمد على المحاولة لا على التجلي؟

ألأنك تعرف أن هناك شيئا غير مكتمل في المشهد كله؟ شيئا ناقصا في الوعد، وفي المتحقق من الوعد؟

ألأنك مثقل ؟

ألأنك لم تألف الألفة بعد؟

هل أنت في الرقصة أم في الاعتذار عنها؟

أتعترض على المعزوفة أم على العازفين؟

الفرح تدريب وخبرة.... لابد أن تتخذ الخطوة الأولى،رام الله لن تتخذها... رام الله مكتفية بما هي عليه، مكتفية بما عاشته، القريب منها قريب والبعيد عنها بعيد... ذهبت في طرقها كما قدر لها أهلها حينا وكما قدر لها أعداؤها أحيانا... تعبت وتحملت... هل هي التي تنتظر أن تلقي برأسها على كتفيك أم أنك تلجأ الآن إلى كتفيها؟ لقاء ملبس.... لا نعرف فيه من منا يعطي زمن يأخذ ، كنت تقول ذلك للمرأة... الحب هو ارتباك الأدوار بين الآخذ والمعطي ... هذا حديث عن الحب... حسنا ، ها هي دجاجات الفرح تستجيب للاستدراج التلقائي (هل هناك استدراج تلقائي؟) ها أنت تقول خذوني إلى مدرستي.... إلى شارع الإذاعة،إلى دار خالي أبو فخري ، إلى عمارة اللفتاوي ... خذوني إلى دار الحاجة أم إسماعيل ،إلى منازل سكنتها وطرق مشيتها ... ها أنت تستطيع أن تعود لتمشيها، ذلك ما لم يستطعه "منيف" الراقد الآن في مقبرة في أطراف عمان... موته ليس هو الذي منعه من العودة ، بل منعه من العودة هو الذي أماته فيما بعد... قبل ثلاث سنوات أعادوه من الجسر بعد يوم من الانتظار... كرر المحاولة بعد بضعة أشهر، فأعادوه للمرة الثانية. لا تزال أمي، بعد مرور ثلاث سنوات على تلك الواقعة، عاجزة عن نسيان لحظاتها الأخيرة معه على الجسر... استمات على الدخول إلى فلسطين التي غادرها بحثا عن الرزق وهو ما يزال في الثامنة عشرة من العمر.

إن كتبا كثيرة يجب أن تكتب حول دور الشقيق الأكبر في العائلة الفلسطينية، منذ مراهقته يصاب بدور الأخ والأب والأم ورب الأسرة وواهب النصائح والطفل الذي يبتلى بإيثار الآخرين وعدم الاستئثار بأي شيء.... الطفل الذي يعطي ولا يقتني.... الطفل الذي يتفقد رعية تكبره سنا وتصغره سنا فيتقن الانتباه....

موته المباغت هو الدوي الأعظم في حياة الأسرة كلها.... كان وصل إلى هذه البوابة الأخيرة لكنها لم تنفتح له أبدا.ها أنا أخطو على بقعة من التراب لن تصلها قدماه.لكن المرآة المعلقة في غرفة الانتظار على الجسر عكست وجهه هو عندما نظرت فيها .. شوارع رام الله، عندما مشيت فيها، شهدت صدره المندفع قليلا إلى الأمام ، وخطواته المستعجلة.... منذ قدمت أوراقي لسلطات الجسر ، وجهه يلح علي.... هذا المشهد مشهده هو... مشهد منيف... هنا إنتظر... هنا خاف... هنا تفاءل واستبشر.... هنا حققوا معه... هنا سمحوا لأمي بالدخول ومنعوه.... هنا كان عليهما أن يفترقا.... هي مكرهة على إكمال رحلتها غربا إلى رام الله ، وهو شرقا إلى عمان ، ومنها إلى منفاه الفرنسي حيث مات بعد ستة أشهر وهو لم يتجاوز الثانية والخمسين عاما.هنا صرخت في وجوه الجنود: أعيدوني معه إذا.... هنا بكت على كتفه وبكى على كتفها... هنا ودعته الوداع الأخير... عندما دخلت إلى دير غسانة كانت يده في يدي ... سرنا جنبا إلى جنب نحو "دار رعد" بيتنا القديم... وعندما اجتزت عتبته للمرة الأولى منذ ثلاثين سنة، كانت الرعشة التي أصابت جسدي دون أن يلتفت لها أحد، هي ذاتها الرعشة التي غمرتني وأنا أهبط بجثمانه إلى القبر في ذلك اليوم المغمور بالذهول والمطر، في مقبرة تقع على أطراف عمان.

لم أذهب إلى دير غسانة بعد... إنهم يعدون لي لقاء مع الأهالي وأمسية شعرية، وسيخبرونني باليوم المناسب... أنا الآن في رام الله... دخلتها ليلا... كان الطريق إليها طويلا منذ ؟؟؟؟ وأنا أمشي .... من أول شمس أمس إلى أول شمس اليوم وأنا أمشي .

ربيعها المعاند، لا يريد أن يلم نفسه لصيفها المتردد الخجول في الموعد المألوف ، الربيع يزاحم بكتفيه ، بألوانه.بشهقة البرد والندى في هوائه ، بأخضره الذي عامدا متعمدا لم يكتمل بعد، ولم يصبح غامقا كما يطالبه الصيف.

فوضى المدن، هدوء البراري ، شعارات المنتفضين ، رائحة الصفوف الابتدائية ، مذاق الطباشير.... صوت الأستاذ أحمد صالح عبد الحميد وأحمد فرهود والشاطر الذي يميز التمييز من النعت من الحال... وكيف يمكن وصف هذا الحال الذي وصلنا( لم نصل؟)إليه؟ وكيف يمكن التمييز بين الأيديولوجيات والآراء المتعارضة والنظريات السياسية من جهة، وهذه التينة الخضراء التي تغطي ثلث الهضبة التي تجاور بيت "أبو حازم" من جهة أخرى؟

أطل من هذه النافذة التي تقع على بعد ثلاثين عاما من العمر، وتسعة دواوين من الشعر، وعلى بعد العين عن دمعتها تحت صفصاف المقابر البعيدة.... أطل من النافذة على مسعى العمر الوحيد الذي منحته لي أمي ، ومسعى الذين غابوا إلى أقصى درجات الغياب وإلى عزاء النفس ب "ولا تحسبن"... ولماذا في نافذة البهجة

تداهمني ذاكرة المراثي؟ إنهم هنا... هل يطلون معي من النافذة؟ ... يرون ما أرى ،أبتهج لما يبهجهم ، أسخر مما يسخرون منه أعترض على ما يعترضون عليه؟

هل أستطيع أن أكتب بأقلامهم على ورقهم الشديد البياض ما يخطر ببالي الآن : ان الشهداء أيضا جزء من الواقع، وان دم المنتفضين والفدائيين واقعي؟ ليسوا خيالا كأفلام الكارتون وليسوا من إختراعات والت ديزني ولا من تهويمات المنفلوطي وإذا كان الأحياء يشيخون فإن الشهداء يزدادون شبابا....

رام الله السرو والصنوبر، أراجيح المهابط والمصاعد الجبلية اخضرارها الذي يتحدث بعشرين لغة من لغات الجمال ، مدارسنا الأولى حيث يرى كل طفل منا أن الأطفال الآخرين أكبر سنا وأكثر قوة... دار المعلمات ، الهاشمية ، الفرندز ، رام الله الثانوية ، نظراتنا الآثمة على أسراب بنات الإعدادية اللواتي يمرجحن سلة الوثوق باليمنى وسلة الإرتباك باليسرى و(يشلفن) عقولنا حين ينظرن إلينا وهن لا ينظرن إلينا... مقاهينا الصغيرة... المنارة... قال لي "أبو حازم"إن المنارة أزيلت من أجل تخطيط المرور في وسط المدينة واستبدلوا بها الإشارات الضوئية... كتابات الجدران... فل الانتفاضة وفولاذها الشفاف، آثارها الواضحة كالبصمة الليلكية.

بعد كم ثلاثين سنة أخرى سيعود الذين لم يعودوا؟ ما معنى أن أعود أنا أو غيري من الأفراد؟ عودتهم هم، عودة الملايين، هي العودة.... موتانا ما زالوا في مقابر الآخرين، وأحياؤنا ما زالوا عالقين على حدود الآخرين...على الجسر، على هذه الحدود العجيبة التي لا مثيل لها في القارات الخمس، تداهمك ذاكرة وقوفك على حدود الآخرين.

ما الجديد هنا؟ مازال الآخرون هم الأسياد على المكان... هم يمنحونك التصريح ، هم يدققون أوراقك ، هم يفتحون لك الملفات، هم يجعلونك تنتظر.

هل أنا متعطش لحدودي الخاصة؟ أنا أكره الحدود... حدود الجسد، وحدود الكتابة ، وحدود السلوك، وحدود الدول...

هل أريد حقا حدودا لفلسطين؟ وهل بالضرورة ستكون حدودا أفضل؟

ليس الغريب وحده هو الذي يشقى على الحدود الغريبة....المواطنون يرون نجوم الظهر أحيانا على حدود أوطانهم....

لا حدود للأسئلة.... لا حدود للوطن.... الآن أريد له حدودا سأكرهها لاحقا....

عجيبة رام الله...متعددة الثقافات ، متعددة الأوجه.... لم تكن مدينة ذكورية ولا متجهمة.... دائما سباقة إلى اللحاق بكل ترف جديد... فيها شاهدت الدبكة كأني في دير غسانة.... فيها تعلمت التانجو منذ سنوات المراهقة...وفيها تعلمت لعبة البلياردو في صالون "الأنقر".... وفيها بدأت أحاول كتابة الشعر.... وفيها نشأ اهتمامي بالفن السينمائي منذ الخمسينات عبر برامج سينما "الوليد" و"دنيا" و"الجميل" ... وفيها تعودت على الاحتفال بالكريماس ورأس السنة.

لم تلاحقنا عيون فضولية أبدا ونحن نذهب إلى المقهى وحديقة "ركب" شبانا وصبايا لتناول الشوكالامو والبيتش ملبا والميلك شيك والبنانا بليت في ظلال أشجاره الجميلة وعلى أرضيته المفروشة بالحصى الأبيض.

سهرنا مع أصدقائنا وأهالينا في منتزه رام الله ومنتزه البيرة ومنتزه نعوم... كنا نتعرف على ملامح بعض المشاهير الذين يتحلقون على الموائد الأنيقة في فندق عودة وفندق حرب، يرتدون الطرابيش ويناقشون القضايا السياية وهم يمكون بخراطيم "الأرجيلة".... رام الله كانت شديدة النظافة في شوارعها ومطاعمها ومقاهيها ومنتزهاتها وكذلك مدينة البيرة، المدينة التوأم لرام الله... وفي رام الله عرفت المظاهرات للمرة الأولى في حياتي... تظاهرنا ضد حلف بغداد.... وتظاهر أهل القدس ونابلس وباقي المدن ... هزنا خبراستشهاد الطالبة رجاء أبو عماشة في تلك المظاهرات ونحن نرتدي الشورت... كنت أعرف أن منيف يخبئ المنشورات السرية في حذائه لينقلها من مكان إلى مكان دون ان يشك فيه أحد لأنه طفل... وكنا نتابع أخبار القبض على ابن عمنا بشير ونزور جارتنا في عمارة اللفتاوي أم بشير لنواسيها ونسأل عن أخباره....

تظاهرنا من أجل طرد كلوب باشا وتعريب الجيش الأردني، ورقصنا طربا عندما تم ذلك بالفعل نتيجة لتطورات سياسية لاحقة... تابعنا صراعات الأحزاب : الشيوعي ، والبعث، و"الإخوان المسلمون"على قدر افهامنا كمراهقين... تابعنا الانتخابات التي جاءت بحكومة سليمان النابلسي... تلصصنا الاستماع إلى خطب جمال عبد الناصر من صوت العرب لأن الاستماع إلى صوت العرب كان يعرض الشخص للشبهة وربما المساءلة...

في رام الله طربنا لقرار جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس وتابعنا أخبار بور سعيد وصمودها... في رام الله رقصنا للوحدة بين سوريا ومصر وإعلان الجمهورية العربية المتحدة.... وفيها بكينا يوم إعلان الانفصال... فيها دغدغتنا أحلام القوة بصواريخ القاهر والظافر وفيها سمعنا لأول مرة بالقرارات "الاشتراكية" الصادرة في مصر وأصبحنا، نحن طلاب المدارس الصغار، نتساءل عما يمكن أن يعنيه ذلك المصطلح.

كنا نصحو على صوت "أبو الحبايب" بائع الجرائد الذي لم يغير معطف الجيش لإنجليزي كان يرتديه صيفا وشتاء.... وذيله الفائض عن قامته يلامس أرض رام الله كلها : "الدفاع!" "الجهاد"! "فلسطين"! الجرائد الثلاث احتجبت في لاحق السنوات ، أما أبو الحبايب فمن بين جميع عمارات المدينة، كان قدره أن يموت من شظية قتلته أمام بيتنا نحن في عمارة اللفتاوي.... عثروا على جثته في ذلك الصباح الكابي من حزيران ؟؟؟؟ والجرائد التي ظل يهتف بأسمائها عمرا كاملا تغطي وجهه وعينيه ومعطفه الطويل.

من أين جاء أبو الحبايب؟ أين أهله؟ الكل يعرفه ولا أحد يعرفه.... أبو الحبايب أصابته الشظية بعد أن أصابته الغربة في رام الله ، التي لم يغادرها في حياته إلى أي مكان آخر... هل هو المواطن أم الغريب؟ من يشرح لك الفارق بينهما يا بياع الجرائد؟ ومن قتلك يا رجل؟ هل قتلتك الشظية أم قتلتك العناوين؟

وكيف نفسر اليوم بعد أن كبرنا وعقلنا، أننا في الضفة الغربية عاملنا أهلنا معاملة اللاجئين؟ نعم أهلنا الذين طردتهم إسرائيل من مدنهم وقراهم الساحلية عام١٩٤٨ ، أهلنا الذين انتقلوا اضطرارا من جزء الوطن إلى جزئه الثاني وجاءوا للإقامة في مدننا وقرانا الجبلية أسميناهم لاجئين! وأسميناهم مهاجرين!
من يعتذر لهم ؟ من يعتذر لنا؟ من يفسر لمن هذا الارتباك العظيم؟ حتى في قرية صغيرة كدير غسانة، كنا في طفولتنا نسمع مفردات من نوع "مهاجرين" و "لاجئين" بل أننا ألفنا وتعودنا على استعمالها! كيف لم نسأل أنفسنا في ذلك الوقت عن معنى تلك المفردات! كيف لم ينهرنا الكبار عن استخدامها؟

هل إستيقظت لدي مرة أخرى تلك الرغبة في رصد حصة الضحية من أخطائها ، وعدم الإكتفاء برصد الخلل عند الآخرين، الغازي أو المستعمر أو الأمبريالية إلخ ؟
الكوارث لا تسقط على رؤوس الناس كما تسقط الشهب من السماء على مشهد طبيعي خلاب!
لنا حصتنا من الأخطاء بالطبع... حصتنا من قصر النظر... هل قلت هذا قبل الآن في مكان آخر و زمان آخر؟ أذكر أنني كتبت ذلك أو قلته سابقا لماذا أستعيده الآن؟ لا أدري... ولكني على يقين من أننا لم نكن دائما مشهدا طبيعيا خلابا! رغم أن هذه الحقيقة لا تعفي العدو من جريمته الأصلية التي هي أول الشرور ومنتهاها ... لكنني أعلم أن أسهل نشاط بشري هو التحديق في أخطاء الآخرين.إن الذي يفتش عن أخطائك لن يجد سواها!ولهذا أتساءل مع كل إنتكاسة نواجهها عن أخطائنا نحن أيضا.عن أخطاء أغنيتنا.... أتساءل إن كنت قادرا على الإرتقاء بارتباطي بالوطن، بحيث يرقى إلى أغنيتي عنه .هل الشاعر يعيش في المكان أم في الوقت ؟ وطننا هو شكل أوقاتنا فيه... يبدو أنني شخص سيء الطوية... لم أصدق ناظم حكمت الا قليلا... لم تكن متاعبي في المنفى أكثر من متاعب أصدقائي في أوطانهم... ولا أطيق الحنين بمعناه الذابل... هل أضيق بفكرة التغني بالفكرة؟ هل هذا هو السبب في أنني أتعامل مع القصيدة بصفتها بناء لا غناء؟ حتى الصديقة لا أستطيع أن أخاطبها بالرومانسية الشائعة والمتوقعة، والمرأة التي لاتتخذ الخطوات الأولى نحوي لا أهتم بمصادقتها . وكذلك الحال مع أصدقائي من الرجال أيضا.من السهل علي أن ادير ظهري وأغادر العلاقة إذا رأيت فيها ما يرهق... الصديق المرهق كثير المعاتبة ، كثير اللوم، يريد تفسيرا لما لا يفسر ... يريد أن "يفهم" كل شيء .إذا سامحك على خطأ فهو يشعرك أنه سامحك على خطأ... على عكس العلاقات الاسرية و علاقات القربى، نحن نختار الصديق اختيارا... ولذلك فالصداقة المرهقة، في نظري هي تبرع بالحمق.كما انني لا اندرج بسهولة في سياق جماعي.... لم أقتنع أبدا بالإنضمام إلى أي حزب سياسي إلى اليوم.... لم ألتحق بأي فصيل من فصائل منظمة التحرير الفلسطينية... وربما كان هذا ، لشخص فقد وطنه ، رذيلة لا فضيلة... ليس هذا فقط... بل إنني قاومت عروضا واضحة ومبطنة من تلك الأحزاب والفصائل طوال الوقت... ودفعت أثمانا متفاوتة لعزوفي عن تلك العروض.
الطريف في الأمر أنهم يتقربون منك لأنهم يرون فيك جدارة وتميزا وأوصافا تسرهم، ويلمحون أنهم بحاجة إليك وأنهم يريدونك "معهم"... تشكرهم على حسن ظنهم بك وعلى كرمهم المتمثل في الإنتباه لشخص ضعيف

مثلك... ثم تشرح لهم كيف أنك تفضل التصرف باستقلالية عن التنظيمات والأحزاب، وأنك تحب أن تظل مخلصا لما تظنه طبيعتك... وهنا وبشكل فوري مباغت يبدأون في التعامل معك كعدو لهم بالتحديد، أو كشخص لا قيمة له ولا يستأهل الإهتمام على الإطلاق.

لي أصدقاء على الصعيد الفردي من كل الإتجاهات السياسية أدركوا أنني لا أعرف فكرة " المبايعة "... أومن بحقي في "انتخاب" الأشياء ، بدءا من حق انتخاب كيلو البندورة بنفسي عند بائع الخضار إلى انتخاب من يحكمني أو يتحدث باسمي... لا أستطيع إقرار كل ما تقرره "القبيلة".

معيار السلوك عندي ليس الصحيح والخطأ... وليس الحلال والحرام ... بل الجمال والقبح....هناك صحيح قبيح لا أمارسه ولا أتبعه حتى لو كان لي كل الحق في ممارسته واتباعه... وهناك أخطاء جميلة لا أتورع عن ارتكابها باندفاع ورضى... ولكن، " دائما للرضى ما يشوب الرضى! ما الذي قبل أن تستقر بداياته انقضى؟"

ما مصدر هذه الغضة الصغيرة في البال، وأنا هنا في داخل الحلم ذاته؟ إنني لم "أعد" بالضبط... عدنا للسياسة إذا.... هل من الممكن إعفاء الخاسر والمقهور من السياسة؟ هل يمكن إبعاده عنها؟ كيف يقتنع النقاد الفرنكوفونيون والأنجلوساكسونيون العرب بذلك؟ إن أحدا لم يعرف لهم الفن جيدا، ولم يعرف لهم السياسة جيدا... يتحدثون عن السياسة بصفتها "وقائع"!

كأن أحدا لم يشرح لهم الفرق بين "الوقائع" و"الواقع" الذي يشمل كل عواطف البشر ومواقفهم، ويشمل الزمان المثلث الأضلاع (ماضي اللحظات، حاضرها، مستقبلها). يتحدثون عن السياسة بصفتها قرارات الحكومات والأحزاب والدول... يتحدثون عنها بصفتها نشرة أنباء الثامنة فقط!

السياسة هي شكل العائلة على مائدة الإفطار ... من الحاضر حول المائدة ومن الغائب ولماذا غاب.... من يشتاق لمن، عندما يسكب القهوة من بكرجها ويوزعها على الفناجين... هل تملك ثمن افطارك مثلا؟ أين أولادك الذين غابوا إلى الأبد عن كراسيهم المعتادة هنا ؟ لمن تحن هذا الصباح؟ أي إيقاع يلاحقك لتسارع إلى مباهج وعدتك بالحياة، أو إلى مواجهة تتمنى أن تكسبها ولو هذه المرة فقط؟ أين أولاد هذه الأم التي تنسج بنظارتها المائلة قليلا كنزة من الصوف الكحلي، للمسافر الذي لا يكتب بانتظام.... أين ثرثرتك الناعمة وأين عزلتك الرائعة واستغناؤك عن العالم الخارجي ولو لدقائق.... أين وهمك الذي فضحته الجريدة الملقاة على كرسي الخيزران الخالي على يسارك.... أي غفران صغير تتدرب على منحه اليوم؟ وأي عتاب تتمنى محوه؟ من يهدد أخطاءك الرائعة بسهره لإفساد يقظتك وسهرك؟ من يخرب لك تفاهاتك اللطيفة بمهابة منصبه ومهابة سائقه ومهابة خدمه وحراسه السعداء؟ من استورد ملعقة الشاي الصغيرة اللامعة هذه من تايوان؟ أية سفن عملاقة مخرت البحار لتحمل لك نكاشة بابور الكاز من ستوكهولم؟ كيف جمع باعة الزهور ملايينهم وبنوا العمارات الفخمة من بيعهم لأطنان الباقات التي تحملها الأمهات والشقيقات إلى المقابر التي لا تتخلى عن رطوبتها، رذاذا أو زهورا أو دموعا؟ تساؤلك عن السبب في أن الصمت، حتى الصمت على المقابر يكون مبلولا ....

السياسة هي عدد فناجين القهوة على المائدة....انها نسياناتك التي تباغتك بحضورها وذكرياتك التي تخشى التحديق فيها، لكنك تحدق فيها رغم ذلك... البعد عن السياسة أيضا سياسة.... أليس كذلك؟ السياسة لا شيء ... نعم ... السياسة كل شيء... نعم ، أقصد في نفس الوقت....

-لا.بدون سكر يا أبو حازم... القهوة فقط.... قد أجوع لاحقا.

قبل ثلاث سنوات قال لمنيف:

-البرندة جاهزة لاستقبالك يا أبو غسان.

كان يحلف بالطلاق أنه لن يسمح لمنيف أو لي بالإقامة إلا في بيته إذا حدث واستطعنا زيارة البلاد.

هاهي صورة منيف بإطارها الأسود معلقة في البرندة.... أفكر في غسان وغادة وغدير،أولاد منيف الذين مازالوا في الغربة،غربة غيابه عنهم، وغربة غيابهم عن هنا.

هل يتقبلون انتباهي لهم بعده؟

هل هناك مكان في حياتهم لعم يكتب الأشعار؟

هل يعرفونني جيدا يا ترى؟

سيقترحون هم "المكان" الذي يفضلون أن نشغله أنا ومجيد وعلاء وأمي في حياتهم.... علمتني الحياة أن علينا أن نحب الناس بالطريقة التي يحبون أن نحبهم بها.

قلت لهم منذ استطعت قول أي شيء بعد غياب أبيهم:

-اعتبروني قاموسا في بيتكم تتناولونه إذا إحتجتم ، ولن أثقل عليكم إلا بمقدار ما يثقل القاموس على مالكه، وهو على رف مكتبته.

سألت فدوى عن موعد ذهابها لعملها قالت إنها في إجازة لمدة أسبوع.... أدركت انها فعلت ذلك لأجلي وتأثرت من هذه اللمسة الأنيقة والكريمة.... لقد قررت التفرغ للإنتباه إلى وجودي في بيتها كانت تلك طريقتها الصامتة للإحتفاء بي.

حاولت أن أقنعها بالعودة إلى العمل فوعدت، ولكن "بعد كام يوم".... وسارعت بتغيير الموضوع.

-أم خليل فرحت لوصولك وستأتي للسلام الليلة أو غدا.

قلت مداعبا:

-هل تدير أم خليل جمعيتكم أحسن من إدارة" أبو عمار" للمنظمة؟

قالت مبتسمة:

-على سلامتها الخالة أم خليل.

-كيف بتجيب الجرايد يا "أبو حازم"؟ بدنا نشوف "جرايدنا"

-يعني.... مرات فيها شغلات.... الواحد لازم يشوفها.

دخل حسام ومعه كعك بالسمسم ومناقيش الزعتر...

-مريد مش راضي يفطر.... غلبني.... أقنعه.

حسام سيأخذني إلى "وزارة الداخلية" الفلسطينية من أجل تقديم طلب الهوية.... وكذلك التصريح لدخول تميم.

بعد قليل دخل أنيس ومعه لفائف فيها إفطارثالث!حمص وفول مدمس وكعك بالسمسم أيضا.

-تشرب الشاي في فنجان أو كاسة يا أبو الأنس؟

قالها أبو حازم موجها الكلام إلى أنيس وهو يحاول عبثا كتم ضحكته ولكنه ينظر إلي بخبث من يهدد بكشف سر منسي.... انفجرت ضحكتي.... تبعتها ضحكته وضحكة فدوى، مما زاد من استغراب حسام وأنيس فليس في سؤاله ما يضحك. لم يشرح أي منا لهما تلك الواقعة الطريفة المختبئة وراء الضحكة.

فقد حدث وأنا في الصف الثالث الإعدادي أن نظمت مدرسة رام الله الثانوية مسابقة ادبية وفزت بالجائزة الاولى للشعر رافقني أبو حازم إلى قاعة الحفلات في المدرسة الهاشمية حيث تم توزيع الجوائز على الفائزين والمتفوقين في شتى المجالات العلمية والأدبية والرياضية إلخ.

كان كل فائز يصعد إلى المسرح ويصافح المدير ويستلم جائزته التي كانت قلم باركر مثلا أو حقيبة جلدية صغيرة أو بضعة كتب أدبية أو ساعة يد وما إلى ذلك.

نودي على إسمي ، صعدت، صافحت المدير.... لكنه بدلا من تسليمي جائزتي أشار إلى صندوق كرتوني ضخم على أرضية المسرح واتجهت إليه ،فإذا ب"أبو حازم" ينبثق فجأة من القاعة ويصعد إلى المسرح لمساعدتي في حمل هذه الداهية غير المتوقعة.

كان المطر في الخارج ينهمر بقوة ،وأبو حازم، فخورا ومشفقا، يصر على أن يقوم هو بحمل الصندوق طوال الطريق إلى بيتنا في عمارة اللفتاوي.... وصلنا إلى البيت والماء ينقط ملابسنا وشرعنا نتكهن بما يمكن أن يحتويه الصندوق العجيب.

كان طاقما للشاي مكون من ثمان وأربعين قطعة من الصيني الفاخر بفناجينه واباريقه وأطباقه الخ....وعليه نقوش يدوية رقيقة....بعدها زارنا أبو حازم أكثر من مرة، فنحن نعيش في نفس العمارة، عمارة اللفتاوي، وأهلي يقدمون له الشاي في الكاسات الزجاجية المعتادة في كل مرة.... إلى أن تصادف وجوده عندنا مع زيارة تقوم بها سيدة من قريباتنا وتصطحب معها ابنتيها الشابتين (في سن الزواج طبعا!)

فجأة ..ظهر الطاقم الفخم...ودارت فناجين الشاي في الصالون... هنا رفض أبو حازم وقال -احنا ياعمي خلينا على قد الكاسات!

ومضت الدعابة إلى أقصاها:

-والله عال! أنتعه على كتفي والدنيا كب من عند الرب، وما يطلعش من الخزانة إلا كرمال اللي بيستاهلوه! إحنا إلنا الله!

ومن ذذلك اليوم أصبح كافيا أن يقدم الشاي في فناجين الجائزة حتى نعرف مكانة الضيف عند أمي! ومع التبعثر الجغرافي المتكرر إثر الحرب، لم تستطع الوالدة الإحتفاظ بطقم الشاي التاريخي...

استأذنا من "أبو حازم" وغادرنا أنيس وحسام وأنا إلى وزارة الداخلية الفلسطينية لنقدم طلب هوية لم الشمل التي تمنحني حق المواطنة والتي تأخر حصولي عليها ثلاثين سنة!

أكمل أنيس طريقه بسيارته إلى عمله فوزارة التخطيط والتعاون الدولي في "الرام" ، بين رام الله والقدس، وتركني بصحبة حسام دليلي إلى كل الأماكن في رام الله. دخلنا على الشخص المسؤول ،ولم أصدق عيني...

إنه "أبو ساجي" ....الدمث الرائق....الصديق الطيب منذ أيام بيروت، بشوش الوجه، كريم وخدوم وجدع.... تعانقنا كتائهين التقيا بعد يأس ، واكتشفا أنهما مازالا بخير.

-سأقتنع أنهم يحسنون عملهم ما داموا اختاروك أنت للتعامل مع الناس يا "أبو ساجي".... قلت له صادقا.

قدمت له الأوراق المطلوبة... شهادة ميلاد تميم ضرورية للحصول على تصريح له بالدخول إلى فلسطين... الشهادة ليست بحوزتي ، يجب أن أطلب من رضوى أن تبعثها.... يوم أو يومان ويكون كل شيء جاهزا.

غادرنا "المركز".... وما أدراك ما المركز! هنا كانت تقف أمي طالما الشمس واقفة في سماء النهار، لتستخرج أية ورقة من الحاكم العسكري الإسرائيلي... تستخرج تصريحا جديدا في كل مرة لترى أبناءها في الدوحة أو القاهرة أو بيروت أو باريس أو بودابست أو أخاها في اللكويت أو تلتقي بالجميع في فندق بعمان إذا تمكن الجميع من دخولها.

هنا قدمت لنا طلبات لم الشمل، وطلبات الإذن بالزيارة التي كانت ترفض في كل مرة....هنا موضع المرمرة و الشقاء اليومي لآلاف من الفلسطينيين طوال سنوات احتلال رام الله .مازالت مشاكلهم عالقة ومتشعبة وصعبة الحل ، لكنهم الآن ، يجدون إبتسامة تستقبلهم في المكان الذي شهد محاولات إذلالهم منذ ١٩٦٧. لم تكن الحياة نعيما قبل الإحتلال الإسرائيلي.

-كنا نتدبر أمورنا على طريقتنا

يقول لك الجميع.... ويضيف الواحد منهم:

-لكن الإحتلال...! .. ويسكت

الإحتلال يمنعك من تدبر أمورك على طريقتك... إنه يتدخل في الحياة كلها وفي الموت كله... يتدخل في السهر والشوق والغضب والشهوة والمشي في الطرقات.... يتدخل في الذهاب لإلى الأماكن ويتدخل في العودة منها سواء كانت سوق الخضار المجاور أو مستشفى الطوارئ أو شاطئ البحر أو غرفة النوم أو عاصمة نائية.

أهم متعة حدثني عنها كل من التقيتهم هنا هي متعتهم "الجديدة" في البقاء خارج منازلهم إلى وقت متأخر من الليل، والسهر المبالغ فيه مع الأقارب والأصدقاء.

لكن الامور هنا مؤقتة.... الشعور بالأمان مؤقت.
إسرائيل تغلق أية منطقة تريدها في أيي وقت تشاء.... تمنع الدخول والخروج لأيام أو لشهور حتى تزول الأسباب.... وهناك دائما "أسباب" تنصب الحواجز على الطرقات بين المدن.... كلمة "المحسوم" سمعتها هنا أول مرة .... المحسوم هو الحاجز بالعبرية.... الشعور الوليد بالحرية مؤقت.... النقاشات ما تزال مستمرة(وستظل إلى بعض الوقت كذلك) في موضوع العائد والمقيم.
نظام العلاقة بين السلطة الجديدة والشعب ما يزال نظاما شفويا فيكثير من الوجوه.... وإلى أن توضع كل القوانين لكل المواقف الحياتية في السياسة والإقتصاد والاجتماع وحقوق الإنسان وحقوق الفرد، سيظل جدل العائد والمقيم مستمرا.... هذا ما قاله لي أساتذة بيرزيت....

أردت أن يكون لقائي الأول هنا معهم بالذات... أن أقدم احترامي لهم ، ومن خلالهم ، إلى هذه الجامعة التي إذ عاقبها الإحتلال بكل السبل المتصورة ،عاقبته بكل السبل المتاحة.... ولم تنكسر.... ذهبت لأصغي لا لأحدث... لأتعلم وأتذكر، وأقدم تحيتي.... لقد زرت هذه الجامعة قبل أن أزور مسقط رأسي، دير غسانة.... كنت ألتقي ببعض طلابها وأساتذتها في الغربة لقاءات مصادفة ، ولم تتح لي الأيام أن أنقل مدى فرحتي بوجودهم وبمؤلفاتهم وبحوثهم ومفهومهم الإيجابي للعمل المتواصل في الظرف القاسي وتحت الضغط.
كانت ثقافة تانيا ناصر وعزيمة حنا ناصر تلفت إنتباهي وتشعرني بحب لهما وقرب منهما ولم أعبر لهما عن ذلك أبدا.... كنت ألتقيهما في فترة إغلاق الجامعة المتكرر على يد سطات الإحتلال.... أو في إجازتهما أو زياراتهما إلى عمان.
أعرف بعض متاعب الجامعة ومشاكلها المادية ورغم ذلك أسمع أنها بالقليل المتاح من اشكال العون والتبرعات تضيف صروحا وقاعات وأبنيية جديدة وتقوم بتحديث ذاتها....
على هذه التلال الجميلة الآن أبصر بعيني مدرسة بير زيت القديمة وقد أصبحت من الجامعات التي لها مكانتها العلمية المعترف بها.... كان موضوع العائد والمقيم ، وملابسه المفهومة أحيانا وغير المفهومة أحيانا أخرى ، هو الموضوع اذي استغرق وقتا أطول في جلسة التعارف مع أساتذة الجامعة.... لا بد من مراعاة حساسيات كثيرة لتجاوز الأخطاء في هذا المجال.
(في إحدى الوزارات رأيت معظم المدراء القادمي من الأيام التونسية أو البيروتية وعندما دخل الساعي بفناجين الشاي والقهوة قدمه أحدهم لي بالقول إنه "من أسود الإنتفاضة الذين دوخوا الإحتلال!").
في جولتي في الجامعة لمشاهدة حرمها وكلياتها ومبانيها الحجرية البيضاء ومدرجاتها وجدتني أقف على مدخل كلية العلوم.... على المدخل لوحة نحاسية حفرت عليها أسماء المتبرعين بتكاليف إنشاء قاعات الدراسة من رجال الاعمال الفلسطينين في الشتات وبعض رجال الأعمال العرب من دول الخليج.... هنا رأيت أسماء عديدة أعرف بعضها وأجهل أكثرها.... بين هذه الأسماء رأيت اسمه.

كم منهم سيستطيع الوصول الى هنا ويرى اسمه محفورا على مربعات النحاس المتجاورة على هذه اللوحة الكبيرة؟ وكم منهم لن يراه أبدا ... كمنيف؟

قبل ثلاث سنوات ، في بيتنا في عمان ، كان وجهها الطفولي البادي من تحت غطاء رأسها ... واجما... وعيناها مشتتة النظر.... سلمت على والدتي ، عانقتها باكيه ، ثم جلست في حلقة العزاء صامتة صمت الغريب عن كل الموجودين.
سألتها إحدى قريباتنا الجالسة في المقعد المجاور:
-ومن وين عرفتي المرحوم يا بنتي؟
-أنا ما باعرفه.... عمري ما شفته.... كنت باعرف اسمه بس.... كان يرسل مصاريف تعليمي.... صرت في السنة الرابعة.... السنة تخرجي.... قرأت نعيه في الجريدة اليوم الصبح.... عرفت العنوان من الجريدة.... وتكررت الواقعة مع طلاب آخرين بعد ذلك.

تجولت في شوارع رام الله يوميا تقريبا.... أردت استعادة تلك الإيقاعات والصور العتيقة للمكان.... أليس طريفا و غريبا أننا عندما نصل إلى مكان جديد يعيش لحظته الجديدة نروح نبحث عن عتيقا فيه؟ هل للغرباء جديد؟ أم أنهم يدورون في دنياهم بسلال ملاؤها ببقع الماضي، البقع تتساقط لكن اليد لا تسقط سلتها.
تساءلت إن كان المارة في الشوارع يرونني غريبا ، هل تلاحظ أعينهم المستعجلة سلة في يدي؟
كل صديق سمع بوصولي وجاء للسلام اصطحبني إلى هذا الجزء أو ذاك من المدينة.. كنت أتحدث وكنت أسمع وكنت أسأل.... اختلطت في ذهني الوقائع والمشاوير والعبارات وقائليها وترتيب حدوثها.... كان الإيقاع محموما كأنني أريد أن أستعيد رام الله باكملها دفعة واحدة ، إلى حواسي الخمس....
الآن في لحظة الكتابة عن تلك الأيام أتذكر ما أتذكر من كل ذلك بلا ترتيب... الترتيب ليس مهما.... أتهيأ ليوم دير غسانة... أتهيأ للعودة إلى بيتنا الأول فيها....
أتهيأ لرؤية "دار رعد"

**انتهى الجزء الثاني**

## الجزء الثالث

**"دير غسانة"**

لكل بيت في دير غسانة اسم.... لم يقل لنا أحد من أين جاء اسم دارنا.يبدو أن "رعد" كان أحد أجدادنا الأوائل ،لأن البيوت الأخرى في القرية منسوبةلأشخاص.... فأنت تجد دار صالح ودار الأطرش ودار عبد العزيز ودار السيد الخ.... ولا أظن أن تسمية دارنا ب "دار رعد" كانت استثناء.... كما لم يقولوا لنا بحسم من أين اكتسبت عائلتنا التي يعدونها من حيث حجمها أكبر عائلة ريفية في فلسطين إسم "البرغوثي".

المعتزون بالعائلة كانوا يقولون لنا إنه مأخوذ من البر والغوث.... والمعتزون بالجاه والملكية قالوا أن جدنا الأول كان اسمه غوث، والأراضي الشاسعة التي امتلكها هو وأبناؤه أصبحت تسمى : بر غوث.

وآل البرغوثي يقيمون في سبع قرى جبلية متجاورة تسمى "قرى بني زيد" ومركزها جميعا "دير غسانة".

التفسير المعقول يبدو لي الآن أبسط من كل ذلك وأقل رومانسية طبعا وهو بلا شك لن يرضي "وجهاء" العائلة كما أنه لن يقنعهم :إنه نسبة إلى البرغوث.. شخصيا! وتسمية العائلات بأسماء الحيوانات والطيور والحشرات معروف من قديم الأزمان في كل الحضارات :الفأر والقط والجمل والديب والفيل والأسد والنمر الخ.

في أوائل العام؟؟؟؟ كان الشاعر الراحل أبو سلمى في ضيافتنا على العشاء في منزلنا في القاهرة.... كانت رضوى حاملا... وأخذ يحدثنا عن تجربة استقبال المولود الأول في الأسرة وكم هي مدهشة وفريدة.... ثم سألني عن الاسم الذي سنختاره للمولود.... كنت أريد أن أذكر له بالفعل الأسماء التي خطرت ببالنا رضوى وأنا، لكني قلت له بتحبب صادق:

-شوف يا خال ، اقترح لنا أي اسم رقيق وأنيق ولطيف على ذوقك أنت... اسم مؤنث واسم مذكر.... وأعدك بأن يكون الاسم هو ما تختاره...

أطرق يفكر بإخلاص وعناية وأطال التفكير.... ثم استدار نحوي وفي عينيه شقاوة المقبل على إدهاش محدثه وقال:

-ومن أين سآتيك باسم رقيق وأنيق ولطيف يا سيد مريد إذا كنت ستضع بعده كلمة "البرغوثي"!!!

لكن حظوظي مع هذا الاسم اختلفت من بلد إلى بلد... ولم تكن دائما سلبية... عندما عملت في اتحاد الشباب العالمي في بودابست، وطبيعة العمل فيه تقتضي كثرة السفر والتنقل بين القارات، كنت أشعر بالسرور عندما تداعبني الصديقات والأصدقاء من الناطقين بالإسبانية والإيطالية بتسميتي "البرجوتيتو".

كنت أقول لنفسي أين أنت يا خال أبو سلمى حتى ترى الاسم الذي لم يعجبك! بل إنني حدثت بعضهن بقصة الإسم معه... ولكن بعد اطمئناني لارتياحهن وعدم نفورهن منه، كما يفعل أبناء الضاد الذين يعرفون قواعد الاشتقاق في لغتهم!

في هافانا حيث عقدنا مؤتمرا للاتحاد ذات صيف اصطحبتني "ليللا"وهي صديقة هنغارية تتقن خمس لغات من بينها الإسبانية وعاشت طفولتها في هافانا إلى مقهى البودبغيتو وهو مقهى شعبي صغير في وسط المدينة يقدم مشروبا اسمه الموهيتو.

-وما هو الموهيتو يا ليلا؟

-انه شراب همنغواي المفضل الذي كان يأتي لتناوله هنا.

-وما هو ذلك الكرسي المعلق من السقف فوق رؤوسنا؟

فوجئت بها تقف وتصلح ياقة قميصها الأحمر وتقول كأنها تؤدي دورا على المسرح:

-إنه الكرسي الذي اعتاد همنغواي الجلوس عليه عندما يأتي إلى البوديغيتو ليشرب الموهيتو ... ثم يجيء البرجوتيتو الذي تدعوه سوكا ليلا إلى أمسية لطيفة ، فيصدعها بأسئلته عن كل ذلك!

-برافو!

قلت وأنا أصفق لها كما تتطلب اللعبة ثم أضفت:

-أليس اسم "البرغوثي"اسما جميلا في نهاية المطاف؟

قالت:

-لا تفرح كثيرا سألت ليم التميمي عن معناه فقال لي إنه ليس أفضل بكثير من موستيكو مثلا... (أي بعوضة).

كان آل البرغوثي لا يسمحون بزواج بناتهم من غير أبناء العائلة، مما أدى إلى تزايد عددهم عبر مرور الزمن.... فقط في عام ؟؟؟؟ سمح عميد العائلة عمر الصالح البرغوثي لأحد أفراد العائلة بالموافقة على زواج ابنته من عريس تقدم لها ولم يكن برغوثيا... أما شبان العائلة فكان يفضل ان يتزوجوا من بناتها أساسا، لكن زواجهم من بنات العائلات الأخرى كان مسموحا به طوال الوقت.

وقد تجد برغوثيا معتزا أشد الإعتزاز بنسبه هذا وينوه بفصاحة لسان العائلة وسرعة البديهة وخفة الظل عند غالبية افرادها... وقد تجد سواه ، مثل "أبو رشاد"، الذي يستمتع متعة شديدة في التندر على تصرف البراغثة كملاك أراض وعدم اهتمامهم بالوظائف أو الأعمال التي يباشرونها بأنفسهم.... يقول لك إنهم خلقوا لطق الحنك... والبعض منهم كان يمتلك قرى بأكملها ، وأرضا يرمح فيها الخيال، لكنه لم يفكر مثلا في شراء سيارة! وأن الثروة لم تغير اسلوب حياته باتجاه يتمشى مع العصر... وتجد برغوثيا ثالثا يتندر على الطرفين وهكذا.

توجهنا إلى "دار رعد" في الموعد المناسب... و"دار رعد" ، بيت كبير ذو فناء مربع واسع ، تتكون أضلاعه الثلاثة من غرف متجاورة... وضلعه الرابع جزء من حائط الجامع المقام في ساحة القرية ... إذا كنت واقفا في مكان أعلى من دار رعد رأيت عددا من القباب الأسمنتية بعدد الغرف المتجاورة المحيطة بالفناء المربع.

سيدة الدار وسيدة الفناء كانت شجرة التين الخضاري الهائلة الجذع المترامية الأفرع.... تلك التينة أطعمت أجدادنا وآباءنا ولا يوجد شخص واحد في القرية لم يتلذذ من ثمارها التي لا مثيل لمذاقها العجيب.

بوابة "دار رعد" تطل على البيادر الشاسعة وحقول الزيتون التي تنحدر بالتدريج وتزداد مسالكها وعورة وتشعبا حتى تكون الوادي الخصيب الذي ترويه "عين الدير" .... وعين الدير هي نبع الماء ونبع الحكايات ونبع الرزق للقرية كلها.

بصحبة ابو حازم وأنيس وحسام وابو يعقوب ووسيم ، وصلت إلى دير غسانة ظهرا وقفت بنا السيارات أمام البوابة... تجاوزت العتبة... عانقت امرأة عمي ام طلال... وعبر كتفها الأيمن رأيت التينة واضحة في ذاكرتي ، وغائبة عن مكانها.

-من قطع التينة يا امرأة عمي؟ ... بدلا من التينة رأيت مصطبة من الاسمنت!

التينة مقطوعة من نقطة التقاء جذعها المهيب بطح الأرض في موضعها المحفور في ذاكرتي رأيت الفراغ يشغل الفراغ... سلمت على جاراتي اللواتي لم أستطع التعرف على أي منهن... قادتني إلى اليمين حيث الغرفة التي كانت لنا في دار رعد... اكتمل العقاب.

هل دار رعد لا تريد قصتي عن دار رعد ؟

هل نحن في الوداع واللقاء نحن؟

هل أنت أنت؟ هل أنا أنا؟

هل يرجع الغريب حيث كان؟

وهل يعود نفسه إلى المكان؟

يا دارنا

ومن يلم عن جبين الآخر التعب؟

هنا ولدتني أمي ....

هنا في هذه الغرفة ولدت ، قبل مولد دولة إسرائيل بأربع سنوات.... الغرفة بيضاء واسعة... سقفها العالي مرفوع على أعمدة تصعد من الأركان الأربعة ، لتلتقي أطرافها العليا في منتصف القبة الدائرية التي تشكل عقدة السقف الشبيه بسقوف المساجد والكنائس العتيقة... هنا عشنا أوائل أعمارنا... ستي ام عطا وأبي وأمي ومنيف ومريد ومجيد وعلاء.

من فتح ذلك الباب الإضافي الواطئ في جدارها؟ إنه باب يفضي إلى غرفة عمي إبراهيم بعد ضم الغرفتين ليصبحا معا دار أرملته ام طلال... لم يعد من العائلات الخمس من يقيم هنا سواها.

زرعت الفناء كله بالأشجار : بوملي، تفاح عسيلي، مندلينا، مشمش، برقوق وبعض الخضراوات خس بقدونس بصل ثوم نعنع.... سيعود أهل البلد يقولوا عنا "دار الثور" يا امرأة عمي.... (وهذا هو لقبنا ، أهل دار رعد ، بالفعل ولا يغرف أحد القصة التي وراءه... وعندما كنا نسمع أحدهم يقول أنتم "دار الثور" كان أهلنا يقولون إنهم مسحوا النقطتين وصرنا دار النور...لكن اللقب ما زال يلاحقنا إلى الآن!)

- كبرت وهيشت.... هاجر اللي هاجر ومات اللي مات... لمين اطعم تينها يا ولدي؟ لا من يقطف ولا من ياكل.... التين يظل عليها حتى ينشف ويوسخ الحوش كله... غلبتني.... قطعتها و ارتحت....

امرأة عمي ام طلال هي كل كان دار رعد الآن.... وحدها.
وفي ساعات العصر يلتقي عندها في هذا الحوش المربع تسع وأربعون أرملة هم من تبقى من بنات جيلها في دير غسانة.
الأزواج والأبناء و البنات توزعوا بين القبور والمعتقلات والمهن والأحزاب وفصائل المقاومة وسجلات الشهداء و الجامعات و مواطن الأرزاق في البلدان القريبة والبعيدة.... من كاليغاري إلى عمان، ومن سان باولو إلى جدة، ومن القاهرة إلى سان فرانسيسكو، ومن ألاسكا إلى سيبيريا.
البعض لا يكاد يفارق سجادة الصلاة و البعض لا يكاد يفارق زجاجة الويسكي ، البعض يتعلم أو يعلم في جامعات العالم ، و البعض ذهب مع الفدائيين ولم يعد أبدا.
منهم من أخذته المهن ، من طب وهندسة وطيران و تجارة ومقاولات ، ومنهم من يعمل في دول الخليج، والبعض في الأمم المتحدة، والبعض يتعيش على الصدقات والإحسان أو ربما التسول أو النصب و الاحتيال.
الزيت والزيتون هو مصدر دخل الجميع هنا.... القادر منهم ما زال يعمل في الحقول.... إنهم يعملون رجالا ونساء كما كانوا طوال سنوات الماضي... لكن عمل الأبناء أو الأحفاد أو الأزواج في دول الخليج هو المصدر الأهم للدخل.
الغائبون في المغتربات الكثيرة يحولون النقود إلى القرية مع المسافرين أصحاب الهويات أو تصاريح لم الشمل الذين يستطعون الدخول و الخروج أو عن طريق البنوك في رام الله أو عمان.
إثر طرد آلاف العاملين الفلسطينيين من الكويت بعد حرب الخليج ، تأثر الوضع الإقتصادي للعديد من الأسر في القرية... ريان ابن حمد الذي كان يملك مكتبة صغيرة في الكويت أسماها "مكتبة الربيع" عاد إلى دير غسانة ليعمل في تربية الأغنام.
البعض الآخر عاد ليبني بيتا في أرض يملكها واستقر هنا معتمدا على مدخرات العمل في الغربة، التي تنقص ولا تزيد.
كان أهالي القرية العاملون في الكويت في القطاعين الحكومي والخاص قد أنشأوا "صندوق دير غسانة" وقدموا من خلاله مساعدات مالية للأكثر احتياجا،لكن الصندوق توقف الآن بعد رحيل الجميع .
فاطمة بنت أبو سيف، وهي سيدة ذات عزم، قررت وهي في السبعين من عمرها إعادة تشغيل بابور الزيت المتوقف منذ سنوات طويلة ليعود الأهالي إلى عصر زيتونهم فيه.
أبو حازم قدم غرفته في الجزء العلوي من "دار صالح" إلى حسام لتحويلها إلى مركز لتعليم الكمبيوتر... إشترى حسام ثلاثة من أجهزة الكمبيوتر المستعملة وأحضر خبيرا لتعليم الشباب و الصبايا في ديرغسانة و قال لي إنه سيخرج الدفعة الأولى بعد أسبوعين و يستعد لاستقبال الطلاب الجدد في الدورة الثانية.
الأهالي ممنوعون من التعمير و العمل في محيط القرية و المناطق التي تعتبرها إسرائيل جزء من ترتيباتها الأمنية.
بعد ال؟؟ كان اكتشافي أن علي أن أشتري زيت الزيتون أمرا مؤلما حقا.

كنا نفتح أعيننا على الحياة، والزيت والزيتون موجودان في بيوتنا... لا أحد من أهل القرية يشتري زيتا أو زيتونا للأكل اليومي.... القرية تبيعهما لرام الله أو عمان أو الخليج الخ.... لكن أهلها يجلبونهما من الحقول والمعصرة إلى الجرار و البراميل المنزلية التي لا تنفد محتوياتها إلا بحلول الموسم التالي.

زيت الزيتون بالنسبة للفلسطيني هو هدية المسافر.... اطمئنان العروس... مكافأة الخريف.... ثروة العائلة عبر القرون.... هو الفلاحات في مساء السنة... وغرور الجرار.

في القاهرة كنت لا أدخل زيت الزيتون إلى بيتي لأنني كنت أرفض أن أشتريه بالكيلو.... نحن نزن الزيت بالجرة!

كان منظره في زجاجات صغيرة خضراء كزجاجات الكوكا كولا يثير السخرية.

عندما طالت الغربة و استحالت العودة إلى دير غسانة، مارست الذل الأول البسيط والخطير عندما مددت يدي إلى جيبي واشتريت من البقال أول كيلو من زيت الزيتون...

كأنني واجهت نفسي ساعتئذ بحقيقة أن دير غسانة أصبحت بعيدة.

أما التين فقد اختفى من حيلتي طوال سنوات الشتات إلى أن رأيته عند بائعي الفواكه في أثينا، كنت أغادر فندقي في الصباح الباكر لأشتريه من محل قريب وجعلته إفطاري اليومي. لم أتناول إفطارا واحدا في الفندق... ذات صيف في فينا رأيتهم يبيعون التين بالحبة...اشتريت الحبة الواحدة بما يقارب الدولار.... ساعتها قلت لرضوى ولتميم إنني ارتكبت جريمة بحق تينة دار رعد الخضارية، ولو عرفت ستي أم عطا انني دفعت هذا المبلغ في حبة تين واحدة لأرسلتني الى بيت لحم!

قالت رضوى:

-اشمعنى بيت لحم يعني؟

-لأن فيها مستشفى المجانين!

كان الواجب الأول في دير غسانة هو تقديم العزاء لأم عدلي.... عدلي طالب في مدرسة دير غسانة... في ذلك الوقت كانت الإنتفاضة في أوجها... جنود إسرائيل يهاجمون المدرسة لفض المظاهرة.

عدلي يهجم فاتحا ذراعيه على امتدادهما ليغلق بوابة المدرسة الخارجية في وجه الجنود... طلقة في الصدر.. طلقة في الرأس... الدم على حديد البوابة وعلى العشب وعلى قمصان زملائه الذين حملوه إلى أمه.... لتبقى منذ تلك اللحظة وإلى الأبد وحيدة في هذا الكون.

كانت منذ سنوات قد فقدت الأم والأب والزوج.... وعاشت لعدلي ابنها الوحيد.... وعدلي استشهد على البوابة....

في أكبر دار في دير غسانة، الدار اللاصقة لدار رعد، الدار المبنية منذ أربعة قرون، في "دار صالح" كلها لا يقيم مع أم عدلي أي مخلوق آخر... كلهم ذهبوا...وحدها...

بوجهها الذي يحمل آثار جرح أو حرق قديم، بثوبها الفلاحي ويديها المتينتين وعينيها الخضراوين وجلستها المؤبدة في "قاع الدار العظيمة الإتساع" ... تنظر حولك فترى العشب هائشا على درجها الذائب إذ يصعد ناقصا إلى العلية، وعلى أقواها، وعلى جدرانها، حتى الجدران الداخلية ذات اللون الدهري الفاحم.... قدمت لي الشاي والترحيب والعناق الأمومي، ووميضا مغلوبا في نظرات العينين.... تحدثت هي عن منيف وتحدثت أنا عن عدلي، ولم نطل الحديث... أطلنا الصمت.... لأن الصمت كان في مقدورنا نحن الإثنين.

نظرت إلى علية والدها العم أبو حسين.... لم يكن في القرية كلها من هو أكثر نحولا منه.... كان وهو الأمي ، أبرع وأسرع من يجري العمليات الحسابية لنفسه وللآخرين.... كان محاسب القرية رغم أنه لم يكن محاسبا، وكان لحام القرية رغم أنه لم يكن لحاما.... في النهاية لابد لأحد في القرية أن يكون موهوبا في الحساب، ولابد لأحد من أن يبيع اللحم للأهالي.

كان يسأل كل الرجال في المضافة عن حاجتهم المتوقعة من خروف ينوي ذبحه في اليوم التالي.... هذا يريد الزند وآخر يريد بيت الكلاوي أو الفخذ وآخر يريد كيلو غراما أو كيلو غرامين .... يطمئن إلى بيع كل جزء من ذبيحته ويحفظ الأوزان التي "حجزها" أصحابها عن ظهر قلب... عندئذ فقط يذبح الذبيحة... ويخرج بها إلى الساحة ليوزعها ويقبض ثمنها كاملا وإذا كان الزبون من المقربين فمن الممكن تسجيل اسمه بشكل مؤقت في قائمة المدينين.

ولدت له الخالة ام حسين أربعة عشر ولدا وبنتا.... بقي منهم أربع بنات.... إحداهن هي حكمية، أم عدلي.... أما هو فيبدو أنه توفي أثناء إقامتي الطويلة في بودابست ولم أسمع بالنبأ إلا بعد سنوات ...

غادرنا "دار صالح" وذهبنا إلى "دار داوود" للتعزية في لؤي.... لؤي تلقى رصاصهم في مدخل القرية.... كنا قرأنا له الفاتحة عندما مررنا بجوار الشاهدة الإسمنتية المقامة في موضع دمه، رشق حجرا، رشقوه بالرصاص.... تركوه لعويل القرية كلها وذهبوا.... لم يبلغ لؤي ولا بلغ عدلي الثامنة عشرة على الإطلاق.

حان الآن موعد اللقاء في ساحة دير غسانة .... يتوقعون مني قراءات شعرية لأهل البلد الذين سيفتتحون اليوم أول مركز ثقافي في تاريخ دير غسانة، بمبادرة من أنيس وحسام العائدين حديثا إلى فلسطين من أمريكا ومن عمان.... ودعوا له أهالي قرى بني زيد المجاورة.

الطريق إلى دير غسانة نسيت ملامحه تماما.... لم أعد أتذكر أسماء القرى على جانبي الكيلومترات السبعة و العشرين التي تفصلها عن رام الله... الخجل وحده علمني الكذب.... كلما سألني حسام عن بيت أو علامة أو طريق أو واقعة سارعت بالقول إنني "أعرف".... أنا في الحقيقة لم أكن أعرف.... لم أعد أعرف.

كيف غنيت لبلادي وأنا لا أعرفها ؟ هل أنا أستحق الشكر أم اللوم على أغاني ؟ هل كنت أكذب قليلا؟ كثيرا ؟ على نفسي ؟ على الآخرين ؟

أي حب و نحن لا نعرف المحبوب ؟ ثم لماذا لم نستطع الحفاظ على الأغنية ؟ ألأن تراب الواقع أقوى من سراب النشيد ؟ أم لأن الأسطورة هبطت من قممها إلى هذا الزقاق الواقعي ؟

نجحت إسرائيل في نزع القداسة عن قضية فلسطين، لتتحول كما هي الآن لمجرد "إجراءات" و"جداول زمنية" لا يحترمها عادة إلا الطرف الأضعف في الصراع... و لكن هل بقي للغريب عن مكانه إلا هذا النوع من الحب الغيابي ؟ هل بقي له إلا التشبث بالأغنية مهما بدا تشبثه مضحكا أو مكلفا؟

وماذا تفعل أجيال كاملة ولدت في الغربة أصلا، ولا تعرف حتى القليل الذي عرفه جيلي من فلسطين؟

خلص.. .انتهى الأمر.... الاحتلال الطويل الذي خلق أجيالا إسرائيلية ولدت في إسرائيل ولا تعرف لها "وطنا" سواها ... خلق في الوقت نفسه أجيالا من "الفلسطينين الغرباء عن فلسطين" ولدت في المنفى ولا تعرف من وطنها غير إلا قصته وأخباره... أجيالا بوسعها أن تعرف كل زقاق من أزقة المنافي البعيدة وتجهل بلادها.... أجيالا لم تزرع ولم تصنع، ولم ترتكب أخطاءها الآدمية البسيطة ، في بلادها.... أجيالا لم تر جداتها يجلسن القرفصاء أمام الطوابين ليقدمن لنا رغيفا نغمسه بزيت الزيتون، ولم تر واعظ القرية بحطته وعقاله وورعه الأزهري، يقلد امرئ القيس في الاختباء في كهف جانبي، ليتلصص على صبايا القرية ونسائها وهن يخلعن ملابسهن، ويغطسن عاريات تماما في بركة "عين الدير".

نعم.... الواعظ يسرق الملابس ويخفيها في لفائف شجر العليق، ليطيل النظر إلى مفاتنهن.... هو لن يرى هذه المفاتن طوال عمره في ملاهي أوربا وحفلات مجون أحفاده وأولاده في جامعة لوممبا وعواصم العالم الغربي والسكس شوبز في البيجال وسان دني، أو حتى في مسابح راس بيروت وسيدي بوسعيد!

نعم.... الإحتلال خلق أجيالا بلا مكان تتذكر ألوانه ورائحته وأصواته.... بلا مكان أول خاص بها، تتذكره وهي في إقامتها الملفقة.... ولا تتذكر فيه سريرا كانت الطفولة تبلله هناك... ولم ينسوا على ملاءته دمية من القطن الملون الطري.... ولم يتقاذفوا إذ يخرج الأهل للسهر مخداته البيضاء، يضربون بها بعضهم ضاحكين من القلب.

خلص!... الإحتلال الطويل خلق منا أجيالا عليها أن تحب الحبيب المجهول.... النائي.... الغير محاط بالحراسة، وبالأسوار وبالرؤوس النووية، وبالرعب الأملس.

الاحتلال الطويل استطاع أن يحولنا من أبناء "فلسطين" إلى أبناء "فكرة فلسطين".... انني كشاعر لم أكن مقتنعا أمام نفسي إلا عندما اكتشفت بهتان المجرد والمطلق، واكتشفت دقة المجسد وصدق الحواس الخمس، ونعمة حاسة العين تحديدا.... وعندما اكتشفت عدالة وعبقرية لغة الكاميرا، التي تقدم مشهدها بهمس مذهل مهما كان المشهد صاخبا في الواقع أو في التاريخ.... بذلت جهدا كان لابد من بذله من أجل التخلص من قصيدة المجاراة من سهولة النشيد.... ومن رداءة البدايات.

كنا نتزاحم في باص عبد الفتاح أو باص أبو ندى مع طلوع الفجر مرافقين لأهالينا الذاهبين إلى رام الله لقضاء شأن من شؤون حياتهم... و نعود في الباص ذاته قبل الغروب إلى دير غسانة.... كنت مبهورا بذلك المحصل يتسلق سلما مثبتا في الخلف ويرتب الحقائب على ظهر الباص بهمة ملفتة .. ثم يقف طوال الرحلة إلى رام الله

على سلم الباب المحاذي للسائق.كنا نسميه"الكونترول" والبعض يتفلسف ويسميه "الكمساري" تقليدا للهجة المصرية و إعجابا بها....

ذات مرة لا أدري ما الذي جعلني أقف وقفته هذه لدقائق معدودة.... كان الهواء القادم من التلال و البيادر المحصودة.... يدخل مباشرة إلى الرئتين و يجعل قميصي الصيفي الأبيض يصفق و يموج.... منذ تلك اللحظة أصبح حلم حياتي أن أكون محصلا!

لم يتكرر أبدا نعيم وقفتي تلك على سلم الباص لكني ظللت لفترة من الوقت أحسد "المحصل" على مزايا منصبه الرفيع.... كان جلوسي أو وقوفي في زحام الباص لا يتيح أن أملأ ناظري بمشهد حقول الزيتون الراكضة بعكس اتجاه سيرنا، لا تنقطع إلا لتتصل ثانية، كاشفة على القرى الصغيرة المتناثرة على رؤوس التلال المتفاوتة الإرتفاع. ولم أستطع حفظ الطريق بين رام الله و دير غسانة بكل تفاصيله.... كل ما كنت أتذكره ان المسافر لا بد أن يمر على بير زيد و على "حرش النبي صالح".

مدرسة بير زيت أصبحت جامعة مهمة.... أما الحرش الصغير الذي اكتسب اسمه من كثافة الشجر فيه، فقد قال لي حسام إنه أصبح الآن مستوطنة اسرائيلية كبيرة يسمونها "حلميش" .

استولت إسرائيل على الحرش كله وعلى مساحات كبيرة من الأراضي المحيطة به وبنت المساكن والمرافق وأحضرت المستوطنين وانتهى الأمر.... الطريق المتفرعة إلى الحرش ، ككل الطرق الجانبية المؤدية للمستوطنات مغلقة أمام الفلسطينيين ومخصصة للإسرائيليين وحدهم.

اجتزنا الحرش ودخلنا قرية "بيت ريما" آخر ما يراه المسافر قبل الوصول إلى دير غسانة .... أوقف حسام السيارة وقال لي :

-إنزل شوف دير غسانة من هون .... بتبين كلها على راس الجبل.... شوف!.... كأنها رسم على بوست كارد.

لا تعرف القرى ببيوتها.بل بما حولها... الحقول، عيون الماء، الكهوف الصخرية، الشعاب والجبال والقصص المتوارثة التي تتغير وتتبدل من جيل إلى جيل لكنها ،عجبا ثابتة كالكتاب.

دير غسانة،تمتلك ذلك كله.... لكنها عكس ذلك كله لا تعرف إلا ببيوتها.... حجارة لا تشبه حجارة الأهرامات، لكنها تذكر بها.... ولا تشبه حجارة سور القدس، لكنها مقدودة من المقالع ذاتها... حجارة سميكة جدا.... غامقة اللون ومعشوشبة.... بيوت فيها فكرة القلاع، لكنها ليست قلاعا.... بيوت توحي بأجواء رومانسية، وهي أبعد ما تكون عن الرومانسية.... بيوت واقعية يسكنها الغني والفقير...الأبله والذكي... والأمي والمتعلم... بيوت عمرها مئات السنوات.

مداخلها أقواس شاسعة... سقوفها قباب.... (كان محمد الأبرش يربط جمله داخل قوس البوابة في دار صالح فيبدو الجمل هزيلا وما هو بهزيل.)

بيوت على الجبل... بيوت على البال... بيوت دخلتها جميعا في سنوات الطفولة.... بيوت لم أعد أذكر مواضعها الآن.... أذكر هذه القباب الاسمنتية، والجدران السميكة، التي تنمو في شقوقها الأعشاب.... أذكر تلاصقها وأذكر بكل دقة شكل الأقواس التي ترسمها سطوحها في زرقة الصيف العالية.

- مريد! تصدق أني حرقتها بالنار!... لكنها طلعت وكبرت مرة ثانية... هل تصدق؟

قال حسام وهو يشير إلى نخلة طالعة من جدار غرفته في الطابق الثاني "دارصالح".... نخلة تدلق سعفها الصغير إلى الفضاء المطل على البيادر والحقول.

-نخلة يا رجل.... هل تصدق!

نباتات عجيبة تنبت في الحجر وتعيش مئات السنين.... بيوت مهدمة .... لكن تلاصقها الحقيقي والبادي من هذه المسافة حيث وقفت بنا السيارة ، يعطي إنطباعا بالتماسك والمتانة...

اقتربنا أكثر....

مررنا عن المدرسة.... أول ما يصادفه الداخل إلى دير غسانة.... المدرسة مبنية في العشرينات من القرن العشرين.... درس فيها أبناء قرى بني زيد كلها....كانوا يصلون إليها مشيا على الأقدام لعشرات الكيلومترات، ويأتون إليها أيضا على الحمير .... يجتازون الوديان وسيول الشتاء، طلابا وأساتذة لا فرق.

كان مستحيلا أن يصدقني أحد في أوربا كلها لو قلت إن الأساتذة وأولياء الأمور والسعادة والمدير ومئات الطلاب في مدرستي، أنا المفرد الغريب المائل للصمت والعزلة، كانوا كلهم من نفس العائلة ويحملون اسم البرغوثي!

هنا درسني مادة الدين الأستاذ عبد المعطي الصالح البرغوثي الذي لم نعلم ونحن في الصفوف الإبتدائية أنه كان شيوعيا عندما كان لينين على قيد الحياة، وأنه سجن في أواخر العشرينات أو أوائل الثلاثينات بتهمة الشيوعية! والأستاذ عبد المعطي هذا هو قريب لأبي ووالد كل من فدوى زوجة "أبو حازم" وشقيقها حسام.

هذه إذا "دير غسانة" المكتوبة في شهادة مجيئ إلى العالم وفي خانة "مكان الولادة" في كل جوازات السفر التي حملتها طوال عمر المنافي والمنابذ العديدة، وبجوارها دائما تاريخ الولادة ؟؟؟؟/؟/؟

دير غسانة المسجلة في إدارة الوافدين، في ملفات جامعة القاهرة، في إدارة سجن الأجانب وقسم ترحيلات الخليفة.... المكتوبة باللغات الأجنبية على تأشيرات الدخول إلى العواصم البعيدة.... هذه هي التي كنت أنطق اسمها كلما سألني أحدهم "من وين الأخ؟"

هذه هي التي كان القليل من السائلين يقتنع بها كإجابة على ذلك السؤال والكثير منهم لابد أن أصل به إلى سماع كلمة "رام الله" حتى يهدأ باله بتحديد مكان معلوم لديه بالضرورة.... ها هي الآن توشك على مغادرة مكانها في الأوراق والوثائق ، وتتجسد.... تتجسد بقوامها القوطي الغامق اللون... بشوارعها الترابية.... بسناسلها وأسرابها الضيقة ومقبرتها المحاطة بالصبار الذي لا تكف ألواحه الشائكة عن التناسل، حتى وهي تجاور الموت والموتى.... وجامعها الذي لا مئذنة له... بمضافتها في صدر الساحة... بأقواسها وقبابها ورائحة البهائم التي تحمل حراثيها إلى الحقول وعيون الماء ، بستي أم عطا حاملة جرتها على منتصف رأسها من "عين

الدير" إلى عطشنا وطبيخنا وغسيلنا والأباريق التي علمونا كيف نصب منها الماء على أيادي ضيوفنا بعد انتهائهم من تناول المسخن البلدي المشوي في الطابون.
لا .... "دير غسانة" لم تعد فكرة... ولا خانة في الملفات.... ها هي تخرج من التجريد ... ها هي تنظر إلي وأنا أعبرها، وتوشك أن تعرفني بعد قليل، عندما يهدأ محرك سيارة أنيس.
ها هي تكاد تفتح القوس الواسع الذي ستضع فيه ثلاثين عاما من العمر، وتغلق عليه قوسا آخر بحيث تضع كل غربتي بين قوسين.... ولكن، من كل الأولاد الذين كانوا يتنزهون أو يلعبون في مداخلها وطرقاتها، لم يعرفني أحد.

لم يكن من حقي أن أشعر بتلك الرعشة الخفيفة... لكني شعرت بها... أردت فعلا أن يعرفني أحد.... حتى ذلك الشيخ الذي يسير ببطء وتأمل لم يعرفني ولم أعرفه....
لم أسأل من يكون.... لم أسأل... سخيف أن تطرح في مسقط رأسك أسئلة السياح :من هذا وما هذا الخ... أليس كذلك؟

كلما تقدمنا من ساحة القرية اتضح أثر الهجران.... أثر الخسارة والنأي... التقدم البطيء يجيء إلى الأمكنة بمواقيته وبقانونه، في غياب أهلها دخلت إلى دير غسانة الكهرباء، هوائيات التلفزيونات مرفوعة على بعض الأسطح ، الاسفلت يضيء بسواده الطازج شارعا أو شارعين في القرية.
نقترب أكثر... أكثر.... البيوت المهجورة تروي روايتها بخرسها البليغ.... كان يجب ان أتخيل هذا التهدم والتآكل في الأقواس والبوابات والمداميك والسقوف والعتبات والأدراج.... بل انني قدرت أن أرى هذا الخراب الذي أراه الآن في دير غسانة منذ أن رأيت التراجع المفجع في أحوال رام الله.اذا كان الاحتلال قد أعاق المدينة في المدينة فمن الطبيعي أن يعيق القرية هكذا بحيث يكتمل يأسها التاريخي من اكتساب عناصر مدنية تغتني بها وتنمو.
لاحظت مئذنة عالية في نهاية عمران القرية فسألت إن كان أهل البلد قد أقاموا مئذنة لجامعهم أخيرا فقال لي حسام بل إنهم بنوا جامعا جديدا غيره.... شعارات حماس المكتوبة بالدهان الأحمر ما تزال واضحة على جدار دار صال وعلى حائط الجامع وعلى سور دار رعد...
في الساحة رأيت جزءا صغيرا جدا ، مقتطعا من مساحة المدرسة القديمة المهدمة منذ سنوات طويلة وقد تم ترميمه بشكل متقن وأنيق... كنت سمعت أن جمعية يسارية إيطالية تبرعت ببعض المال لإقامة حضانة لأهالي القرية في هذا الموقع، وأنفقت على المشروع فعلا ... بعض المشاركين في ملكية الموقع توجسوا وخافوا من عواقب الأمر بل انهم ارتابوا في "أهدافه"! حاولوا عرقلته ، اتهموا المتحمسين له بتهم كثيرة.
الملكية في القرية موزعة على عشرات الورثة ، الورثة مبعثرون في أرجاء الدنيا وبعضهم لايعرف أن له ميراثا في دير غسانة أصلا... من المستحيل تقريبا الحصول على موقف موحد من جميع الورثة حول أي قطعة

أرض أو بيت أو حقل زيتون... المهم ان هدأوا بعد أن شاهد بعضهم نتيجة الترميم الفعلي أو بعد أن رأى المقيمون منهم خارج فلسطين صورا جميلة للحضانة الجديدة...

هذه إذا ساحة القرية... هنا مضافة دير غسانة وملتقى رجالها الليلي في السمر والعرس والعزاء واستقبال الضيف القادم من القرى المجاورة أو من المهاجر العديدة... انبعثت على الفور رائحة البن الغامق والهال من زاويتها اليمنى التي كان يجلس فيها يوسف الجبين يدق القهوة في الجرن الخشبي بإيقاعات راقصة.

الساحة... المضافة... ها هي أمامي الآن... بين يدي حواسي الخمس .. .حجرا لا خيالا... تبصرها عيناي لأول مرة منذ ثلاثين سنة...نهضوا أمام عيني... نهضوا بقاماتهم وقنابيزهم وحطاتهم البيضاء ووجوههم على الفور... نهضوا كأنهم لم يموتوا.ترجلوا من قصيدة كتبتهم في الغربة، وانبعثوا كاملين... أبي... عمي إبراهيم... خالي أبو فخري... أبو عودة... أبو طالب... أبو جودة... أبو بشير... أبو زهير... أبو عزت... أبو مطيع... أبو المعتدل... أبو راسم... أبو سيف... أبو عادل... أبو حسين.

انبعثوا على حصيرتهم الملونة التي نسيت ما نسيت طوال هذه السنين ومازلت أتذكر نقوشها..

شهوة للرجال الذين بنوا في المضافة بيت الكرم ، وبيت النكات اللئيمة ، بيت التهكم من كل عال قوي ، وبيت المساء الطويل بطول الجدال ، وأخبار كل البلاد ، كأن الحصيرة من تحتهم ، هيئة للأمم!

لكنهم لم ينبعثوا... لا المختار ولا الحراث ولا الكريم ولا البخيل... لا الذين أحبونا ولا الذين كرهونا... لا الطيبون ولا القساة... هرموا في الموت وأماكنهم هرمت .. كلها هرمت.

المؤكد أنني تجاوزت منذ خروجي من سذاجات الطفولة ، الرغبة في استعادة الموتى ليعودوا كما عرفتهم في ماضي أو ماضيهم ... أنني لا أريد استرداد دير غسانة كما كانت ولا استعادة طفولتي فيها كما كنت ... أعلم معنى مرور الزمن ... لكن المسألة ليست تأملا ميتافيزيقيا ... إنني أعلم ، وهذا هو الأفدح والأخطر، معنى أن تتعرض المدن والقرى للإحتلال... قالت لي رام الله في الأيام الماضية الكثير عن أحوالها التي أعاقها الإحتلال ، والآن ها هي القرية تقول الكلام ذاته.

حتى في لحظة "الزيارة بعد مرور الزمن" التي تغري أعتى الواقعيين بالهيام في الغمام الرومانسي، لم أجد لدي دمعا أذرفه على ماضي دير غسانة ولا شوقا لاستعادتها على هيئة طفولتي فيها.

لكن أسئلة عن جريمة الاحتلال هي التي جعلتني أفكر في مدى "الإعاقة " التي يمارسها الإسرائيليون ، كنت دائما من المقتنعين بأن من مصلحة الإحتلال، أي إحتلال أن يتحول الوطن في ذاكرة سكانه الأصليين إلى باقة من "الرموز" ... إلى مجرد رموز.

إنهم لن يتركونا نرتفع بالقرية إلى ملامح المدينة أن نرتفع بمدينتنا إلى رحابة العصر... لنكن صادقين ، ألم نكن نتمنى حياة المدينة ونحن في القرية؟

ألم نكن نتمنى الخروج من دير غسانة، المحدودة، الصغيرة، الأبسط من اللازم إلى رام الله والقدس ونابلس؟

ألم نكن نتمنى لتلك المدن أن تصبح مثل القاهرة ودمشق وبغداد وبيروت؟ إنه العطش إلى العصر الجديد دائما... الاحتلال تركنا على صورتنا القديمة ... وهذه هي جريمته... إنه لم يسلبنا طوابين الأمس الواضحة بل حرمنا من الغموض الجميل الذي سنحققه في الغد.

لم آت إلى هنا لاستعادة "فاي السباط" ولا "جمل الأبرش" ... كنت أشتاق إلى الماضي في دير غسانة كما يشتاق طفل إلى مفقوداته العزيزة... ولكنني عندما رأيت أن ماضيها ما زال هناك، يجلس القرفصاء في ساحتها، متنعما بالشمس ككلب نسيه أصحابه، أو على هيئة دمية لكلب، وددت أن أمسك بقوامه وأقذف به إلى الأمام، إلى أيامه التالية .. إلى مستقبل أحلى ، وأقول له: أركض !

**انتهى الجزء الثالث**

## الجزء الرابع

**الساحة**

لم أنبذ الرومانسية لأن نبذها موضة فنية، بل الحياة ذاتها هي التي لا شغل لها إلا اسقاط رومانسية البشر... إنها تدفعنا دفعا نحو تراب الواقع الشديد الواقعية... ليست العمائر وحدها هي التي يسقطها الوقت... خيال الشاعر محكوم بأنه آيل للسقوط ، فجأة يسقط خيالي كعمارة تنهارعندما رأيتهم كاملين كأنهم لم يموتوا، ماتوا إلى الأبد... لم يعد في المضافة إلا غيابهم... لا معنى للرعشة التي الآن أرتعشها!

تساءلت إن كانت المقارنة واردة بما حدث لي عندما سمح لي بالعودة إلى مصر والإقامة فيها بعد منع استمر لمدة سبعة عشر عاما ... لم أستطع تلبية احتياجات الرومانسية التي يتوقعها المعجبون بالدراما والميلودراما من هذه العودة الى مدينة فيها تلقيت العلم وعملت وعشت سنوات كثيرة.

أخبرتني رضوى أن مساعي السنوات السابقة نجحت أخيرا في رفع اسمي من قوائم "ترقب الوصول" في مطار القاهرة وأن بوسعي المجيء إلى مصر والإقامة مع الأسرة بلا قيود.... كنت وقتئذ في عمان أستعد للسفر إلى الدار البيضاء في المغرب، مدعوا من الأمانة العامة لاتحاد الأدباء والكتاب العرب من أجل الاشتراك في مهرجان الشعر العربي الذي يعقد عادة مرافقا للمؤتمر.... رضوى كانت أيضا مدعوة لنفس المؤتمر مع عدد من الأسماء الثقافية المصرية . هي سافرت من القاهرة قبل يومين من سفري أنا من عمان لنلتقي في فندق بالدار البيضاء. دخلت إلى البهو... انبثقت رضوى واتجهت نحوي فاردة ذراعيها وسط تعليقات الأدباء المنتشرين على المقاعد يحتسون الشاي المغربي.

حقيبتي كبيرة هذه المرة ، فيها ملابس من سيقيم إقامة دائمة لا ملابس الزائر لفترة أسبوعين... كنا نتصل هاتفيا بتميم كل يوم تقريبا ودخل في حالة انتظار لعودة أبيه إلى البيت والاستقرار فيه.

ركبنا الطائرة العائدة إلى مصر بعد انتهاء المؤتمر.... أنا لا أعود إلى رضوى ... أعود معها.... كأنها تأخذني من يدي إلى البيت الذي انتزعوني منه ومنها ومن تميم ذات خريف قبيح وبعيد.

في الخارج كان تميم قد نفذ صبره تماما رغم أن الجميع هيأوا أنفسهم لانتظار طويل... مطار القاهرة عموما من المطارات الصعبة للمسافر الملهوف... كل شيء يتم بتلكؤ لا يراه مسببوه تلكؤا، بل ربما حسبوه إتقانا لعملهم ... إنها وجهات نظر على أية حال!

دخلنا البيت ليلا (أمر محير وغريب، كل العودات تتم ليلا، وكذلك الأعراس والهموم واللذة والإعتقالات والوفيات وأروع المباهج.... الليل أطروحة النقائض!)

لم يغمض لنا نحن الثلاثة جفن... ثرثرنا أعمارنا المتفرقة في البيوت التي انضمت في تلك الليلة لتصبح بيتا... مع مرور الأيام بدأ يتضح لي ما كان غامضا... أنت لا تبتهج فورا بمجرد أن تضغط الحياة زرا يدير دولاب الأحداث لصالحك.... أنت لاتصل إلى نقطة البهجة المحلوم بها طويلا عبر السنوات وأنت أنت ... إن السنوات محمولة على كتفيك.... تفعل فعلها البطيء دون أن تقرع لك أية أجراس.

أعود بعد وضعت بيدي جسد منيف في العتمة التي لا يعود منها أحد.بعد أن عاد الخوف من الآتي يسيطر على أمي.... تميم يستعد لامتحان الثانوية العامة وهي امتحانات كابوسية لكل تلميذ في مدارس مصر... عندما فارقته كنت أحضر من تحت الشرفة قماطه المغسول الذي أسقطه هواء نوفمبر عن حبل الغسيل، وكان في شهره الخامس يمصمص شفتيه في جذل المواليد المتدثرين بشال من الصوف ويراقبون اقتراب حلمة الثدي الشفاف اللون من وجوههم الشفافة اللون.

هو الآن رجل يحلق ذقنه وشاربه! منذ ثلاث سنوات تقريبا اشترينا له ماكينة الحلاقة وصابون الحلاقة وملابس لا تختلف في مقاسها عن ملابسي إلا بنمرة واحدة.

كان علي أن أقسم الذاكرة بين الماضي العبثي الذي مر والحاضر الملموس الذي يتشكل معهما وفي بيتنا ذاته والمستقبل الذي لا تحدده قراراتنا وحدنا.... كأن تقيم الذاكرة إلى تعب سابق وراحة راهنة مستحيلا.

الذاكرة ليست رقعة هندسية نرسمها بالمنقلة والفرجار والقرارات الرياضية والآلة الحاسبة.... بقعة من مجد السعادة تجاورها بقعة الألم المحمول على الاكتاف.... اختل ميزان الاحتياج دون إرادة أي منا، نحن الثلاثة نحتاج القرب ذاته في الوقت ذاته بالمقدار ذاته.... الشعور بالبداية الجديدة والشعور باستئناف الماضي المكسور، يتزاحمان لدى الجميع.... الشعور بوضوح "العودة" إلى البيت يزاحمه الشعور بغموض المستقبل الجماعي للأسرة والمحيطين بها في الأماكن البعيدة.

كان علينا أن تتحمل "وضوح الغربة" وعلينا اليوم أن نتحمل "غموض العودة" أيضا... وقد تحملنا... أدركنا وكان هذا إكتشافا، أن العائد يعود وعلى كتفيه أحمال يستطيع المرهف أن يراها كما يرى عتالا محني الظهر في ضباب الميناء.

المنشود هنا هو البطء.... ستتخذ اهتزازات الماضي مداها إلى أن تهدأ وتسكن وتجد لها شكلها الذي تستقر عليه.... هذا يحتاج إلى البطء الساحر ، البطء العزيز... الذي يجعل الشعور بالراحة والسكينة يتغلغل على مهله فينا ... فهذه الأحاسيس لا تتشكل دفعة واحدة ولا بطريقة مباغتة... البطء الذي يوصلنا إلى تلقائية تعود الجديد إلى اعتباره طبيعة الأمور وأصلها الأول وهذا يتطلب ان نعيشه بكثافة وبكثرة وعلى مهل. إننا نتعلم ذلك... نتعلمه معا... ويتعلمه معنا بيتنا الذي سيستأنف رؤيتنا معا ويعتاد على صباحاتنا المتكررة بملابس النوم المجعلكة والعيون نصف المغلقة نبحث عن الشبشب ونكتشف أن أحدنا يجب أن يشتري فورا بعض القهوة لأنها نفذت ليلة الأمس دون أن ننتبه... انتظرت رضوى عودتي إلى بيتنا سبعة عشر عاما، وعندما عدت، عدت ومعي الأعوام السبعة عشر، كلها... ومعها الأعوام السبعة عشر كلها.

منذ ترحيلي وفي كل مرة سمح لي بالعودة إلى القاهرة كنت أقضي أطول وقت ممكن في بيتنا دون أن أغادره إلى الشارع.... كنت أتفرج على البيت .... أتفرج على الكنبة البنية تحت رفوف الكتب... على الستائر ذات الرسم التجريدي ، على المكتب الصغير تحت النافذة ... على المسودات القديمة والجمل الناقصة.... كانت تكمل عودة مؤقتة... تكمل النصف الثاني من الجملة....فالغربة كلها شبه جملة.... الغربة شبه كل شيء!

يخطفونك من مكانك بشكل خاطف، مباغت، وفي لمح البصر.... لكنك تعود ببطء شديد! وتحب أن تتفرج على نفسك عائدا بصمت، دائما بصمت، أوقاتك في الأماكن البعيدة تطل على بعضها كأنها تريد أن تشبع فضولها الغامض بشأن ما يفعل الغريب بالمكان المستعاد وما يفعله المكان المستعاد بالغريب.

أما العلاقة بالمدينة فلها قصة أخرى.... في القاهرة رتب العالم شأنه بدوني وفي غيبتي الطويلة، الصداقات ذهبت في طرقها المختلفة والمرتجلة.... المعالم في أماكنها لكنها ليست في أماكنها تماما.... مقهى تم إغلاقه... أصدقاء إكتشفوا مقاهيهم الجديدة... الشلل تكونت... الخصومات تكونت... المواقع والطموحات والولاءات تبدلت قليلا أو كثيرا... البرامج اليومية للناس وانشغالاتهم المعتادة تم تصميمها بشكل يصعب على أي وافد جديد ان يتدخل فيه فجأة.

أصدقاء الماضي دخلوا في حالات وتحولات أملتها اختيارات واضطرارات لا أعرف عنها شيئا.... الذين بدأوا مشوارهم معك تقلبت بهم حظوظهم في اتجاهات متناقضة ، هذا صار متنفذا، وذاك انتهت موهبته فاخترعوا له مواهب غيرها، هذا أصبح رئيس تحرير، وذاك يعمل في الخارج، وثالث نسيك ورابع نسيته وهكذا.

عام ؟؟؟؟ جاءتني رضوى لتقول أنها تنوي الهجرة للدكتوراه في جامعة ماساتشوستس في الولايات المتحدة... تحمست للفكرة... سافرت وبقيت في بيتنا في حي المهندسين قرابة السنتين... البيت كان يزدحم بالأصدقاء، أصدقاء كونوا لأنفسهم حضورا في الحياة الثقافية أو مازالوا يتلمسون الطريق إلى ذلك ويحاولون، كل في مجاله، من السينما إلى المسرح إلى الموسيقى وأساسا في الشعر.... كان ديواني الأول قد صدر في بداية العام ؟؟؟؟ وكنت على صلة بجيل كامل من المثقفين المصريين.... عندما عدت إلى القاهرة كانت الصحبة تفرقت... بالموت، باختلاف المصائر ، ولم أعد ألتقي بشلة أوائل السبعينات إلا مصادفة وعلى غير ترتيب.

عند اللقاء مع صحبة الماضي تجد أن كل شيء قد اختلف... ذات يوم وعلى سبيل الدعابة المعتادة بيني وبينها، قلت لسيدة مجرية خفيفة الظل دائمة المزاح تساعدنا في المطبعة التي نصدر منها مجلة الإتحاد في بودابست:

-كل صديقاتي هجرنني يا"جوجا".... ماذا أفعل لاستردادهن؟

فإذا بها تجيبني إجابة لم أنسها منذ ذلك اليوم، قالت جوجا:

-لدينا في المجر مثل شعبي يقول:"طبخة الملفوف (الكرمب) يمكن تسخينها إذا بردت ، لكن مذاقها الأصلي لا يعود أبدا".

ضاع المذاق الأصلي لتلك الأيام... ضاع بالفعل... إنني لا أحب الملفوف بشكل خاص ولا أحب تشبيه العلاقات الخاصة بين البشر بمفردات الطعام ، غير أن الوجدان الشعبي المجرب ، والمشترك عند معظم المجتمعات هو وجدان مبهر في تلخيص أحوال البشر.

استحالة الإبهاج المطلق "بالمعثور عليه بعد الفقدان" ، تجسدت في عودتي إلى القاهرة.... أدهشني أن خيالي استمر في مواصلة شغله! رغم وعيي الحاد بأنني أمشي على الأرض التي كانت شغلا لخيالي في سنوات البعد الطويلة.

ما الضائع إذا في هذا الذي عثرت عليه؟ شكل معين للأرصفة التي كنت أمشي عليها؟ نوع الإيقاع؟ نوع من المشروقات والغروبات؟ دعسات خطى انتظرت أن أسمعها ذات ليلة موحشة فسمعتها؟ مشحات من الغيم اتخذت أشكالا راقت لي ذات صباح ؟ صف أشجار في منتصف شارع ما؟ إنها المسألة نفسها دائما، مسألة رتق زمنيين بالإبرة والخيط... ولكن هيهات.

الزمن ليس خرقة من الكتان أو الصوف! الزمن قطعة من الغيم لا تكف عن الحركة، وأطرافها غائمة مثلها... قل إنك رومانسي ، الزمن هو الذي يؤدبك بكل برود...

الزمن يرنخنا بالواقعية.

هذا قبر خالك "أبو فخري".

ها هو "الملك" راقدا تحت التراب.

عملاق الجسم... هادئ الصوت.... في وجهه مزيج من ملامح الجنرال ديغول وأنتوني كوين.... يدخن الغليون منذ عرفناه ، وإن كان يحشوه بأسوأ أنواع التمباك الذي كان يسميه (الهيشة). هو الوحيد الذي يدخن الغليون بين كل أهالي البلد.... يتباهى بالقمباز الجديد ليوم أو لنصف يوم فقط، لأنه سيكون في اليوم التالي منقورا بشرارة من شرارات غليونه العجيب الذي لا يفارق زاوية شفتيه أدهشني عندما قال لي مرة:

-خالك راح لبور سعيد يا ولد.

-وليش رحت يا خالي؟ فأجابني كأنني سألت سؤالا غبيا:

-من شان أروح لبور سعيد!

انطلق ببارودته ذات ليلة إلى "البيطارة"، أرض زيتوناته خارج دير غسانة ،لأنه علم بوجود لصوص فيها يخرطون الزيتون، فعاد بسبابته ملفوفة بالشاش لأنه صوب على يده! يعيش من دخله في مواسم الزيتون.... لا تجد في جيبه قرشا في معظم أوقات السنة، لكرمه بكل قليله المتاح.... وهو أكثر بشاشة مع أصدقائه منه مع خالتي أم فخري التي تعلمت من كرمه المبالغ فيه حرصها المبالغ فيه ، ذات مرة استغل غيابها عن البيت ، ودعا أولاد الجيران الصغار من نافذته فصعدوا إليه وأعطاهم كل ملابس أحفاده التي تصر خالتي على الاحتفاظ بها إلى الأبد.... بعد أن ذهبوا استبد به الخوف من غضبها فاهتدى إلى ترتيب عجيب ؛ أحضر حبلا وقيد نفسه في كرسي من الكراسي وجلس ينتظر... ولما عادت ، أفهمها أن لصوصا قيدوه هكذا، وسرقوا ملابس أحفادها! لكنها كانت أيضا سيدة ذكية... لم تنطل عليها الرواية طبعا وتحولت إلى نادرة من نوادر الأسرة.

كانت خالتي ام فخري صغيرة الحجم بشكل ملفت... خصوصا إذا سارت إلى جواره... عندما عبرا الجسر معا إلى رام الله قادمين من عمان، أنهى الجندي الإسرائيلي معاملة خالي أبو فخري أولا لكنه ظل ينتظر في مكانه... حثه الجندي على المضي قدما فقال له أنه سينتظر "المدام" وأشار إلى خالتي ثم قال له بعربية مكسرة:

-كم سنة انتي مع المدام؟

-خمسين سنة يا خواجا.

فإذا بالإسرائيلي يقول له وهو يبتسم:

- خمارة!(حمار)

-شايفة يا ام فخري،عرفني!

كنت كاتب رسائله منذ تعلمت الكتابة.... لم أحب رجلا من أقربائنا جميعا قدر ما أحببته.... مات خالي أبو فخري وأنا في بودابست.... وتوزع أولاده وبناته بين السعودية والأردن والنمسا والإمارات والشام ، لم يبق في بيته أحد.

كان حزني عليه ثم على ابنه فخري كبيرا... فخري أخذ من صفات أبيه الكرم والتلقائية والمرح... زارني في بودابست مع سعاد زوجته وأصغر بناته مولي... بعد سنوات قليلة توفي في السعودية ودفن هناك.... فكاهاته وقفشاته وقاموسه اللغوي الخاص به وحده كانت تجعل محدثيه لا يكفون عن الضحك.

ها هو دكان يوسف الجبين الذي كان فلاحا وحلاقا ودبيكا، سقط جداره الملاصق للمضافة وسقط سقفه على بقاياه، ولا يزال الركام يسد مدخله.

اقتربنا أكثر.... حقل اللوز الذي تملكه أم نظمي التي كانت لا تطيق أن ترى طفلا منا يفوز بحبة لوز واحدة من أشجاره الضخمة، أصبح مقبرة.... كان لابد ان أطلب لها الرحمة اعتذارا عن صورتها التي تسللت إلى ذلك المقطع في قصيدة الشهوات:شهوة للصوصية الطفل فينا، نغافل بخل العجوز التي وجهها مثل كعك تبلل بالماء، كي نسرق اللوز من حقلها.... متعة العمر أن لا ترانا.... وأمتع منها، إذ ما رأتنا ، مراجلنا في الهرب.

وأمتع من كل هذا، إذا استلمت خيزرانتها واحدا، وانضرب!

بعد الغداء إقترح أنيس أن نرتاح قليلا في بيته.... دخلنا البيت الضخم المتعدد الحجرات من بوابته المنهارة المهدمة التي ما يزال ركامها مدلوقا كربوة صغيرة تكاد تمنع الدخول والخروج.

"شهيمة" و"زغلولة" هما السيدتان الوحيدتان هنا.... متقاربتان في السن، تجاوزتا السبعين، ولم تتزوجا أبدا.... متقاربتان في حجمهما المائل لقصر لكن زغلولة أقصر من شهيمة قليلا.... على وجهيهما تجاعيد متتابعة متماثلة.... يعشن في هذه الخرابة الشاسعة وحدهما ولا ثالث لهما، وترفض أي منهما محادثة الأخرى! انهما منذ سنوات في حالة مقاطعة وخصام دائمة!عندما انهار مدخل الدار اخترع أبو حازم طرفته الشهيرة عنهما، إذ أشاع أمام أقاربنا في عمان أن السيدتين كانتا تخرجان وتدخلان من وإلى الدار بواسطة طائرة هيلوكوبتر! بعد عودة أنيس من أمريكا قام بإصلاح غرفة واحدة في الدار المتهدمة ليعيش فيها....

كان الحر والإرهاق قد تمكنا مني.... خلعت قميصي وتمددت على الصدر على أرضية الغرفة الباردة. بقيت نائما وذراعاي مرتميان على الجانبين كالمصلوب.

صحوت على جلبة استعداد الجميع للتوجه إلى "الساحة" حيث الأمسية الشعرية المنتظرة... ماذا أقرأ يا ترى؟ إنه سؤال كل أمسية شعرية بدون استثناء.... وهذه الأمسية هي استثناء بحد ذاته! ورغم ذلك استسلمت لعادتي في ترك الخيارات للحظة الأخيرة بعد صعودي إلى المنصة ومواجهة الناس.
عندما أكتب أشعاري لا يكون الجمهور محددا.... ولكن عندما يطلب مني أن أقرأها أمام الناس فإنهم يصبحون ذلك.... المتلقي المحدد.... هذا وحده يسهل اختياراتي.... إنني لم أكتب "لهم" بالتحديد ولكنني سأقرأ "لهم" بالتحديد.... اتبعت هذا الأسلوب في كل الأوقات وفي كل الأماكن... وكانت الشرارة المتبادلة بيني وبين الناس تتقد وأشعر بها ويشعرون بها.

أتذكر أمسيات معينة لا تنسى ، في القاهرة وفي عمان وفي تونس وفي المغرب ، ولعل للمغرب وحده قصة من أجمل القصص.... لكن لقاء اليوم محير.... هل يريدون الاستماع للشعر فعلا؟ أم أنهم يبادلونني تحية العودة بالسلامة ويقومون بما تقتضيه الأصول؟ تركت الاختيار للحظة الأخيرة وصعدت إلى مصطبة المضافة....
هذه وجوههم إذا...الشيوخ الذين نجوا من الموت والأبناء الذين استطاعوا البقاء... خلفهم تجلس الجدات والعمات والخالات والأرامل التسع والأربعون.... أما الأطفال فلم يتوقفوا عن الحركة في كل الاتجاهات مندهشين من تحول ساحة قريتهم إلى مسرح! حسام وأنيس يقولان ان بعض شباب القرية مثلوا مسرحية على سطح الجامع في هذه الساحة عام ؟؟؟؟ ولم تتكرر التجربة منذ ذلك التاريخ.
قبل أن أصعد إلى المصطبة توجهت للحاضرين وصافحتهم واحدا واحدا رجالا ونساء وأطفالا.... بعضهم يتذكرني.... بعضهم يتذكر منيف.... وكلهم يتذكرون أبي....كانوا يسمونه "الحنون".
أنيس وحسام، بلباقتهما وإدراكهما للموقف، جنباني الكثير من الحرج الناجم عن نسياني بعض الوجوه والأسماء.... قدما لي على الفور كل من لمسوا أنني نسيت إسمه.
هذا هو "العفو" ابن "أبو العفو" ، قال حسام ... سلمت عليه بحرارة.... شاب أشقر وسيم فارع الطول كأبيه..... حضرت عرس أبيك في هذه الساحة يا عفو قبل دهر!
-إذا أنت ابن "أبو العفو"...!
في لمحة بصر تكون المشهد الغابر كله:
منير أبو زاكي الشاب النحيل ذو القميص الأبيض الشفاف يقود صف الدبكة في عرس شقيقه الأكبر فخري (الذي يصبح فيما بعد "أبو العفو").... صبايا القرية اتخذن سطح الجامع شرفة لهن، يغنين منها ويطلقن الزغاريد ويسحجن مع الشبابة للراقصين.... الراقصون يتحرقون لكي يمكثوا أطول وقت ممكن في وضع يتيح لهم مشاهدة البنات.... لكن الملعون "أبو زاكي" قرر أن يبقي ظهورهم إلى جهة الجامع، ليتفرد هو بالنظر إلى شرفة البنات! ترك عيونهم معلقة بقدميه وخطواته.... إنه اللويح الذي يقود رقصتهم.
كنت صغيرا عندما شاهدت ذلك العرس في هذه الساحة التي أقف فيها الآن لأقيم أول أمسية شعرية في تاريخ القرية.... لم أعرف بالضبط كيف ولماذا استقرت رقصة "أبو زاكي"سنوات طويلة في ذاكرتي رغم تشتت

أبطالها جميعا.... سافر أبو زاكي إلى الشارقة ومات أبو العفو.... ورمتني الأحداث من دير غسانة إلى رام الله والقاهرة والكويت وبيروت وبودابست.... وفي بودابست تحديدا صورت المشهد الغابر كله في قصيدة"غمزة".

وقفت في ساحة دير غسانة، خلفي مباشرة حائط المضافة، على يساري دار صالح، على يميني حائط الجامع ، وأمامي بالضبط سور دارنا... دار رعد.
جسد منيف يملأ المكان.... لم يكن طيفا ولا تذكرا .... هو ذاته.... بقامته الطويلة، بنظارته، بوجهه الأشقر وشعره الجميل... تحديدا في هذه الساحة المتهدمة، التي وضع لها الدراسات والخطط لترميمها وإعادة إعمارها.... أراد أن يحولها إلى ساحة للعروض الفنية الجماعية، ومراسم للرسامين، وأن يقيم فيها حضانة للأطفال ومعهدا لتعليم الفنون الزراعية.... وخطط لاستعادة أقواها وقبابها وبواباتها الأثرية إلى بهائها الأول.
ذات مرة كنت بصحبته في قرية إيفوار الفرنسية وسحرتني بعتاقتها وزهورها وحياتها الفنية الغنية فقال لي:
-لا تنبهر هكذا يا مريد ، دير غسانة يمكن إذا اعتنينا بها أن تصبح مثل إيفوار وأجمل منها كمان....
نعم.... كان كل شيء حولي، وكل شيء في داخلي يحتم علي أن أبدأ بقصيدتي في رثائه.... أردت أن أعيده إلى هنا محمولا على لغتي... أردت أن أعيده معي إلى هذه الساحة.
قرأت مقاطع من قصيدة "منيف".

رجل رؤوم
وهو الذي ظلت أمومته تظلل أمه
ليرى ابتسامتها
ويفزع أن يكون بصوف كنزتها
ولو خيط حزين.
من جرؤ على إحناء قامته السرو؟
من جرؤ على بعث كل هذه القشعريرة
في الهواء المحيط بكتفيه؟
من جرؤ على قتل الاستغاثة الأخيرة للجمال؟

ثم قرأت قصيدة "باب العامود" وقصائد قصيرة أخرى.... تأثروا.... ضحكوا .... حزنوا.... كان إحساسي بوجودهم طاغيا ومهيمنا.... كانت شعارات الإنتفاضة،رغم توقف أحداثها بفعل أوسلو، تملأ الحيطان على الجامع وعلى دار رعد، وعلى كل ما يمكن للطباشير والدهانات أن تعلق به.... معظمها شعارات حركة "حماس".

تزاحم الخاطر بفوضاه وتشعبه نحو كوارث عالم السياسة والسياسيين.... لكن هذا اللقاء لقاء للشعر... تركت ما في النفس يتكون في النفس كما يحلو له ليستقر هناك مع الركام المرير المخزون.

هؤلاء الناس لا ينقصهم مزيد من المرارة.... ليكن في قصائدك ما يشير ولو بشكل خافت إلى أن الحياة تستمر بالأحياء في نهاية المطاف.... ذكرت الأهالي بعرس المرحوم "أبو العفو" وقرأت عليهم قصيدة "غمزة" وأهديت القصيدة إلى منير أبو زاكي (أينما كان):

غمزة من عينها في العرس
وانجن الولد!
وكأن الأهل و الليل
وأكتاف الشباب المستعيذين من الأحزان بالدبكة
والعمات والخالات والمختار
صاروا لا أحد
وحده اللويح،
في منديله يرتج كل الليل
والبنت التي خصته بالضوء المصفى
أصبحت كل البلد
مد يمناه على آخرها
نفض المنديل مثنى وثلاثا
ركب الجن على أكتافه ثم رماهم وانحنى
ركب الجن على ركبته ثم رماهم واعتدل
قدم ثبتها في الأرض لمحا
ورمى الأخرى إلى الأعلى كشاكوش وأرساها وتد
كلما أوشك أن يهوي على سحجة كف
جاءه من سحبة الناي سند
يلقف العتمة كالشهوة من أعلى بروج الليل
حتى ضوء عينيها تماما
يعرق الصدر وشعر الصدر من ميلاته يمنى ويسرى
ثم يسري عرق الظهر عموديا تماما
وحياء القلب خلى كل ما في القلب يخفى
والقميص الأبيض المبتل من أكتافه حتى حزام الجلد

خلى فقرات الظهر تحصى بالعدد
غمزة أخرى ولو مت هنا
غمزة أخرى ولو طال انتظاري للأبد!

هناك لحظات يتعرض فيها الشعر لامتحان مباغت ، عندما يلقى على مسامع جمهور لا يعنيه الأدب والشعر بشكل خاص.... تعرضت لهذه التجربة مرتين في السنوات الأخيرة:دعتني الصديقة هيفاء النجار مديرة المدرسة الأهلية للبنات في عمان لقراءات شعرية أمام طالبات المدرسة.... بنات الصفوف الإعدادية والثانوية.... بنات بين العاشرة والسابعة عشرة من العمر... (من الطبيعي أن لا يمتلكن تاريخا في تلقي الشعر في هذه المرحلة من العمر).... والمرة الثانية هي هذه المرة.
إنني ألقي الشعر أمام "أعمامي وأخوالي" ، كما خاطبتهم عندما أمسكت بالميكروفون، أمام المختار والراعي والحراث والأمهات والجدات والمتعلم والأمي والأطفال تجمعهم هذه الساحة التي لم يقف فيها شاعر من قبل على الإطلاق.
في المدرسة الأهلية في عمان وهنا في مضافة دير غسانة تبدد بعض قلقي وهدأت هواجس عندي حول علاقة الناس غير المختصين بما نكتب....
في ختام الأمسية قلت لحسام:
-لا يوجد جمهور محايد يا صديقي.... لا يوجد جمهور برئ تماما.... لكل فرد تجربته الحياتية والإنسانية مهما كانت بسيطة.
لأول مرة في حياتي ألقي قصائدي أمام صفوف متتالية من ريفيين يرتدون الحطة والعقال.... فيهم ابن الثامنة وابن الثمانين .... معظمهم لم يدخل في حياته مسرحا ولم يقتن ديوانا واحدا من الشعر.. بل إن مجنون القرية ، عبد الوهاب، الذي عشق ابنة المختار في الخمسينيات وكان يكتب فيها قصائده الغزلية المؤثرة، وكنا نحن الأطفال(ولدهشته الشديدة) نرتعد خوفا منه كلما صادفناه في القرية أو في عين الدير لأنه مجنون، لم يكن مجنونا على الإطلاق! إنه لم يوصف بالجنون إلا لأنه يقول الشعر، وفضلا عن ذلك يريد ، وهو المعدم أن يتزوج بنت المختار!
انتهت الأمسية وبدأ الحوار مع أهل القرية.... أسئلة عن الغربة والعودة والوضع السياسي، لكن السؤال الذي ما زلت أذكره ، جاء من سيدة من الصفوف الخلفية تقول:
-ما هو أجمل ما رأيت منذ عودتك إلى البلاد؟
قلت لها صادقا وبسرعة:
-وجوهكم.
نزلت عن المصطبة .... انفعالاتي يختلط فيها السرور بالأسى الغامض.

فجأة وجدت نفسي محاطا بعدد من الأطفال يقدمون لي أقلامهم ودفاترهم المدرسية وأوراقهم المقتطعة منها لأوقع لهم عليها.... كانوا يتدافعون وعيونهم فيها ذلك المزيج الساحر من الشقاوة والخجل.

لعلها لحظة جعلت السرور ينفرد بي، لولا ذلك الهاجس الذي ينهرني ويقول لي قف! إنه الهاجس الأكثر قسوة ووجعا:

ما الذي تعرفه دير غسانة منك يا مريد؟

ما الذي يعرفه منك أهلك الآن؟

ما الذي يعرفونه مما مر بك ومما شكل وجدانك، معارفك، اختياراتك، وصفاتك الإيجابية والسلبية، طوال ثلاثين سنة عشتها بعيدا عنهم؟ ماذا يعرفون عن لغتك؟ لغتك التي اختلط فيها ما يشبههم وما يخالفهم ، لغتك في الذهن وفي القول وفي الصمت والعزلة وفي الخصومة والرضى؟ أنت لم تنتقل من سواد فوديك إلى شيبهما تحت أعينهم.... لا يعرفون أصدقاءك وصديقاتك ولا عاداتك الصغيرة.

وإذا عرفوا عاداتك ، هل سيقرونها؟ موقفك من فكرة العائلات كلها، ومن المرأة ومن الجنس ومن الأدب والفن والسياسة؟ لا يعرفون العيوب التي تخلصت منها ولا العيوب التي اكتسبتها منذ تركتهم.

يحسبون أنك لم تأسف لقطع شجرة التين إلى "هذا الحد".... لا يعرفون رضوى وتميم... لا يعرفون ما الذي جد عليك في غيابهم.... أنت لم تعد ابن الأول الابتدائي الذي كانوا يشاهدونه من زمان، يقطع هذه الساحة في طريقه إلى جدول الضرب وحصة الإملاء.

فهل يتذكر الكثيرون مفردهم؟

هم ليسوا مطالبين بذلك أصلا .... لقد مر بهم زمن لا تعرفه أنت أيضا.... كل ملامحهم التي تتذكرها هي ملامح ثابتة وما هي بثابتة... ألم يتغيروا هم أيضا؟

ام طلال على غير عادتها تتحدث في السياسة.

يقولون لي إن كثيرا من شباب البلد متحمسون لحماس...

كان ضروريا في لحظة لا أعرفها لأنني هناك، ولأنها هنا.... هكذا بكل بساطة.... ربما لو كنت أنا الذي استمر في العيش هنا لهدمت أو بنيت وزرعت أو قطعت أشجارا بيدي... من يدري؟

عاشوا زمنهم هنا وعشت زمني هناك.... هل يمكن رتق الزمنيين؟

وكيف؟ لابد من ذلك.... هل هو ممكن ؟

هل هو مستحيل؟

وهؤلاء الأولاد والبنات الصغار لو كانوا يشاهدونني مع آبائهم وأعمامهم وفي دورهم كل مساء منذ ثلاثين سنة، هل كانوا سيطلبون توقيعي على أوتوجرافاتهم كشاعر غريب؟

اقترح أبو حازم أن نعود قبل حلول الظلام إلى رام الله .... كانت حكومة إسرائيل قد قررت إغلاق الضفة منذ وصولي بسبب الإنتخابات العامة تخوفا من عمليات حماس.... التوتر العام يمكن لمسه باليدين....

الطريق بين دير غسانة ورام الله محاط بالمستوطنات التي توضحها أضواؤها ليلا، فتبدو أحجامها الحقيقية حتى للعين المستعجلة.... وأكبرها مستوطنة بيت إيل على مشارف رام الله، وهي نهاية المنطقة (أ) الخاصة بالإشراف الفلسطيني.
كل الطريق واقع تحت تصنيف (ب) الذي يعني الإشراف الفلسطيني/الإسرائيلي المشترك... أي أن السلطة الفعلية فيه للجندي الإسرائيلي... وقد شرحوا لي أن هذا هو الوضع بشأن كل الطرق بين المدن والقرى الفلسطينية.

لم يكن ممكنا الذهاب إلى عين الدير، مملكة عمي "أبو مطيع" الذي قضى ثمانين عاما يبذر ويسقي ويشق القنوات ويقسم السفح إلى "حبائل" وسطور مستوية تسمح باستقرار الماء وتمنع انجراف التربة.
منذ أول القرن حتى وفاته قبل سنوات وهو "يجول" الزيتون ويأخذه إلى بابور أبو سيف ليعصره زيتا يملأ الجرار.... زرع في عين الدير كل نبات يمكن أن ينمو في مناخ البلاد: التفاح العسيلي والتين الخضاري والسوداوي والبياضي والخرتماني والصفاري والزراقي والحماضي.... البرتقال والليمون الجريب فروت والبوملي الرمان والسفرجل الزعرور والتوت والبصل والثوم والبقدونس والخس والفلفل بأنواعه وألوانه، والبطاطا والقرنبيط والملفوف والملوخية والسبانخ.
كان لا يحترم الأعشاب البرية التي تنمو بغير عنايته الشخصية، كالخبيزة والميرمية والبابونج والمرار والخرفيش، رغم أنه كان يحاول عبثا أن يعلمني أسماءها الغريبة وخصائصها الأغرب في شفاء الأمراض، كان سيد الماء.... استطاع وهو الأمي الذي لم يغادر القرية أن يروي كل الجبل وكل الوادي بأقل قدر من الماء، بلا هدر ولا تبديد، كأنه مهندس داهية في علوم الزراعة.... كان قليل الحجم وصفه ابنه مطيع ذات مرة بأنه "ظل قد البرتقانة" رغم كل المأكولات التي كان يزرعها ويتعهدها برعايته.
-عين الدير خربت يا ولدي... العليق أكلها أكل ... الواويات تسرح وتمرح فيها.... روح شوف بعينيك.
لم أرح.... لا أريد أن أروح....

رأسي على المخدة في بيت "أبو حازم" هذا بيت آخر للمسافر.... هذه مخدة أخرى لرأسي.... علاقتي بالمكان هي في حقيقتها علاقة بالزمن... أنا أعيش في بقع من الوقت بعضها فقدته وبعضها أملكه لبرهة ثم أفقده لأنني دائما بلا مكان.
إنني أحاول إستعادة زمن شخصي ولى... لا غائب يعود كاملا.... لا شيء يستعاد كما هو.... عين الدير ليست مكانا.... إنها زمن.... وقت....

بلل الشتوة الأخيرة التي تقول عيوننا إنه جف فتكذبها أحذيتنا.... شوك العليق الذي عود أيدينا وجنوبنا على النزيف المبكر منذ الطفولة في غروب كل يوم نعود فيه إلى أمهاتنا.... هل أريد أن أتشعبط على عليقة الآن؟

لا... بل أريد "وقت" الشعبطة... عين الدير هي تحديدا زمن مريد طفلا وعمي ابراهيم فلاحا وصيادا، فخاخه تستدرج طيورها من أربعة جبال خضراء لترفرف في آخر المطاف بين أصابعه الفائزة في لعبة السماء والأرض.
كان يشرح لي الكثير عن غباء العصافير التي ترى الحبة ولا ترى الفخ... وعندما يطمئن إلى أنني رأيت غباءها بالأذن والعين، كان يسارع إلى الإضافة التي لم أفهمها تماما في الخامسة أو السادسة من عمري:
-الناس يا عمي زي العصافير.... كثير منهم بيشوفو الطعم، وما بيشوفو الفخ!

"دار رعد" ليست مكان .... هي أيضا زمن.... زمن النهوض مع صلاة الفجر من أجل مذاق التين "المقطوف على ضوء الفجر" والذي شطبه الندى ونقرته العصافير النشيطة (لا أحد يميز الثمرة الناضجة من الفجة كالعصفور، العصفور لا يخلو تماما من النباهة والذكاء).

هي زمن جرار الزيت القادم للتو واللحظة من بابور أبو سيف إلى رغيف الطابون الساخن في يدي قبل الذهاب إلى المدرسة.... وهي ذلك الاحتكاك الفجائي (البريء) بثدي ابنة الجيران أثناء اللعب، والذي بمجرد إحساسك به لا تعود إلى البراءة ولا تعود البراءة إليك... خلص... لقد عرفت الآن، ولو في وهجة اللهو، ملمس ثدي الأنثى.... وما العارف ببريء!
أماكننا المشتهاة ليست إلا أوقاتا... أجل إنها أوقات.... ولكن مهلا... في الصراع تكون المسألة هي المكان... نعم... المكان.... كل القصة في المكان... يمنعونك من امتلاكه فيأخذون من عمرك ما يأخذون.... عندما سألني صحفي عن معنى الحنين بالنسبة لي، قلت له شيئا قريبا من هذا.... إنه كسر الإرادة.... بالتالي لا علاقة له برخاوة الذكرى والاستحضار.
لكثرة الأماكن التي رمتنا إليها ظروف الشتات واضطرارنا المتكرر لمغادرتها، فقدت أماكننا ملموسيتها ومغزاها.... كأن الغريب يفضل العلاقة الهشة ويضطرب عندما من متانتها.... المتشرد لا يتشبث.... يخاف أن يتشبث.... لأنه لا يستطيع.... المكسور الإرادة يعيش في إيقاعه الداخلي الخاص ... الأماكن بالنسبة له وسائل انتقال تحمله إلى أماكن أخرى .... إلى حالات أخرى.... كأنها خمر أو حذاء.... لا تقبل الحياة منا أن نعتبر الإقتلاعات المتكررة مأساة.... لأن فيها جانبا يذكر بالمسخرة.... وهي لا تقبل منا أن نتعود عليها كنكتة متكررة.... لأن فيها جانبا مأساويا.

إنها فقط تعلمنا الرضى بالمصير الوحيد المقترح علينا.... تروضنا... تعلمنا التعود... كما يتعود راكب الأرجوحة على حركتها في اتجاهين متعاكسين.... أرجوحة الحياة لا تحمل راكبها إلى أبعد من طرفيها: المأساة والمسخرة.

العالم يواصل تأرجحه.... الغبش الخفيف يغلل الأفقين على جهتيها.... في القاهرة، صبيحة ذلك العيد التاريخي الكئيب، كانوا ستة من المخبرين.... عندما سقط من حبل الغسيل ذلك القماط الذي مازال مبلولا من أقمطة تميم وخرجت لجلبه، رأيتهم ... كانوا ستة مخبرين في سيارة مباحث أمن الدولة.

قلت لرضوى:

-جاؤوا

**انتهى الجزء الرابع.**

## الجزء الخامس

### الاقامة في الوقت

اقتادوني الى دائرة الجوازات في مجمع التحرير ثم اعادوني في المساء الى البيت لإحضار حقيبة السفر و ثمن تذكرة الطائرة.... في الطريق الى سجن "ترحيلات الخليفة" انتظارا لقراهم النهائي، كنت انظر الى شوارع القاهرة نظرة اخيرة ارجوحة المأساة و المسخرة تهتز بي مع اهتزاز سيارة الجيب و اهتزاز شكل الايام القادمة الرجال الستة خصصوا واحدا منهم لمراقبتي و انا اعد حقيبة ملابسي و جلس الخمسة الاخرون امام تلفزيون بيتنا و بدون استئذان يشاهدون على الهواء مباشرة خطبة الرئيس الى الكنيست.

ماذا تحمل الايام لهذا الطفل ذي الشهور الخمسة و لرضوى و لي و لنا؟

في الطائرة فقط في مقعدي في الطائرة فكوا الكلبشات من معصمي قلت للجالس بجواري و بصوت فكاهيّ:

- وداعا يا افريقيا.

لم اقم بأي فعل لمعارضة زيارة السادات لاسرائيل كان ترحيلا وقائيا و نتيجة وشاية كما تبين بعد سنوات عديدة لقّقها زميل معنا في اتحاد الكتاب الفلسطينين!

الحياة تستعصي على التبسيط كما ترون!

و من بغداد الي بيروت الى بودابست الى عمان الى القاهرة ثانية كان من المستحيل التشبث بمكان، اللأن ارداتي فيه تصطدم مع ارادة صاحب المكان .. ارداتي انا هى المعرضة دائما للانكسار.

انا لا اعيش في مكان انا اعيش في الوقت في مكوناتي النفسية اعيش في حساسيتي الخاصة بي... انا ابن جبل و استقرار، و منذ تذكر يهود القرن العشرين كتابهم المقدس اصابني الرحيل البدوي و ما انا ببدوي.

لم استطع تكوين مكتبة منزلية متصلة ابدا تنقلت في البيوت / المحطات و الشقق المفروشة و تعودت على العابر و المؤقت.

روّضت نفسي على ذلك الشعور بان بكرج القهوة ليس لي ... فناجين قهوتي من ممتلكات المالك و من مخلفات المستأجر السابق، حتى كسر فناجين منها يتخذ معني اخر، الصدفة العقارية وحدها هى التي تختار لي شكل ملاءات سريري، حجم مخدتي، ستائر نوافذي، طنجرة الطبخ، ملعقة الشاي، كلها هناك كما شاءت او كما شاء الاخر،لا كما تشاء اصابعي لا انتقي الصدفة تنتقي.

تخليت اكثر من مرة عن كل ما ربيته من جيرانيوم على الشرفات المتغيرة باستمرار و عن نباتاتي الداخلية مثل اليوكا و السينجونيوم و الدراسينا و الشوفليرا و رجل الدبّ و الفوجير، اختار لها اصص السيراميك البيضاء اتفنن في تنسيقها و رعايتها و اغسل اوراقها بالبيرة ورقة ورقة أغْمِس قطعة من القماش القطني ذي المسامات في البيرة و هى افضل و ارخص من المستحضرات الكيماوية اضع الورقة في يدي اليسرى ثم امسح سحها بالقماش المبلول بيدي اليمنى الى ان يصدر عنها ذلك اللمعان المدهش الذي يذكرني بضربة الختام في السيمفونيات، انتقل من ورقة الى اخرى و من فرع الى اخر بنفس الحرص و العناية ادير لها آلة التسجيل التي

تبث الشريط بلا توقف و اتركها دائرة حتى و انا خارج البيت.... أبدأ صباحاتي بلمس اوراقها و فروعها و ملاحظة رطوبة تربتها اراقب درجة انجذابها نحو ضوء الشمس القادم من النافذة او من الشرفة و لانني احب للنبتة ان تكون منسجمة الاطراف و الزوايا و الاستدارات انقلها من مكانها الى نقطة اقرب للشمس لاجعلها تواجه الضوء بجانبها الذي كان محجوبا ، اتركها في وضعها الجديد اياما تكفي لضبط ايقاع اوراقها و انغام نموها الى الاعلى الى فوق ثم اعيدها الى مكانها المعهود في الغرفة.

احيانا اسند بعض فروعها بعيدان خاصة اشتريها من افضل المحلات المتخصصة و احيانا اربطها الى خيوط شفافة لا تكاد ترى و امدد الخيوط الى اتجاهات محددة اتخيلها تناسب مستقبل النبتة و هى تنمو و تكبر و أهيئ لها مزيجا من الضوء و الهواء و الصداقة الشخصية.....و أغادر... دائما أغادر!

استغني عن مقتنيات الغربة بشكل روتيني خالٍ من المشاعر الا في حالة توزيع نباتاتي المنزلية على اصدقاء البلاد التي تتركني او اتركها لكنني في المطارات و على نقاط الحدود و في حجرات الفنادق المؤقتة انسى كل ما ورائي و اسال عن شكل "الايام" المقبلة، شكل الوقت لا شكل المكان.

في المنافي و الاسفار المباغتة يدخل الفندق الى اسلوب حياتك كان من المفترض نظريا ان اكره حياة الفنادق لما فيها من معاني تؤكد مؤقتية الحال و الاستعداد الوشيك للرحيل مرة اخرى.

ربما يقتضي المجاز ان اكرهها و لكن تبين لي من واقع الحال ان الحال ليس كذلك بالضبط ارتحت لحياة الفنادق الفندق علمني عدم التشبث بالمطرح روّضني على قبول فكرة المغادرة بالتدريج و لكثرة الاسفار القصيرة بدأت احب الفندق كفكرة انه يعفي من تخليد اللحظة و لكنه في الوقت نفسه مسرح لفصول صغيرة و مفاجآت في المرئي و المسموع و توسيع لمحيط الحياة الرتيب في الفندق انت معرض للمدهش الذي لا يتكرر ... الفندق يكسر مألوفك الطارئ بمألوفه الطارئ.

الفندق يعطيك شيئا من نكهة الخلودات المؤقتة... تستلم رسائل الاصدقاء كلما عدت من مشوار قصير انه يكوّن لك على الفور مجتمعا صغيرا من اصدقاء المدينة الجدد التي وصلت اليها للتو شبه عائلة من الذين يهتمون بأمرك لبضعة ايام او لبضع ساعات في اليوم.

في الفندق تسقط دولة الجار الدائم لانتباه لجاره لا وجود لفخاخ الواجب الاجتماعي انه المكان الذي تتمجد فيه دولة الكسل و "التنبلة" ، تغادره و تعود اليه في الساعة المرتجلة هو اغراء بيوم مفتوح على مصراعيه.

في الفندق لست مسئولا عن رعاية النباتات و لا عن ماء المزهرية التجارية التي يضعون لها نسخا مكررة منها في كل غرفة... هذه مزهرية لا تتالم لفراقها و لا تمتلك مكتبة ضخمة تحتار في تبديدها على المعارف و الجيران قبل الرحيل القسري او المخط له غالبا من قِبَل الاخرين.

لا توجد اية قسوة في تركك اللوحات المعلقة على جدران غرفتك لانها ليست من مقتنياتك اولا و لانها ثانيا قبيحة في معظم الحالات...

تاملت المضافة التى وقفت على مصطبتها....هذا هو مكاني الاول... وجوه رجالها بملامحهم المميزة و اصواتهم تعاودني مرة اخرى ام هو خيالي يقترضهم من موتهم الطويل فجاة؟
يظهرون و يختفون من امامي بخصالهم الحقيقية و خصالهم التي الصقتها بهم الالسنة و فنون النميمة المحببة التي يقال ان البراغثة هم فرسانها كان المرحوم عبد الرحيم محمود يقول ان في رام الله مسلمين و مسيحيين و براغثة!

كبار السن ينقلون نوادر المضافة لأبنائهم جيلا بعد جيل، فتكسى بالمبالغات و الاضافات حسب خفة ظل من يتناقلونها... بعضها نُقل لي من أبي و بعضها من أبو حازم لكن معظمها مخزون برواياته الاصلية في ذكريات ابو كفاح و المعتدل. و ابو كفاح لا يستهدف احدا بقدر ما يستهدف خالا له يدعى سميح و خالا ثانيا هو ماجد... اما المعتدل فكان لذكائه يجالس الكبار منذ شبابه المبكر و يقضي اجازاته من عمله في السعودية على المضافة... ها هو ابو عودة يجلس في ابعد ركن على الحصيرة (القرب و البعد عن صدر الحصيرة و مركزها يتعلق بثراء الجلس او فقره) فيقول في احدى مسامرات الصيف الهادئة و على غير توقع من احد:
- هل تعرفون كيف يميّز الناس بين التيس (أي الغبي) و الذكي؟
- كيف أبو طُنبْ؟ (و قيل إنه منح هذه الكنية بسبب إلحاحه المبكر على ابيه كي يزوّجه، و الطنب عندهم هو القضيب الطويل)
فقال:
- التيس بتكون لحيته عريضة.
لم يعلق احدا على ذلك، لكن المختار الجالس في صدر المضافة كان يرفع يده اليمنى ببطء و يتحسّسْ لحيته خلسة! فقهقه المجلس كله!
و من طرائفه ايضا انه قال لهم مرّة:
- و الله بلدكم يا أهل دير غسانة بلد نفاق، اذا ابو عودة نطق بالدّرر بتقولوا ما سمعناش واذا المختار ضرط بتقولوا ريحة مِسك!
و ها هو "بسماركط ابو المعتدل صاحب التدابير الغامضة في شؤون القرية و الذي حصل على لقبه الغريب عن جدارة لا تشير الى خطورته فقط بل تشير ايضا الى خطورة ادراك الذين اطلقوا عليه هذا اللقب بالذات.
و لا اعرف بالضبط خلفية القاب كثيرة اطلقا الناس على الناس في دير غسانة و ظلت متروكة لاستنتاجاتنا نحن الصغار... كانت الكنى و الالقاب الساخرة تتحوّل فورا الى اسماء تحل محل الاسم الحقيقي للشخص.
الذي يتحدث او يتحرّك ببطْ يسمونه "سلبد".
قصير القامة يسمونه "الجرن".
الطويل القامة يسمونه "ابو مغيط".
الاكول يسمونه "ابو الثرايد".

الهامل يسمونه " طُزّو" و هكذا.

أما فخري ابن خالي ابو فخري) فهو مسئول وحده عن لصق عشرات الالقاب بأهل البلد... و من القابه المأثورة " الدونم" للضخم الجثّة و "الدبعي" للشديد السمنة و "مسيليمة" للشخص المعروف بكثرة الكذب و "المستطيل" و هى واضحة المعنى. كان فخري بدلا من ان يقول إن فلانا شديد اللؤم يكتفي بالقول إنه "حليب"!

قال مرة يتهم شخصا بالبخل انه دعاه الى غداء مكون من "اربع حبات بازيلا"!

و من ألطف التشبيهات التي سمعتها في زيارتي هذه المرّة عن صديقين لا يفترقان انهما مثل الكلينكس ما ان تسحب ورقة من العلبة حتى تظهر الثانية فورا.

و ها هو ابو زهير داهية دير غسانة بلا منازع الذي زوّج ابنه "زهير" من فتاة و تزوج هو شقيقتها بعد ذلك و هو في السبعين و أنجب الشهيد "عدلي".

و ها هو أبو سيف بمهابته و جسده العملاق أكبر ملاكي الاراضي في القرية.. و خارجها اقام اليهود مستوطنة على اراضيه في قرية "ملبّس" و أسموها "بتاح تكفا" ... و هو صاحب البابور (معصرة زيت الزيتون) في دير غسانة... تزوّج فتاة من الشام تصغره بستين سنة!! و انجبت له ولدا قبل موته بشهور ! ها هو "ابو جودت" بكرمه و نعاسه الدائم و ابو طلّب الذي كان يقدم القروض للمحتاجين بفوائد و ها هو ابو مطيع بصمته الدهري كانه هذه الحياة الفانية لا تعنيه... مع انها تعنيه.... كانت زوجته حاكمة (هذا هو اسمها الحقيقي) سألتها مرة عن اخبار أحد أقربائنا في الكويت فقالت بنبرة الفخر و الاعتزاز :

- الحمد لله وضعه فوق فوق ، الله يرضى عليه ثلاجات، غسالات، مكيفات، فيديوهات ،راديوهات، سيارات ،بضربة مفكّ....بيصلّحهن!

و ها هو خالي ابو فخري يتحدث عن ايام انخراطه في الجيش التركي و في سلاح الزنّار الاحمر و تنقله مع ام فخري وراء وظيفته.

كان يذهب الى اللحّام في رام الله و يفطر في الصباح الباكر و على الريق كبابا و كبدة... له اجمل ضحكة رغم سنه الذهبيّ لان ضحكته تتكون اساسا في عينيه...

هذه صورهم في الذاكرة لكن ليست صورهم الوحيدة... الكاميرا المركّبة في تلك الزاوية التي تبرز محاسنهم سوف تعطي صورا اخرى عندما تنتقل الى الزاوية التي تبرز المآخذ الكثيرة فيهم و في زمانهم الذي انقضى و لم ينقض.

من بين هؤلاء الرجال الذين هم زينة المضافة قام نفر ذات صباح شتائي يقتادون طفلتين في الصف الرابع عبر الساحة كلها و أدخلوهما الى الجامع و طلبوا من الطفلتين تسميع سورة من سور القرآن... تلعثمت الطفلتان.

- شو بيعلموكم بالمدرسة؟

- املاء و حساب و رسم و اناشيد.

عادوا بهما الى بيتنا و بيت المختار، فواحدة منهما كانت ابنة المختار، و الثانية كانت الفلة سكينة محمود على البرغوثي، التي ستصبح فيما بعد أمي.

خرج ابو مطيع و ابو معتدل و ابو زهير و غيرهم بقرارا لن ننساه امي التي تحكي لنا هذه الواقعة بادق تفاصيلها و هى في حالة من القهر و الغضب كانها تعيش اللحظة مجددا في كل مرة ترويها.

كانت مدرسة البنات في "دير غسانة" تعلم البنات حتى الصف الرابع الابتدائي فقط و لم يكن ذلك لصعوبة اضافة صفوف دراسية أخرى و لا لقلة المدرسات في فلسطين و لكن لان البنات بعد الصف الرابع يصبحن في نظر القرية نساء ينبغي "خزنهن" في بيوتهن انتظارا للعريس و يجب ان يتوقفن عن الخروج من البيت حتى و لو الي المدرسة.

و في ذلك العام وصل الى القرية مدير مدرسة " الفريندز" للبنات في رام الله و قرر ان يقدّم منحة دراسية للطالبتين في الصف الرابع الابتدائي لاكمال دراستهن حتى الثانوية العامة في مدرسته في رام الله و قال انهما ستقيمان في القسم الداخلي أي في سكن الطالبات و ستقدم لهما المدرسة كل الرعاية و كل المصاريف اللازمة.

جن جنون رجال المضافة من الفكرة...

- هذه مدارس تبشير تفسد عقول البنات.

- المدرسات في البلد لا يطلبن من البنات حفظ القرآن.

- فما بالك لو اخذوهن الى رام الله.

كانت فرحة الطفلتين و حماستهن لاكمال تعليمهن فرحة اخرجت المضافة عن صوابها. اهتدى "بسمارك" الى فكرة امتحان الطفلتين في حفظ القرآن.

- اسمعي يا ام عطا بنتك ممنوع تروح على رام الله مفهوم؟ خذيها و اخزنيها في الدار بنتك غاسل و ممنوع تظل تلعب في الساحة مفهوم؟

لم يتدخلوا لمنع ابنة المختار من اكمال تعليمها.

اما امي فقد ذهبت منها طفلة أخرى لم يكترث ابواها لاعتراضات القرية اسمها فوزية اديبة بنت المختار واصلت تفوقها و حصلت على شهادة الفريندز الثانوية بالفعل بعد ذلك و اصبحت مدّرسة ثم مديرة مدرسة مرموقة في فلسطين.أما فوزية فلم تتكيف مع وضعها الجديد و عادت الي القرية بعد فترة.

الطفلة سكينة بنت محمود علي البرغوثي هى وحدها التى تم منعها من نيل فرصتها الوحيدة في التعليم لانه يتيمة مات والدها و عمرها سنتان و ترك امها (جدتي) حاملا بجنين لم ير النور الا بعد وفاته.

أراد أهل زوجها المتوفي ان يطردوها من الدار فما الذي يضطرهم لرعاية ارملة تحمل على حِجْرها طفلة و في بطنها جنينا و ليست ثرّية؟

- ارجوكم خلوّني في الدار كم شهر بس حتى الد مش يمكن الله يكرمني و يكون اللي في بطني ولد ذكر؟

- اتفقنا بس يكون في معلومك اذا جبتي بنت ثانية بتحملي حالك و البنتين و بترجعي على دار اهلك.

جاء المولود ذكرا اسمته عطا الله هذا المولود اصبح فيما بعد خالي عطا و بهذه الطريقة فقط سمحوا لجدتي ان تظل في دار رعد دار زوجها الراحل كانت لم تتجاوز العشرين من العمر.

ترعى يتيمين بمفردها هجم الطامعون في الارملة الشابة يتقدمون لطلب الزواج منها ... قال ابو عودة:

-جَمَلْ مطرح جَمَلْ بَرَخْ.

كما طلبها للزواج ابو محمود (الجرن) و ظل يلح في الطلب و طلبها آخرون و هى تواصل رفضهم جميعا فابتدأ الاضهاد و سوء المعاملة كان بوسعهم الاستبداد بها و لكنهم لم يتمكنوا من كسر عزمها على ان تنذر حياتها كلها لطفليها اليتيمين خالي عا و سكينة أمي.

عاشت ستي ام عطا اكثر من تسعين عاما و في سنواتها الاخيرة فقدت البصر و توفيت عام ١٩٨٧... كانت خفيفة الظل و لها اسلوبها الخاص في كل ما تقول.

ذات يوم كانت تجلس في ركنها المعهود في المنزل و كانت ام طلال في بيتنا ترعاها في فترة سفر والدتي للعلاج و فجاة و بدون مقدّمات قالت ستي لام طلال:

-افتحي البرندة يا رتية.

- ليش يا ام عطا؟

- بدي ارمي حالي و اخلص منكّ!

عندما أقمت مع اسرة خالي عطا في الكويت و كانت معنا في ذلك الوقت كنت اقف وراءها و هى تصلي دون ان تراني .

و عندما تميل بوجهها في ختام الصلاة قائلة "السلام عليكم" أفاجئها بقبلة على خدها فتنتفض لتضربني قائلة لي و هى تلمح الى علاقتي برضوى و نيتّي في الزواج منها:

- روح بوس المصريات صاحباتك!

ستي لم تتزوج ابدا منذ وفاة زوجها... رحلت عن الدنيا اثناء اقامتي في بودابست.

في يومها الاخير..

جلس الموت في حضنها

فحَنت عليه، و دَلّلتْه

و حَكت له الحكاية

و ناما في وقتٍ واحد.

و كالعادة كنت بعيدا و لم اشارك في وداعها الاخير.

هذه ايضا صورة من صور رجال المضافة.... انها حياتنا و حياتهم بما لها و ما عليها و من حقنا ان نحياها و ان ندافع عنها . نعم عن هذه الحياة التي تقسو احيانا و تخلو من أيّة مثالية.... هذه صورة من صورنا ايضا ستي التي انتقلت من "دار عبد العزيز" للتزوج في "دار رعد" تعامل كغريبة تعامل كوافدة من شعبٍ آخر! من كوكبٍ آخر! رغم ان المسافة بين الدارين هى صف من شجر اللوز لا يزيد عن مائة متر.

هذه صورتنا ايضا ستي التي كان مولودها الذكر سببا في منحها حق البقاء في دار زوجها بالغت اشد المبالغة في الاهتمام به على حساب ابنتها الانثى و لكنها في كل الاحوال كانت مغلوبة على امرها تماما و بالتأكيد اضعف من ان تتمسك بحق البنت في التعليم و السفر في رام الله.
بعد ان تجاوزت الخمسن في العمر التحقت امي بمدارس الكبار لتروي عطشها للعلم و التعلم... و نقلت لنا درسها الكبير و هو ان اعظم قيمة في الحياة على الاطلاق هى العلم أي تعليمنا نحن و انه يستحق التضحيات كلها.

كانت فدوى طوقان في زيارتنا في عمان و اهدتنا كتابها "رحلة جبلية ، رحلة صعبة" و كانت امي اول من قرأ الكتاب بعد ان انتهت منه فوجئت بها تقول لي:
-أنا رحلتي اصعب ... فدوى طوقان ما شافت اللي انا شفته يمّه.
في سنواتي الجامعية كنت اشعر انني اتعلم من اجلها فقط ... اي من اجل ان اراها سعيدة كنت استحى من الفشل حتى لا اجلب لها التعاسة وزاد من ذلك الشعور انها اختصرت معاني حياتها في معنى واحد هو نحن اولادها الاربعة اما كل الاخرين فتحبهم على قدر محبتهم لنا اولادها هم العالم و كان هذا من العيوب التي تراها هى ميزة.
لا تتحمل سفر واحد منا الى أي مكان و المفارقة الموجعة اننا جميعا سافرنا بعيدا و سافرنا طويلا... أمّا أجملنا و اغلانا فقد سافر بلا عودة سافر الى الابد و كان عليها ان تتحمل.
كانت ترتب في خيالها عالما مرتبا يريحها عالما تتم الامور فيه كما تهوى بالضبط و على الطريقة التى تفضلها
كأنها تود الخروج الى كوكبٍ يخصها وحدها
تودُّالخروج الى كوكب خارج الارض
حيث تعج الممرات بالراكضين الى غرفةٍ من سواها
و حيث الاسِرَّة في الصبح فوض،
و كل المخدات تصحو مُجعلكة،
قطنها غائضٌ في الوسط.
تريد اكتظاظ حبال الغسيل و أرزا كثيرا تفلفله للغداء
و ابريق شاي كبيرا كبيرا يفور على النار عصرا
و مائدةً للجميع،
مساء، ينقط مفرشها سمسمُ الثرثرات.
تريد لشهقة رائحة الثوم في الظهر ان تجمع الغائبين
و يُدهشها ان بامية الام أضعف من سطة الحاكمين
و ان فطائرها في المساء

تجف على شرشفٍ لا تنطنط فيه الايادي
و هل تسع الارض
قسوة ان تصنع الام فنجان قهوتها، مفردا،
في صباح الشتات
تودُّ الخروج الى كوكب خارج الارض
حيث الجهات جميعا تؤدي الى مرفأ الصدر
ملْ خليج الذراعين
تستقبلان و لا تعرفان الوداع
تريد من الطائرات الرجوع فقط!
و المطارات للعائدين
تَحُطُّ بها، ثم لا تُقْلِعُ الطائراتْ!

و الحب عندها شغل انتباه ان تنتبه لمن تحب ان تتعب من اجله ان تصنع بيديها و بجهدها كل ما يمكنها ان تصنعه من تدبير شؤون العمر من اتقان المخللات في موسامها الى الخياطة و التطريز و استخدام المتروكات القديمة في صنع مُبْهراتٍ جديدة (نجّدت بيديها مقاعد صالون قديم لا تصلح لشئ فقامت بعمل نجار و منجّد و مصمم معا و أعادتها جديدة!).

الى اشرافها المضني وحدها على بناء بيت يصلح لإقامة الجميع مع زوجاتهم و اولادهم فتناقش المهندسين في خرائطهم التي تدوخ العين من التحديق فيها قال لي المهندس المشرف على بناء البيت انها اعترضت من واقع الخرائط على مكان المطبخ!
- المطبخ المرسوم في الخارطة راح يكون معتم خلّوه شرقي مش غربي، بدّي تغيروا مطرحه.
و قال لي :
- غيرنا المطبخ فعلا و كان عندها حق.
كما رايت بعض المحترفات الحزبيات و الواحدة منهن تلوك الجمل الثورية و تسمعّها تسميعا ازددت ايمانا بثورة العمل المادّي الذي تنجزه امهاتنا في حياتها اليومية دون ضجة و دون تنظير.

عندما قرات سيرة حياة "جياكومتي" اذهلني حديث "ايف بونفوا" عن والدته و دورها في حياته، كانت السيدة أنيتا جياكوميتي ذات شخصية قوية و ساحرة:
" كانت هى المركز هى الحارس المتنبه و الصامت. تصون تقاليد حياةٍ بأكملها بمجرد وجودها فقط. هى مصدر قوةالاسرة كاملها ، هى التى تعرف الاشياء تقرر الحقائق، تُميَّز القيم و تحدد ما الذي على المرء ان

يحتاجه و ما الذي عليه ان يقرره هى التي تعبّر عن وجهة نظرها فتصبح في معظم حالتها أمرا يجب ان يطاع سواء في الشؤون اليومية او في المآزق و الازمات الكبرى".

في امي كثير من هذه الصفات بالاضافة الى جمال مستقرّ يتناسب مع سنواته، و مقدار الانثوية التلقائية المختبئة بهدوء و المتوارية حتى عن وعي صاحبتها.
لكن رغبتها في بسط الحماية على الجميع تعكس رغبتها في ابقائنا اطفالا اطول فترة ممكنة!
و هى عنيدة عنادا كان يثير اعجابنا احيانا لكنه في احيان اخرى كان يثير التعجب... اسلمها ابي مقاليد المنزل وادارة شئون حياتنا ترك لها كل القرارات الحاسمة و الجوهرية و اكتفى بالموافقة ... كان يكبرها بخمس عشرة سنة.. ابي هادئ الشخصية الى حد لم يستع معه مجاراة ايقاعها الناريّ و مبادرتها الفوّارة و ساهمت طيبته الفائقة في معاملتها بسماحة و اقرار كان يرى ان الصواب هو ما تقرره هي.
انه لم ينل لقب "الحنون" عبثا فقد كان وديعا و كان بصبره الهنديّ مقتنعا بالحياة كما هى... أما امي فلا حد لطموحها.... ما لم تتمكن هى من تحقيقه تتوقع ان يحققه اولادها و مالم نحققه نحن تتوقع ان يحققه احفادها و هى على ثقة دائما ان " المرء يستطيع اذا اراد".

و ما تزال الى الان و قد تجاوزت الخامسة و السبعين من العمر روحا متمردة على كل تزمّت اجتماعي و لا تكف عن العمل في المنزل و حديقته الصغيرة تزرع و تسقي و تبني الاسوار الصغيرة و تنقل بيديها الحجارة التى تحتاجها لبناء مدّرج صغير هنا او تخطيط برواز لحوض او قوّار الا و يعيش و ينمو "و يفرعن" و عندما تحدثك عن اشجارها في الحديقة تقول لك:
- هذه الشجرة "جاهلة" .
أي انها ما تزال اصغر سنا من ان تثمر.
او تقول :
- شجرة "هبلة".
عندما تكون كبيرة و يتاخر إثمارها .
كلما زارنا ضيف عزيز قدمت له شتلة من الريحان او العطرة او الدوالي او السجادة او الجاردينيا فاذا ذبلت في بيوتهم اعادوها لها كي ترعاها و " تعالجها" فتنمو بالفعل مرة اخرى... كان لستي ام عطا شقيقة وحيدة تزوجها الخال ابو فخري.... ورثنا حبه و التعلق به لانه وقف بكل طاقته الى جانبها و قدم لامي و شقيقها حنان الاب دون تسلط الاباء اخذت ستي طفليها و اقامت مع شقيقتها ام فخري و كان هو الذي يرعى الاسرتين و يتحمل مسؤلية الجميع في الحلوة و المرة.

استيقظوا امامي بحكاياتهم الرائعة بحكاياتهم الشريرة اقصد في الوقت ذاته، كانوا ابناء خصالهم و زمانهم... كنت اراهم في حلقة الدبكة متشابكي الاكتاف يرفعون كوفياتهم البيضاء لتموج عاليا في هواء الساحة القاسي منهم و الحنون الكريم منهم و البخيل يرقصون على بحّة شبّابة القصب فرحين بشاب يزوّجونه او بعروس تدخل قريتهم متشابهين متوازين كأسنان المشط.

و كان علينا ان ننتظر طويلا قبل ان تعلمنا الحياة عبر رحلتنا الطويلة باتجاه الحكمة و الحزن انه حتى اسنان المشط لا تتشابه في الواقع!

**انتهى الجزء الخامس.**

## الجزء السادس

### عمّو بابا

في الصباح ذهبت بصحبة "ابو حازم" لنتفرج على دار خالي "ابو فخري".

- شو بدكم؟

صاح بنا شاب أطل علينا من شرفة بناية مجاورة.

أجابه أبو حازم:

- هذه دار قرايبنا.... بدنا نشوفها مش أكثر.

استوقفنتني إجابة الشاب عندما قال :

- لكن إحنا معنا عقد ايجار رسمي!

الطوابق الثلاثة ذات الاقواس ، الحجر الابيض المدقوق حديقة الليمون الصغيرة بجوار الدار ببوابتها الحديدية اللطيفة كلها مكسوة بالصدأ من الواضح ان يداً لم تمتد لصيانتها من ١٩٦٧.

- تفضلوا.

أضاف الشاب شكرناه و غادرنا المكان.

ارتيابه بنوايانا امر مفهوم الكل خائف على ما لديه هنا كثيرون سجلوا ممتلكاتهم في البلاد بأسماء اقربائهم حتى لا يصادرها الاحتلال بحجة انها املاك غائبين هكذا تم انقاذ الاراضي و المنازل الفلسطينية التي يعمل اصحابها في الشتات.

هكذا تم الاعتناء بغراس الزيتون و رعاية التربة من حراثة و قلب و ثني و تمشيط و تعشيب وريّ الخ. ولولا الثقة المتبادلة بين المغادرين و المقيمين لصادرت اسرائيل كل شئ.... و للحقيقة فان بعض الافراد من الطرفين كان يتصرف في هذه الدنيا على اساس ان عودة الغائب معجزة لن تتحقق.

زَهَدَ بعض الغائبين في متابعة شؤون مستحقاتهم و ممتلكاتهم... و زَهَدَ أهل الداخل في الايفاء بتلك المستحقات احيانا... و الى جانب قصص الوفاء الباهرة و التزام المقيمين بحقوق الغائبين دون تعهدات مكتوبة او توكيلات قانونية الا ان القليل منهم استولى بالفعل على ما اؤتمن عليه و يرفض الان ان يعيده لصاحبه الاصلي (الحياة تستعصي على التبسيط كما ترون) هناك عدد قليل من المقيمين يخشى مطالبة العائدين بما كان لهم قبل الاحتلال من زيتون و بيوت او شقق أُجِّرَتْ بارخص الاسعار لمجرد بقاء السكان فيها كنوع من حمايتها.

اذهلني ابو باسل الذي جاء للسلام عليّ،من انه كان سجل بيته و ارضا له باسم اخته اثناء عمله في السعودية و عندما حصل على لمّ شمل و عاد الى دير غسانة اكتشف ان شقيقته سجلت البيت و الارض باسم ابنائها هى و لم يجد لنفسه مكانا يقي فيه. لا احد يرضى ان يلجأ لمحاكم الاحتلال ايا كان السبب و مهما كانت الخسارة لكن الضغائن تتزايد بين افراد العائلة الواحدة هذه الايام.

منذ بدا البعض في الرجوع الى فلسطين بعد الاتفاقية مباشرة سمعنا عن حالات مماثلة لحالة ابي باسل حتى انني مع بعض الاصدقاء قررنا ان الوضع يغري بكتابة مسرحية فكاهية حول تبدّل مصائر بعض الناس الذين نعرفهم نتيجة للوضع الجديد و اخذ كل واحد منا يضيف سطرا الى ما يقوله الاخر:

- يعود فلان الى دير غسانة و يطالب ابن عمه باعادة حقل الزيتون الذي كان يعهده مقابل اجر معلوم.
- لكن صاحبنا الذي ذاق طعم الملكية لثلاثين عاما و استحلى مذاقها يقول له بهدوء:
- لاشئ لك عندي بلّط البحر او اضرب راسك في الحائط ان شئت؟
- سكتة قلبية على الفور.
- الزوجة تشاهد زوجها ميتا فتجنّ.
- الاولاد يرون امهم جنت لموت ابيهم فيقتلون ابن عمهم.
- العم العجوز يرى هذه المجزرة الشكسبيرية في دير غسانة فينتحر بصفيحة كاملة من الكاز يدلقها على راسه.
- الكاز ينتشر الى اركان البيت فالبيوت فالمضافة فالضيوف فالبيادر القريبة دير غسانة تحترق.
- على وزن باريس تحترق!
- خيالك واسع

قال ابو عوض و نحن نلعب الورق في ليلة اغلق الثلج فيها عمان و صاح:

- طرنيب!

و سالني:

- صحيح انكم كنتوا تلعبوا طرنيب في بيروت؟ في عز الحرب الاهلية؟
- نعم صحيح .... قلت له.
- و الله ما بتستحوا.... طرنيب؟

بالفعل لا نجد ما نفعله في ليالي القصف و حواجز الطرقات و الذبح على الهوية سوى لعب الورق اقول للدرهللي و انا ارتب اللآس البستوني الذي يعتز به :

- يا عيني على ستي ام عطا لعلها الان تنظر الى السماء في صلاتها و تدعو : الله ينصر مريد ابن سكينة و يحميه من اولاد الحرام مطرح ما يكون بحق جاه الله و المصطفى!

فيرد الدرهللي قائلا:

- لعل امي تقول يا ترى الدرهللي دفيان؟ يا ترى عايش هناك؟ عنده غطا بهالبرد ؟ الله يحميه و ينجيّه.... الله يحمي الشباب كلهم.... افتحي لنا هالراديو يا فاطمة تنسمع اخبار الشباب.... طرنيب!

الحروب الطويلة تولد السأم ذات ليلة تباريت مع رسمي ابو علي في تعداد كل المرادفات الشعبية في اللهجات المختلفة لكلمة " صَفَقَهُ" أي ضربه بالكف كانت الكهربا مقطوعة طبعا و كل واحد منا في سريره يخاطب الاخر دون ان يراه.

لم نترك كلمة الا تذكرناها يقول لي تصبح على خير و نسكت لثوان فاذا بأحدنا يتذكر مفردة طازجة فيرفع اللحاف عن وجهه بحركة مظفرة و يصيح بالاخر: " سَنُّه كَفّ" مثلا و تبدا دورة جديدة الاجتهاد مرة اخرى.

كنا قد اتينا في تلك الليلة على جَبَدُه و قَهَدُه ورزَعُه و لاحُه و شَقّه و سَنَدُه و لَقُّه و لَطّه و رَنّه و سَفَقُه و نَدَفُه و زاحُه و هَبَدُه و رَقَهُ و لَخّه و فَقَعُه و طَجُّه و مَزَعُه و شَمَطُه و ناوله الخ.

كان يشاركني الشقة جرذ هائل الحجم لم تنفع معه كل حروب الابادة التي خضتها ضده و الشقة بلا تدفئة و لا سجاد كان الموهيبونفي تدبير امورهم الشخصية دائما يقيمون في شقق فخمة لها مصاعد و مولد كهرباء احتياطيّ... لكن التوتر كان من نصيب الجميع...

شقيقيي الاصغر علاء الذي يسكن في منزل الطلبة التابع للجامعة الامريكية و يُنهي عامه الاخير في كلية الهندسة من الصعب ان اراه يوميا اذا زارني حملت همّ عودته الى الحمرا و اذا زرته كرهت ان احمله هم عودتي الى الفاكهاني.... فهيم ابن خالي عطا اصابت راسه شظية في الشيّاح بعد مغادرتي بيروت و استشهد بعد اصابته بايام... لم يتجاوز العشرين الا بسنتين... فيما بعد علمت كيف اطلعوا خالي على الخبر...اتصل به علاء تلفونيا من بيروت و كان خالي في الكويت قال علاء محاولا تخفيف الخبر و تمهيد خالي لتقبله بالتدريج:

- يا خالي انا بتصل من شان اطمنك على فهيم صابته رصاصة طايشة امبارح بس الحمد لله الدكاترة طمنونا و ان شاء الله بيقوم بالسلامة.

فاذا بخالي يقول بكل هدوء:

- وين دفنتوه؟

شقيقتاه الهام و نجوى و شقيقه محمود و شقيقي علاء وضعوه في تابوت و حملوه بالطائرة الى الكويت حيث دفنوه في مقبرة الصليبخات هناك.

امهرست ،ماساتشوستس في الولايات المتحدة ...كنا نستعد لسفر قصير تلبية لدعوة من البروفسيور سيدني كابلن (كان يصر على ان اناديه سِد) الى العشاء احتفالا بحصول رضوى على الدكتوراه باشرافه عندما رن جرس الهاتف في شقتنا.

جاء صوت منيف موجزا جدا:

- فهيم استشهد اليوم في بيروت.

منيف يتحدث من قطر معي في امريكا عن استشهاد فهيم في بيروت و دفنه في الكويت و ضرورة تبليغ ستي ام عطا في دير غسانة وجدته لامه في نابلس وامي في الاردن و رضوى و انا نؤكد حجزنا عبر روما الى القاهرة.
الجميع في غاية اللطف معنا العشاء الذي اعدته إيمّا يعكس اجتهادها الاستثنائي لاعداد عشاء انيق يليق بغرباء... الجو عائلي دافئ و الحديث سلس و حميم رضوى على حق مع الاصدقاء تخف وطأة الحزن ... تسللت الى دورة المياه في بيت كابلن بذلت كل جهد ممكن لكتم الصوت المصاحب للقئ...

و لم يكن كل شئ محزنا في تلك الأمسية و لا في فترة أقامتنا الأمريكية...كان التعرف إلى الكتّاب الأفارقة و الافروامريكيين مناسبة لمعرفة النموذج الاقرب لاجوائنا و همومنا الثقافية و السياسية كعرب و هو الجو العفيّ المناهض لمؤسسة الامريكية المهيمنة.
في بيت ثلويل تناولت افضل و اغرب إفطار تناولته في حياتي دعانا رضوى و أنا صباحا و كان إفطارنا الذي أعده بنفسه... فهو طباخ ماهر عبارة عن شرائح من المانجو المقلية و شرائح من السمك المشوي بالاضافة الى الاجبان و القهوة.
على تلك المائدة تعرفنا بستوكلي كارمايكل مؤلف كتاب "القهوة السوداء" كما عرّفتني رضوى على تشينوا آشيبي الروائي النيجيري صاحب الرواية البديعة "الأشياء تتداعي" و زوجته.... و كان أشيبي يلقى محاضراته في الجامعة في تلك الأيام...أما الشاعر جوليوس ليستر فقد ترجم بالاشتراك مع رضوى قصيدة طويلة لي عنوانها " سعيد القروي و حلوة النبع" على العشاء في بيت كابلن و كانت رضوى عرضت عليه ترجمة القصيدة.... قال أنها "ويتمانيسك" فقالت زوجته أن هذا اقصى ما يستطيع سِد ان يمتدح به قصيدة فهو يعبد والت ويتمان.
شعرت بالزهو آنذاك طبعا....و أن كنت بحساسيتي الراهنة أرى أن القصيدة لم تكن تستحق ذلك الثناء على الإطلاق!

في تلك الليلة في بيت أبو حازم حاولت أن أحصى قبل النوم عدد البيوت التي عشت فيها فوصلت الى رقم الثلاثين....

على البرندة اخبرتني فدوى ان ام خليل ستاتي للسلام علىّ بعد انتهاء عملها و ان ساجي هنا و سيحضر معها ايضا و اضاف ابو حازم ان بشير البرغوثي اتصل هذا الصباح ووجه للجميع دعوة للعشاء في بيته اتصلت ابنتها سوسن من عمان و اختها ليلي من امريكا .التيلفون ...بعد انقراض زمن الرسائل هو الرابطة المقدسة بين الفلسطينين!

في الضفة الغربية و غزة تطور التيلفون فأصبح بيلفونا محمولا و متنقلا في جيوب مسؤولي السلطة الوليدة بشكل يثير استفزاز المواطنين العاديين....انهم مستفزون رغم علمهم ان الخطوط العادية غير متوفرة في الضفة الغربية و غزة و ان في هذه المسالة نوعا من انواع الاضطرار...غير ان قرائن اخرى تساهم في اثارتهم ... نوعية البيوت التي يشتريها الوزراء و الوكلاء و المدراء العامون او حتى تلك التي يستاجرونها باسعار عالية... السيارات الفخمة التي يركبونها و مظاهر سيادتهم الشخصية التي لا تتناسب مع غياب سيادتهم الوطنية و لا مع مظهر سيادة الفلسطينيين عموما ضمن ترتيبات اوسلو العجيبة.

كلما كانت قناعة النفس اصيلة ظهر الناس الى الجانب العملي في وظيفة السلعة فالمسايرة عند البعض منزلة شخصية و عند البعض الاخر حذاء يستخدم لقطع المسافات و ينقلنا من مكان الى آخر.

آخر مظاهر القوة و علوّ المكانة عند المحدثين الى العرب هو البيليفون!

في بيروت كانت الابهة تتجلى على إلْيَةِ الشخص حيث يتدلى المسدس من حزام مراهق الحرب الاهلية و الصحفي و الكاتب و الموظف و عضو الحزب او الفصيل الخ.

اما السيارات فيبدو ان لا شفاء من سطوتها الان او في المستقبل خصوصا و الاضافات فيها تتطور سنويا: فهل يستوى الذي في سيارته "بالون هوائي" و الذي تخلو سيارته من البالون؟ و هل يستوى الذي لديه سائق و البائس الذي يسوق سيارته بنفسه؟

كل هذه التداعيات التى هى خارج الموضوع (ما هو الموضوع؟) مرت في جزء من الثانية تمهيدا فيما يبدو للمثل المغربي الذي اسمعته لفدوى و "ابو حازم" على "البرندة" و الذي يقول : (الله يرحمنا من المشتاق اذا ذاق!)

بعد الظهر وصلت ام خليل و ساجي ... ساجي زميل الدراسة في القاهرة لكنني لم اذكر اني التقيت به الا مرات قليلة هناك ؤغم اننا في نفس الجامعة و نفس الكلية و في قسم اللغة الانجليزية و آدابها ايضا! كان يخصّص معظم وقته آنذاك للعمل السياسي و الطلابي ... ساجي خُلِقَ للسياسة كان مهتما باتحاد الطلبة و الحياة الحزبية السرية آنذاك و لم اكن اجاريهم في ذلك.

لم أُعِرْ للعمل السياسي ادنى اهتمام ايام القاهرة و لم اكن ادرك اهدافهم و مراميهم كنت ادرس المواد المقررة بسعادة و استغراق ... منها تعرفت على تشيكوف و اليوت و شكسبير و بريخت و الحضارة اليونانية و عصر النهضة و مدرسة النقد الجديد الخ. تخليت لاول مرة عن كتابة الشعر العمودي و بدأت اجرب كتابة قصيدة التفعيلة.

كان منيف يحول لي من قطر حيث يعمل ما قيمته ثمانية عشر جنيها مصريا شهريا... ادفع منها تسع جنيهات للسكن و بالتسعة المتبقية استطيع ان أفي بالضرورات المعيشية و ان أذهب الى دار الاوبرا مساء كل يوم سبت للاستماع الى أوركسترا القاهرة السيمفوني (كانت تذكرة الدخول بتسعة عشر قرشا) و ارتياد المسرح القومي و

المسارح الأخرى... و قد كتب لي في رسالته الأولى بعد التحاقي بالجامعة انه يريد ان لا احول الدولارات التي تصلني منه الا في البنوك الرسمية المصرية:
- اذا علمت يوما انك تحول نقودك في السوق السوداء فستعود الى رام الله فورا انك الان في اول شبابك واذا بدات حياتك بالتواء فلن تستقيم ابدا.
كان منيف عندما كتب لي هذه الرسالة في الثانية و العشرين من عمره فقط!.

كنت في سنوات دراستي الجامعية أحدّث بعض زميلاتي و زملائي عن "اخوي الكبير" منيف و اطلعهم على بعض اخباره التى تصل في رسائله المنتظمة الىّ وذات مرة اطلعت رضوى على صورة له فكان تعليقها المباشر:
- الله! بس ده وَلَدْ! و انت بتقول اخوي الكبير اخوي الكبير! افتكرته راجل عجوز ده قدّك و شكله اصغر منك!
و بعد ذلك بسنوات عندما تزوجنا و تعرفت اليه تعزز احساسها بعذوبته و فولته المحببة ... منيف كان يكبرني بثلاث سنوات فقط فقد ولد في اريحا عام ١٩٤١ وولدت انا في دير غسانة عام ١٩٤٤.
"أخوي الكبير" كان لفظا يعكس دوره و نضجه الانساني و مسؤوليته التى كانت اكبر من عمره.

لابد ان اعترف بعدم اهتمامي في تلك الفترة بالسياسة انا الفلسطيني ابن النكبة ذهبت مرة او مرتين الى مناسبات سياسية دُعيت اليها كطالب . و كان ذلك في مقر الاتحاد العام لطلبة فلسطين في شارع جواد حسني لكني شعرت انني لا انتمي لتلك الاجواء مطلقا و انني لا اصلح لها و لا تصلح لي ... لم أكرر التجربة.
و بعد ذلك بسنوات و مع تطور الاحداث ووقوع الهزيمة و بزوغ فصائل المقاومة المتعددة ادركت ان سنوات التكوين السري لمنظمات الكفاح الفلسطيني المسلح من فتح و حركة القوميين العرب و غيرها و ان ذلك يتم في اطار اتحاد الطلاب. و ان اؤلئك الطلبة الذين كانوا يدعونني الى انشطتهم السياسية بحذرٍ و حصافة كانوا يقومون بامور عظيمة الاهمية و لابد انني كنت اما ساذجا في نظرهم او جبانا و أسفت كثيرا على صورتي تلك.
و حتى لو كنت ادركت طبيعة ما يقومون به هل كنت يا ترى سألبي توقعاتهم و انخرط معهم؟ لا ادري.
من العيوب التي يمكن لوم والدتي عليها هى انها علمتنا الحذر المبالغ به من التعرض لاية اخطار مهما كان نوعها لدرجة اننا لا نعرف الى اليوم ركوب البسكليت كانت تخشى سقوط احدنا عنه و التسبب في كسر يد او رِجْل.
بعد ذلك كنت انظر لاؤلئك الزملاء و الاقرباء الذين اصبحوا فدائيين انهم خُلقوا بحيث يصلحون للبطولة بينما لا تتوافر لدي مُقوّماتُها . لابد انهم نوع افضل من البشر.
ساجي واصل عمله السياسي و اصبح عضوا في المكتب السياسي في الجبهة الديموقراطية بعد ذلك والدته الخالة ام خليل سمع بها العالم عندما رشحت نفسها لرئاسة السلطة الفلسطينية منافسة وحيدة للرئيس عرفات.

اتفقنا ان أزور في الصباح مقر جمعية انعاش الاسرة التى ترأسها... و اتفقت مع ساجي ووليد ان نخرج معا في جولة مسائية في رام الله في اليوم نفسه.

في المساء ذهبنا للعشاء في بيت بشير البرغوثي.

- طريق اوسلو قد تقودنا الى الاستقلال و قد تقودنا الى الجحيم.... و علينا ان نطور اداءنا في كل شئ اذا اردنا ان نتجنب المصير الثاني.

يقول بشير.

انه يملك معرفة جيدة بالاوضاع الجديدة فهو مقيم في البلاد و رئيس مجلة الطليعة و الامين العام لحزب الشعب السياسي الفلسطيني و اصبح قبل ايام وزير الصناعة في السطة الفلسطينية الوليدة.

لبشير وجه متامل هادئ و هو في العادة قليل الكلام و لكن لا مفر في مثل هذه السهرات من استعراض شريط فكاهات ظرفاء دير غسانة و كان في السهرة زوجته و ابنهما نبيل و اختها نهى زميلة ايام المدرسة في رام الله و ابناؤها انيس و حسام و ابو حازم. لم أر نهى منذ ال٦٧ لكنني اسمع عن نشاطاتها التطوعية من فنديات و اوروبيات من جنسيات عديدة شاركنها بعض النشاطات التطوعية في البلاد.

في صباح الوم التالي جاءت مليحة النابلسية التى كانت جارة لنا في عمارة الحاجة ام اسماعيل مع اثنين من من اولادها الثمانية.

قلت لها:

- ارتحتِ من جرجرة اليهود للاولاد الى المعتقلات يا حجة مليحة.

- الحمد لله يا ابني و الله زهقت يفرجو عن واحد و يحبسو اثنين و روحي يا مليحة اسالي في أي معتقل و أي بلد حطوهم و مسموح بالزيارة و لا مش مسموح بالزيارة. الروماتزم اهلكني بعيد عنك بس بيني و بينك ايام الانتفاضة كانت الدنيا احسن شو رايك؟

- بالفعل كانت الدنيا احسن.

- بالك بدهم ينسحبوا عن جد؟ و الله هذا نتنياهو لا بتعرف تاخذ منه لاحق و لا باطل هذا ملعون والدين انتو بتعرفوهوش.

و لما سالتها اذا كان بيريز احسن منه اشاحت بيدها:

- الاثنين انحس من بعض.

ثم اضافت بعد تردد راجع لحيائها مما ستقول:

- كلهم اولاد حرام.

لمليحة ثمانية اولاد استشهد ابوهم في ثاني سنة من سنين الانتفاضة و هى في عزها.

- نشكر الله ان انه استشهد في اولها كنا متحمسين معنوياتنا في السما فوق الريح تحملت موته قلت زيه زي غيره لو مات في اواخرها كان فقعت و طقيت .مسّخوها في الاخر يا بنّيي.... و الله العظيم لعبوا فيها عن قصد و لغوصوها من شان الناس تنبسط على توقيفها.... شو رايك؟

و لما قلت لها ان المنظمة تدفع مساعدات مالية لاسر الشهداء سارعت بالقول:

- المنظمة مش مِنْتِظْمِة. شهر بيدفعوا و عشرة لأ بيقولو الدول لا تساعدهم الله مع الجميع كانوا بيعطوا خمسين دولار في الشهر لما يكون معهم مصاري مستورة و الحمد لله.

من اكثر ما يسبب الحرج ان يزدحم بيت المُضيف بضيوف الضيف الذين ياتون للسلام عليه البعض بدافع عن الواجب و البعض بدافع المحبة ... "على قلبي زي العسل" كان يقول ابو حازم و تثنى على كلامه فدوى ... بعض الاصدقاء كان ياتي للسلام على قرب منتصف الليل احيانا و كنت أُحْرَجُ من اضطرارهما للسهر الى ابعد مما اعتادا .

كان لابد من مناسبة لطرق موضوع الفنادق اصلا دون ان اتسبب في جرح احساس ابو حازم... حانت الفرصة عندما اردت ان اركب تاكسي لاذهب الى "فندق رام الله" للقاء محمود درويش الذي وصل من عمان في اليوم السابق.

قلت له:

-لو وجدت غرفة في الفندق يا "ابو حازم" فسيكون ذلك افضل لي و لبرامجي الملخبطة و المرتجلة التي يصعب تنظيمها بشكل يريح الجميع.

انهيت جملتي فجنّ جنون فدوى و ابو حازم معا ... و تأتّى علىّ انا ان اعتذر لهما لمجرد التفكير في ذلك.

ذهبت بالتاكسي و التقيت بمحمود و تحدثنا في امور كثيرة بينها احتمال عودة مجلة "الكرمل" للصدور من رام الله بعد ذلك ذهبت الى موعدي مع ابو خليل في جمعية انعاش الاسرة.

انهيت جولتي في اقسام الجمعية ،تفصيل تطريز يدوي حِرَف تعليب و تغليف و اعداد الاطعمة بنات و ابناء الشهداء و المعتقلين و الاسرى يتعلمون هنا ان يعملوا و يعيلوا اسرهم.

السنارتان في اليد تتحركان براسيهما الفضيين بالايقاع ذاته و بالسرعة ذاتها الى تتبادل بها عصفورتا الحُب قبلاتٍ مستعجلة و فرحة.

سنارتان تسحبان خلفهما خيط رائع اللون تريدان الفرار منه او كانهما تريدان الفرار منه و لا تفران الا الى رقعة الكنزة البديعة التكوين او المفرش الصوفي البهيج الالوان او الشال الذي يحمل دفء الجسد و زينة الاكتاف.

اصابع الفتيات في جهة اخرى تتنقل بالابرة التى تمزج اللون باللون و الغرزة بالغرزة لاسابيع متصلة حتى تتخذ شكلا يتكامل كل يوم و يتكاثر على القماش الذي يطالب بالمزيد الى ان يخرج في نهاية العمل ثوبا فلسطينيا مطرزا بعشرات الالاف من الوحدات الملونة بالوان هى الدهشة ذاتها.

منحوتات من خشب الزيتون من الفضة من الشموع من الزجاج مرايا باطارات مطرزة ملابس للاطفال و الرجال و النساء مطبخ ضخم ينتج مئات الوجبات من كل الاصناف لتوفير جهد الاسر التي يعمل طرفاها خارج البيت ... بيانو عود ناي دبكة اناشيد فرق رقص تعبيري اغاني ريفية و شعبية و انشطة تربوية عديدة اخرى.

منذ اكثر من ثلاثين سنة و الجمعية تساعد من يحتاجها و تحصل على ميزانيتها من التبرعات التى يقدمها الاثرياء و رجال الاعمال الفلسطينيون و العرب و بعض المساعدات من بعض الدول العربية.

كانت ام خليل قد اسست الجمعية قبل سقوط رام الله في يد الاحتلال عام ١٩٦٧ بعامين او ثلاثة.

كانت جولتي قد بدات بمشاهدة متحف التراث الشعبي الفلسطيني الذي تستعد الجمعية لافتتاحه بعد ايام و انتهت في مكتب ام خليل.

ثم كانت المفاجاة اللطيفة قبل مغادرتي مقر الجمعية فرقة كورال الاطفال في الجمعية الذين خصصت لهم قاعة للتدريب و العرض رقصوا و غنوا تحيّة لي ترافقهم السيدة طرزي على البيانو كان المشهد مؤثرا و جميلا.

استقطب هذا الجهد الاهلي العريق اهتمام المجتمع الفلسطيني في البلاد كلها و ليس في رام الله و البيرة فحسب.

نجحت الجمعية في خلق فرص عمل كريم للمئات من المحتاجين و السهر على تنمية المواهب الفنية و الادبية لمئات الاطفال.... بدات الجمعية صغيرة و اخذت تنمو على مهل و بالتدريج فاتسعت مجالاتها و كبرت مبانيها و ما تزال نموذجا على جدوى النشاط الاهلي الذي يبادر به ابناء الواقع المحلي فهم ادرى الناس به و بظروفه و حاجاته المتغيرة باستمرار.

في المساء خرجت الى الجولة المنتظرة مع وليد و ساجي في ليل رام الله.... قبلها خرجت مع ابو يعقوب ووسيم في جولة سابقة و اصطحبني انيس و حسام اكثر من مرة كما تجولت وحدي في كل الحارات... كان من يرانا و نحن نتجول في شوارع رام الله او نتحدث على مائدة في احد مقاهيها يظننا شلة سعيدة من الاصدقاء لكثرة ما نحك بصوت عال .. المسالة اكثر تعقيدا مما تبدو عليه.

هذه اذا رام الله في التسعينات و ليس رام الله في الستنات.... لم اكن اعرف تفاصيلها المستجدة بدون شروحات الاصدقاء.

من الطبيعي ان يتغير شكل المدينة عن عين من فارقها طويلا....الاصدقاء منزعجون من انشار العمارات الاسمنتية الشاهقة في كل مكان.

رام الله بالنسبة لاهلها هى تلك البيوت المسقوفة بالقرميد المشمشي اللون و الحدائق المحيطة بها و المتنزهات ذات النوافير و شارع الاذاعة او شارع العشاق كما كنا نسميه باشجاره الباذخة على الجانبين و المطل على تلالٍ خضراء تنتهى في الساحل الفلسطيني الذي يمكن مشاهدة اضوائه بالعين في الليالي الصافية.

لم اشاركهم الانزعاج انها سنّة التطور و ثمن نمو المدينة.

بل ان نقمتنا على الاحتلال راجعة اساسا لكونه يوقف نمو مدننا و مجتمعاتنا و نمو اناقة الحياة عن طريق اعاقة سياقها الطبيعي.

في هذه الجولة و الجولات السابقة رايت معظم اماكني ... مدرسة رام الله الثانوية ملعبها مكتبتها التى قرات فيها كتاب الاغاني ممراتها باقواسها المتجاورة رام الله القديمة بطن الهوا كنيسة الله طريق نابلس جامع عبد الناصر ...المنارة... سالتهم عن منتزه نعّوم قالوا راح قامت مكانه عمارة عالية و محلات تجارية جديدة.

لم استطع التعرف على بيت فؤاد طنوس و عادل النجار و باسم خوري الذين تقاسمت معهم شقة واسعة في الدقي بالقاهرة في السنة الجامعية الثالثة و لكني عرفت بيت رامي النشاشيبي زميلنا الرابع لانه كان يسكن في نفس العمارة التي يسكنها عمر الصالح البرغوثي ومقابل دار خالي ابو فخري.

من الامور الجميلة في رام الله انها مجتمع رحب و شفاف نسيجه مسيحي اسلامي تتمازج فيه طقوس اصحاب الديانتين بشكل تلقائي بديع شوارعها و محلاتها و مؤسساتها كلها تتزين بزينة الكريسماس و راس السنة و رمضان و عيد الفطر و الفصح و الاضحى . رام الله لا تعرف اسئلة المذاهب و الطوائف و المعتقدات منتزه رام الله و بوظة ركب التي يحس بمذاقها الخاص بمجرد ذكر اسمها او مشاهدة حروفها مكتوبة على لوحة اعلانية.... الشرطة الفلسطينية تنظم المرور بكفاءة و تفُكّفِك اختناقاته عند المنارة قيل انه منذ تعطيل الاحتلال للبلديات اصبحت المدن شبيهة بالمزابل لكن النظافة عادت الان كما عرفناها دائما .. سمة من السمات المميزة لرام الله لكن الخضرة شحت لان اسرائيل تسرق المياه منذ ال٦٧... و رغم ذلك الخضرة تُقاوم.

حديث السياسة و التكهن بالتطورات لا ينتهى و سيظل كذلك الى حقب طويلة...السياسة تسربت الى منمنمات النفس الجوانية عند رجالنا و نسائنا منذ وقف المشروع الصهيوني يدق على زجاج نوافذنا باظافره الحادة ثم على الابواب التي ركلها ليدخل الى غرف الدار كلها و يلقي بنا الي الصحراء.

كنت متفقا مع مُحدّثي في ان الوضع ليس مبررا كافيا للمباشرة السياسية و الانكشاف الفكري في الشعر الفلسطيني لا في داخل الوطن و لا خارجه. و لا استغراب الجميع قلت ان الفكاهة و السخرية عنصران لابد منهما للكتابة العربية و الفلسطينية.

ان واقعنا الماساوي لا ينتج كتابة ماساوية بحتة...نحن في هزل تاريخي و جغرافي اصيل ايضا! أليس كذلك؟

الفنانون التشكيليون في الداخل تجاوزوا هذا المنزلق و قدموا نماذج ممتازة فنيا و جماليا دون التخلي عن املاءات الوضع العام و خصوصيته.... تكررت الشكوى من انعدام فرص الاطلاع على الكتب و الدواوين المطبوعة خارج البلاد و العزلة الثقافية العربية و العالمية و غياب فرص الاحتكاك بالكتاب العرب عموما.

للفلسطيني مباهجه ايضا له مسراته الى جانب احزانه له نقائض الحياة المدهشة لانه كائن حي قبل ان يكون ابن نشرة ابناء الثامنة!

في قصص الانتفاضة التي يتناقلها الناس هنا تلتقي هذه النقائض احد الظرفاء من دير غسانة عرفناه منذ الطفولة محروق الخد و كان يجادل حلاق القرية يوسف الجبين في دفع نصف الاجرة لانه يحلق له جانبا واحدا من وجهه فقط سافر الى الامارات لزيارة اقاربه هناك و اخذ يشرح لضيوفهم كيف ان وجهه احترق (في الانتفاضة يا خال!) كانت تلك طريقته في السخرية من اليقادات التلفزيونية التي "فبركوها" لتفرغ الانتفاضة الشعبية من محتواها.

اتذكر الان الفيلم التسجيلي الذي اخرجه الصديق انيس البرغوثي من قرية (كوبر) عن فلاحة رائعة من بطلات الانتفاضة من بلدهم اسمها فرحة.

يبدى لها الجندي دهشته من امر يتكرر بالفعل على امتداد سنوات الانتفاضة و هو انه عندما ترى النساء شابا مقبوضا عليه من قبل جنود الاحتلال يهاجمن الجندي و تصيح اكثر من واحدة منهن :

- إبني إبني اتركوا إبني!

صرخ الجندي في وجهها و هو يجرجر الشاب:

- روخي يا كذابة كم أم لولد واحد؟ مئة ام لولد واحد؟ إمشي من هون... ياالله.

صرخت في وجهه:

- ايوه احنا هيك الولد عندنا له مئة ام مش متل اولادكم كل ولد له مئة اب!

ظاهرة المرأة الفلسطينية في الانتفاضة تستحق التمجيد بلا تردد لكن قصتها الكاملة لم تكتب بعد.

يتحدثون ايضا عن تلك السيدة التى لجأ الى منزلها احد المطاردين الفلسطينيين اللائذين في الجبال .... عن الزراعة المنزلية و التكافل الاجتماعي و التضحيات اليومية الصغيرة التي تشكل العمود الفقري لما نسميه نحن المثقفين بالبطولة و الجراحات السرية التي يجريها المتطوعون لمصابي الانتفاضة حتى لا يعتقلوا في المستشفيات.

و الى جانب ذلك يتحدثون عن ظاهرة العملاء المتعاونين مع اسرائيل مقابل قروش زهيدة او امتيازات تافهة لان هناك مشكلة اسرائيلية من تدبير مصير لهم و لعائلاتهم و قد تعهدت لهم بذلك.

يتحدثون ايضا عن محاكمات نصف الليل الشفوية و المختزلة التى تقوم بها اجهزة الامن العام الفلسطينية احيانا و عن العمولات التجارية و الكسب المبالغ فيه و عن مظاهر الفساد الاقتصادي المرافق لعمليات اعادة التعمير و البناء لكن ضغط املهم عليهم (و الامل يضغط على صاحبه كما يضغط الالم) يجعلهم يضيفون في مناسبات كثيرة اثناء الحديث ان مثل هذه التجاوزات يعد طبيعيا و متوقعا ... في البداية الامل يقول لهم ان كل السلبيات ستنتهى بعد اجتياز هذه المرحلة الصعبة.

الناس مع هذا الحل و الناس ضد هذا الحل في الوقت نفسه.

الاغلبية التى منحت اصواتها لياسر عرفات اغلبية صحيحة و حقيقية.

لكنها اغلبية لها وعود تاريخية و هى تنتظر تحقيقها.

الدقيق ان المجتمع الفلسطيني كله في حالة انتظار الفلسطينيون لم يغمضوا اعينهم بعد.

ادهشني ان وسائل الاعلام الفلسطيني لا تعكس هذا الواقع على الاطلاق انها منهمكة بتغطيته بالزهور و لا ادري ان كانت الزهور مرتبطة بطقوس الحياة فقط!!

كان وليد يرد على تحية ذاك الشاب او تلك الفتاة من المارة الذين نصادفهم حيثما توجهنا ... انه يغني و يعزف على العود و يعمل في المسرح و هو لم يغادر رام الله ابدا.... هذه صبية في الفرقة المسرحية هذا شاب يتدرب

في فريق الرقص هذا جارنا السابق الخ الخ. تحدثنا عن قيمة ان يكون الكاتب او الفنان ابن محيطه ايضا .في ايامنا العجيبة هذه اصبح الكاتب يلهث وراء فُرَص الترجمة (للغات الغربية تحديدا) لترتفع قيمته المحلية!كانه يريد ان يقرأه الانجليز ليعرفه العرب!

المضحك هو المحزن هل يحدث ذلك يا ترى عند غيرنا من الشعوب الان؟

دور السينما معطلة و مغلقة الابواب منذ سنوات طويلة يافطاتها منزوعة و المناطق المحيطة بها مظلمة ... المكتبات لا تبيع الكتب تحولت الى بيع النثريات و الحلوى و الادوات المدرسية البسيطة... لوحات الارقام على السيارات مختلفة الاشكال و الالوان بعضها يحمل مختصرات عبرية و بعضها حروفا عربية و بالنسبة لوافد غشيم مثلي كان من الصعب معرفة مغزى ذلك كله.

تحدث وليد عن محاولاته المسرحية و ابو يعقوب عن عمله في وكالة الغوث و ساجي عن اعتزاله العمل السياسي و التحاقه بوظيفة في احدى شركات التامين بعد ان انهى دورة تدريبية في هذا المجال.

تحدث وسيم عن البيت الجميل ذي السقف القرميدي الذي رممته وزارة الثقافة و حولته الى مركز خليل السكاكيني الثقافي ... و الذي سيكون مقراً لفرق مسرحية و فنية و منتدى للكتاب و ستشغل مجلة الكرمل طابقا من طوابقه... و أخذوني لرؤية البيت.

شاهدت برامج التلفزيون الفلسطيني لاول مرة هنا... كنا طوال السنوات الماضية نصوغ المسميات التى نفتقدها كمشردين في بلاد الناس من باب الخيال:

الخطوط الجوية الفلسطينية،

الشرطة الفلسطينية،

التلفزيون الفلسطيني،

الحكومة الفلسطينية،الخ.الخ.

التلفزيون مبسوط من كل شئ! ككل التلفزيونات العربية! و كذلك الاذاعة.

سالني المذيع في مقابلة أُجْرِيَت معي في مقر الاذاعة الفلسطينية في رام الله :

- السنا شعب معجزة؟شعبا مختلفا؟ وطنا مختلفا؟

قلت مختلفون عن من بالضبط! و عن ماذا؟ كل الشعوب تحب اوطانها و كل الشعوب تحارب في سبيلها اذا اقتضى الامر الشهداء يسقطون من اجل قضاياهم العادلة في كل مكان ... المعتقلات و السجون مكتظة بمناضلي العالم الثالث و العالم العربي في طليعتها لقد عانينا و قدمنا التضحيات بلا حد لكننا لسنا افضل و لا اسوأ من الاخرين. بلادنا جميلة و كذلك البلدان الاخرى علاقة الناس باوطانهم هى التى تصنع الفروق فاذا كانت علاقات و رشوة و فساد تأثرت بذلك صورة الوطن.

و لما سالني عن شروط الاذاعة الناجحة قلت:

- ان عليها الابتعاد عن السلطة.

في غرفتي قبل النوم تصفحت مسودات النصوص التى أعدها للنشر بعنوان "منطق الكائنات" استوقفني انني أسرفت قليل في اللجوء الى الى الفكاهة لكنني قلت لا بأس ليكن هى هكذا انها ماساة نعم انها مسخرة اقصد في نفس الوقت.

في كل الحوارات كان المضحك و المبكي يلتقيان في نفس العبارة الواحدة.

لا اصدق أعينا تتجاهل إبصار المسخرة الملازمة للمأساة...من المريح دائما ان نصوّر المأساة فيما يقع علينا فقط لا فيما نفعله بايدينا ايضا.

الوضع مأساوي لكن المأساة مشوبة دائما بالملهاة لانها بلا جلال اننا نسقط على السكت بدون ذلك الدوي المصاحب لسقوط البطل المأساوي في التراجيديا الاغريقية او الشيكسبيرية .

الماكينة الاعلامية الجهنمية تطمس معنى السقوط و تصوره لنا انتصارات و نهوضا....هذا ما لم يكن متاحا في المآسي العتيقة حيث يقول هاملت : "ثمة شيء عفن في الدنمارك" و ينتهى الامر.

انك ان لم تجد برنامجا إذاعيا او تلفزيونيا في الصباح التالي يقرر لك ان المدعو وليام شكسبير رجل تافه و مغرض و لا علاقة له بنضال الشعب و ان كل شئ في الدنمارك على ما يرام و خصوصا قيادتها الرشيدة! و ان تجد مقالا في صحف الصباح الشمالي يضع يديه على خاصرتيه و يدلق لسانه الى الامام صائحا في وجه المسكين و ليام ابن السيدة ام وليامك

- و ما هو البديل يا سيد شكسبير؟

الم يقل انور السادات ان سيصفق لمن يستطع ان يحقق افضل مما حققه هو بمبادرته التاريخية؟

من اين للتعيس او الأديب ببلاغة تنقذه من مآسيه بهذه البساطة!

ليس في لغة اوديب حرف الضاد!

اوديب لا يستطيع تحويل اغلكارثة الى كرنفال او عيد!

عندما اراد شكسبير ان يكتب التراجيديا على حقيقتها كتب التراجيديا على حقيقتها....و عندما اراد ان يكتب عن الكوميديا كتب كتابة مختلفة تماما عن هملت و لير و ماكبث و عطيل في لغتنا نحن المنفردين بنعمة الضاد (ماذا كنا سنفعل بدونها؟!) اصبح مالوفا ان نقرا الماساة و الملهاة في الصفحة ذاتها في الواقعة ذاتها في الاتفاقية ذاتها في الخطبة ذاتها في الهزيمة و النصر في العرس و الجنازة في الوطن و المنفى و في ملامح وجهنا الواحد كل صباح.

بعد الخروج من بيروت إثر الاجتياح الاسرائيلي رفع الرسميون الفلسطينيون من اللهجة الانتصارية في خطابهم العام.

في المجلس الوطني التالي مباشرة فعلوا الشئ ذاته و صعّدوا لغة المجد و الصمود و النصر الى اقصاها ( واكتفوا بذلك!).

في اجتماع اللجنة الثقافية في المجلس ظننت ان ما قلته كان صادما للبيروقراطية الثقافية و الاعلامية الفلسطينية ..

- علمنا التاريخ درسين اثنين ك اولهما ان تصوير الفواجع و الخسارات بوصفها انتصارا هو...امر ممكن. و الدرس الثاني ، هو ان ذلك ... لا يدوم.

و اضفت :

- التصفيق لانفسنا ليس ردا كافيا على ما تعرضنا له و لا يساعدنا اطلاقا على فهمه.

في "تلك" الايام لم يكن مسموحا بانتهاك الرضى و الغبطة... ولم يكن مسموحا بمراجعة المقدمات و السلوكيات و النتائج بل انني حتى هذه اللحظة لست متأكدا ان كان مسموحا به في "هذه" الايام؟

المسئ المحصن! لم يصدمهم ما قلت.

و لكنه لم يعجبهم.

بعد ان انتهى المجلس و استعد كل المشاركين للعودة من حيث اتوا صادفت سيدة تقيم في القاهرة و كنت راغبا في ارسال رسالة الى رضوى و تميم قبل عودتي الى بودابست و قدرت ان بوسعها حمل الرسالة معها...سالتها متى سترجع الى القاهرة. قالت:

- انا مش رايحة للقاهرة مباشرة قلت بما اني قريبة من فرنسا خليني اروح كام يوم لباريس تغيير يعني.... الواد روحه طالعة.

بدي اشترى شوية فضيات من هناك انت بتعرف انا بحب الفضة كثير و يمكن أتاخر في باريس حسب الجو يعني.

الجسم الاعظم من المثقفين الفلسطينيين تماهى مع السلطة....اقترب منها اكثر مما ينبغي له ... ارتاح على مقاعدها... و لذ له ان يقلدها و يتماثل مع صفاتها... كثير من المؤيدين و المعارضين تشابهوا عند هذه النقطة مازلنا نتصرف كقبيلة و الذي زاد من ذلك و يسره و جعله يستمر بلا مساءلة حقيقية ان بيعة القضية وضعت الجميع مهما كانت خياراتهم هم في الصف الوطني و هذا صحيح.

فحتى المخطئ منهم يمكن النظر اليه كضحية ايضا الكل مهدد و الكل عرضة للموت او الاصابة او الاهانة على الحدود او فقدان من يحب و ما يحب.

كان هناك احساس دائم بان اقتراب المثقف من القيادة يختلف من الاقتراب من حكومة تقليدية فالفلسطيني و سلته التى تقرر الامور يعيشان الوضع الاستثنائي ذاته سواء في المنفى او تحت الاحتلال.

بل و ربما ارتأى البعض ان المكان الطبيعي للمثقف الفلسطيني هو بقرب القيادة لكن عواقب هذا الخيار لم تكن دائما عواقب محمودة بالاضافة الى الاستعداد الشخصي للفساد لدى عدد من الافراد في هذا المجال او ذاك.

اما عيبي الشخصي فكان انني استسهل الانسحاب عندما ارى ما لايسر ادير ظهري و قد اثبتت لي الايام انه كان من الافضل لو تحملت قليلا و حاولت كثيرا وضعت نفسي على الهامش هربا من أي ملامح استبداد السياسة او الثقافة.

و الاستبداد عند المثقفين هو نفس الاستبداد عن السياسيين من الجانبين جانب السلطة و جانب المعارضة و القيادات لدى الرفين تتقاسم الصفات ذاتها : الخلود في الموقع ، الضيق بالنقد،و تحريم المساءلة ايا كان مصدرها، و التيقن المطلق من انهم دائما على حق،مبدعون،علماء،ظرفاء،مناسبون و جديرون كما هم، و حيث هم!

كانت الصورة قبل عودة منظمة التحرير هى صورة الفدائي صورة البطل/ الضحية التى تستحق التعاطف و التمجيد.

الان ها هو الفدائي ذاته (مكبلا باشتراطات اعدائه) يمارس سلطته المباشرة على المواطن العادي على الاعمام و الاخوال و الطلاب و الدكاكين و المرور و الجمارك و الفنون و الاداب و الضرائب و المحاكم و الاستثمارات ووسائل الاعلام كلها. انه هو الذي يهئ للناس الوظيفة و و فرص العمل من الساعي و الفراش الى الوزير و الوكيل و المدير و العميد و العقيد و هو الذي يمنح المكانة الاجتماعية و النفوذ هو الذي يصلح المكسور و يعمر المهدوم و يختار من هذا الزحام الشعبي العريض انصارا و خصوما بل انه يعتقل المواطنين احيانا و يسجنهم و يقاضيهم.... و يعذّبهم؟

هذه الصورة جديدية تماما على اهلنا.

كان من الممكن ان يشكل هذا الانتقال في مهمات الفلسطيني تطورا مفهوما بل و مطلوبا ايضا لو كان عنوانا على سيادة فعلية على المصير الفلسطيني فلا احد يناضل للابد و لا احد يغني للابد لكن السيادة الكاريكاتيرية المسموح بها لنا في اوضاعنا المستجدة و القيود التى تكبل قرارات السلطة الوطنية كان لها وقع مختلف.

الاغنية تتراجع و الواقع يتقدم باستحقاقاته الشديدة القسوة.

هنا في المجال الثقافي كما في المجالات الاخرى تجد من يتقن عمله و يؤديه مقتنعا به جهدا و شرفا و جدوى هنا من يعترض على رداءة الاتفاقية لكنه يضع باخلاص كل امكاناته تحت تصرف المجتمع الفلسطيني الجديد ليصنع ما هو اقل سوءا من السئ المتاح.

و لكنك الى جانب مثل هذا المناضل الحقيقي تجد من ينطنط بين المواقف و الايدولوجيات كالشمبانزي ليصل الى الفرع العالي شجر "الغابة" لكنه شمبانزي يتقن اختيار العطور الفرنسية و تحديد العمولة التى لا يرضى بأقل منها ... يحب اولاده حبا حقيقيا و امه و اباه ( وربما ) زوجته و لا ....أحد....غيرهم.....!

انه الشمبانزي يؤيد ثم يعارض !

ثم يؤيد لكنه يريد ان يبدو معارضا!

ثم يَنْشَقّ عن تنظيمه و يشكل فصيلا او حزبا يضاف الى الزحمة التى لا مبرر لها و يلقي على الناس مواعظه البليغة حول روعة الوحدة!

قد يرضى و قد يحرد و قد يتذلل امام هذا و يستأسد امام ذاك.

لكنه في الحالات كلها موهوب جدا و بارع جدا في تقديم خدماتٍ جليلة....لنفسه!

الحياة تستعصي على التبسيط كما ترون.

قلت لابو حازم مداعبا و مستأذنا:

- اليوم هو يوم التليفونات العالمي ! سأتصل بالوالدة في عمان و برضوى و تميم في القاهرة.... تلقيت منهم مكالمات يومية تقريبا و أردت ان ابادر انا هذه المرة خصوصا و ان لدي اخبارا اقولها...

الفلسطيني اصبح انسانا تلفونيا يعيش على الاصوات المنقولة اليه عبر المسافات.

قبل ان يصبح التليفونه في متناول معظم الناس لجأوا الى الاذاعات:

" اطمنوا و طمّنونا"

ثم جاء الهاتف الرائع المخيف.

فلان نجح في امتحان اخر السنة،

فلانة اخذناها الى المستشفى و لكن لا تقلق المسالة بسيطة،

فلان اعطاك عمره، البقية في حياتك.

في الواحدة و النصف ليلا اخبرني منيف من قطر بوفاة والدي في عمان و انا مقيم في بودابست في الثانية و الربع ظهرا ... بعد سبع سنوات اخبرني علاء من قطر بوفاة منيف في باريس و انا مقيم في القاهرة.

تفاصيل حياة كل من نحب و تقلب حظوظهم من هذه الدنيا كانت كلها تبدأ برنين الهاتف الذي لم نعشق رنينا مثله ابدا و لم يرعبنا رنين مثله ابدا في نفس الوقت.

فقد تحميك الحراسة من الارهاب و قد يحميك حظك او ذكاؤك و لكن الغريب لن تحميه اية قوة في العالم من "ارهاب التليفون"!

الان لدي اخبار لطيفة: حضر ابو ساجي بنفسه الى بيت ابو حازم و احضر لي الهوية... هوية لم الشمل.

- امهلني كام يوم عشان تصريح تميم.

كان علينا ان نتدبر أمر حياتنا في تلك الدنيا العجيبة ..أنا في بودابست و رضوى و تميم في القاهرة.

حصلت رضوى على إجازة لمرافقة الزوج من عملها في الجامعة و أقامت معي في المجر ألحقنا تميم في دار حضانة خاصة عند ماني نيني ثم في حضانة تابعة لمصنع الجوارب في بداية أيلول / سبتمبر /١٩٨١ وصلت إلى بودابست صديقتنا عواطف عبد الرحمن لزيارتنا قادمة من برلين بعد اشتراكها في أحد المؤتمرات هناك.

قضت معنا يومين ثم أوصلناها إلى مطار بودابست لتسافر الى برلين فالقاهرة.

علمنا من الإذاعات و الصحف أن السادات اعتقل ١٥٣٦ رجلا و امرأة من جميع الاتجاهات السياسية التى لم تبد إعجابها ب"مبادرته التاريخية".

قرأنا الأسماء كان طبيعيا أن يكون بين المعتقلين كل أصدقائنا في مصر و من بينهم اسم عواطف.

حاولنا الاتصال بها لتحذيرها من السفر إلى مصر و دعوتها للإقامة معنا بعض الوقت إلى أن تتضح الأمور لانهم سيعتقلونها من مطار القاهرة لو عادت في موعدها كان الأمر متأخرا.

جاء صوت الصديق فتحي عبد الفتاح الذي طلبناه على الهاتف:

- عواطف سافرت إنها الآن في الطائرة المتجهة للقاهرة فعلا.

بعد يومين وصلنا المزيد من الأخبار : عواطف تم اقتيادها من المطار الى السجن فور وصولها.

هذا الحدث لم يخل من الطرافة فقد كانت مشترواتها من السوق الحرة و خصوصا علب الشكولاته السويسرية نعمة على زميلات العنبر مثل لطيفة الزيات و امينة رشيد و صافي ناز كاظم و فريدة النقاش و شاهندة الخ.

بعد ذلك تتابعت الأخبار من مصر.

السادات يفصل اكثر من ستين صحفيا من عملهم و ينقل عددا مماثلا من اساتذة الجامعات الى وظائف خارج سلك التعليم من بينهم رضوى.

قرأنا في بودابست خبر نقلها إلى وزارة السياحة.... قلت لها:

- سيكون البقشيش بالشيكل يا مدام!

بعد شهر تلقينا خبر اغتيال السادات من الإذاعة.

الأحداث تتوالى ... يتم الإفراج عن المعتقلين ... يعاد الاساتذة و الصحفيون الى اعمالهم الاصلية.

جاء وقت القرار الصعب عند مناقشة موضوع مدرسة تميم.

اتخذناه.... كان قرارا صعبا و صائبا قلت لرضوى أن تميم يجب أن يلتحق بالطرف الثابت في الأسرة رضوى لها وطن ثابت و عمل ثابت و جواز سفر ثابت و لنا في القاهرة بيت مستأجر لكنه بيتنا.

و أهم من ذلك أننا نريد لتميم أن يتلقى تعليمه في بلد عربي لا في المجر...انا وضعي هنا مؤقت وضعي مؤقت في كل بلد و كذلك عملي و جوازات سفري.

تميم مكانه مع رضوى و رضوى مكانها جامعتها و بلدها و بيتنا...منذ ذلك القرار كان شمل اسرتنا الصغيرة يلتم لثلاثة اسابيع شتاءً و ثلاثة اشهر صيفا منذ ترحيلي في ١٩٧٧ حتى اصبح شابا في الثانوية العامة.

في صيف ١٩٨٤ أي بعد سبع سنوات كاملة من ابعادي من مصر حصلت على اذن بزيارة القاهرة لمدة اسبوعين... بعد ذلك وجهت لي دعوة لاقامة أمسية شعرية في إطار ندوات معرض القاهرة الدولي للكتاب...تكررت دعوتي لأمسيات المعرض وجدت نفسي بعد ذلك القي قصائدي في مقر نادي اعضاء هيئة التدريس في جامعة القاهرة و في الاتيليه و في نقابة الصحفيين و في حزب التجمع.

لكن الطريف انهم في احدى زياراتي للقاهرة احتجزوني في المطار و القوا بي طوال ليلة كاملة في غرفة الحجز البيطري ! لا ليس في الامر خطأ مطبعي . انها غرفة الحجز البيطري فعلا.

في المرات التالية اصبحوا يسمحون باحتجازي في نعيم صالة المطار(!) لفتراتٍ لم تقل عن خمس ساعات و لم تزد عن نصف يوم قبل السماح لي بالدخول فعلا.

لم يتضح لي سبب تلك المعاملة الخاصة الا بعد سنوات:

الجهات الثقافية ترحب و الجهات الأمنية ترفض و الى ان يتفقوا على دخولي كان لابد ان يمرّ كل ذلك الوقت ... طبعا كان عليَّ ان انتظر مطلع ١٩٩٥ حتي يسأموا من توقيفي و يصبح دخولي من مطار القاهرة طبيعيا كدخول الألماني و الياباني و الطلياني مثلا.

كنت اوجه لنفسي اسئلة و اجيب عليها دون ثقة في اهمية السؤال و الجواب.

- هل يقيم تميم كما اقمت ضيفا عند ابو حازم؟

- يجب ان اكون معه ساعتها.

- لكننا سنصبح ضيفين.

- و ما معنى مجيئه بمفرده؟

نظريا للائم ان يلومنا على هذا الوضع الذي لم يوفر لنا شقة في رام الله املاءات الحياة مقرونة بعشرات التفاصيل الصغيرة المهمة في حينها و التى نذكرها و ننساها جعلت الامر على ما هوعليه الان.... قرارات كل الاسر المبعثرة تُتخذ عادة بناء على احتياجات اطراف متعددة و بناء على قرارات مختلفة للواقع و تكهنات مختلفة بالمستقبل و تحكمها اولويات متغيرة قد لا يكون ترتيبها حكيما دائما.

هذا الذي ولد على نهر النيل في مستشفى الدكتور شريف جوهر لاب فلسطيني بجواز سفر اردني و ام مصرية لم ير من فلسطين الا غيابها الكامل و قصتها الكاملة.

عندما تم ترحيلي من مصر كان عمره خمسة اشهر...و عندما احضرته رضوى للقاء بي في شقة مفروشة في بودابست كان عمره ثلاثة عشر شهرا... و صار يناديني :

- عمّو.

اضحك و احاول ان اصحح له الامر:

- انا مش عمّو يا تميم... انا بابا.

فيناديني:

عمّو بابا.

**انتهى الجزء السادس**

## الجزء السابع

### غربات

الغربة لا تكون واحدة ....انها دائما غربات.

غربات تجتمع على صاحبها وتغلق عليه الدائرة.... يركض والدائرة تطوقه.... عند الوقوع فيها يغترب المرء في "أماكنه" وعن "أماكنه"...أقصد في نفس الوقت يغترب عن ذكرياته فيحاول التشبث بها.... فيتعالى على الراهن والعابر.انه يتعالى دون ان ينتبه إلى هشاشته الأكيدة ، فيبدو أمام الناس هشا ومتعاليا. أقصد في نفس الوقت.

يكفي أن يواجه المرء تجربة الإقتلاع الأولى حتى يصبح مقتلعا من هنا إلى الأبدية.... الأمر يشبه أن تزل قدمه عن درجة واحدة من السلم العالي حتى يكتمل النزول إلى منتهاه.... الأمر يشبه أن ينكسر في يد السائق مقود السيارة :كل سيرها بعد ذلك يصبح ارتجالا وعلى غير هدى.

لكن المفارقة تكمن في أن المدن الغريبة لا تعود غريبة تماما.

تملي الحياة على الغريب تكيفا يوميا .... قد يكون عسيرا في بداياته لكنه يقل عسرا مع مرور الأيام والسنوات.

الحياة لا يعجبها تذمر الأحياء.... إنها ترشوهم بأشكال مختلفة ومتفاوتة من الرضى ومن القبول بالظروف الإستثنائية... يحدث هذا للمنفي ،والغريب والسجين،ويحدث شيء مثله للخاسر والمهزوم والمهجور .وكما تتعود العين شيئا فشيئا على العتمة المفاجئة يتعود هؤلاء على السياق الإستثنائي الذي فرضته عليهم الظروف ... وإذا تعود الواحد منهم على الإستثناء فإنه يراه طبيعيا بشكل من الأشكال.

الغريب لا يستطيع التخطيط لمستقبله البعيد أو القريب... حتى وضع خطة ليوم واحد يتعذر لسبب ما... لكنه شيئا فشيئا يتعود على ارتجال حياته... شعوره بمستقبله ومستقبل أهله شعور عمال التراحيل وموظفي المياومة... كل عشرة بينه وبين المحبوب قصيرة مهما طالت.

يعرف كيف يكون محبا آمنا ومحبوبا خائفا.... إنه يدنو كلما نأى وينأى كلما دنا.ويشتهي حالتيه وموضعيه.... أقصد في نفس الوقت.... كل بيت له هو لغيره أيضا .... كأن إرادته معلقة على إرادات.

وإذا كان شاعرا كان غريبا عن "هنا".... غريبا عن "أي هنا" في العالم...إنه يجاهد لبينجو بلؤلؤه الشخصي رغم معرفته المؤكدة بأن لؤلؤه الشخصي قد لا يساوي شيئا في السوق... الكتابة غربة،غربة عن الصفقة الاجتماعية المعتادة.غربة عن المألوف والنمط والقالب الجاهز،غربة عن طرق الحب الشائع وعن طرق الخصومة الشائعة.... غربة عن الطبيعة الإيمانية للحزب السياسي.... وغربة عن فكرة المبايعة.

الشاعر يجاهد ليفلت من اللغة السائدة المستعملة إلى لغة تقول نفسها للمرة الأولى... ويجاهد ليفلت من أغلال القبيلة.... من تحبيذاتها ومحرماتها ،فإذا نجح في الإفلات وصار حرا،صار غريبا.... أقصد في نفس الوقت...كأن الشاعر يكون غريبا بمقدار ما يكون حرا...والممسوس بالشعر أو بالفن والأدب عموما إذ تحتشد في روحه هذه الغربات ،لن يداويه منها أحد.... حتى الوطن.

إنه يتشبث بطريقته الخاصة في استقبال العالم وطريقته الخاصة في إرساله.... فمن الحتمي أن يستخف به أصحاب الوصفات الجاهزة،وأهل العادة والمألوف،يقولون إنه "هوائي"،"متقلب"و "لا يعتمد عليه"،إلى آخر هذه النعوت المرصوصة كالمخللات على رفوفهم،أولئك الذين لا يعرفون القلق،أولئك الذين يتعاملون مع الحياة بسهولة لا تليق.

كان علي أن أسلم بأن التليفون سيكون وسيلتي الدائمة لخلق علاقة مع طفل عمره شهور.... لكنني لم أعتبر إبعادي عن مصر حدثا يستحق الشعور بالمرارة.فمن السفاهة أن أشكو من مجرد شتات عائلي أصابني،بينما لم تنج عائلة فلسطينية في فلسطين أو في الشتات من مصائب أشد وأقسى.

كانت مجزرة تل الزعتر ما تزال في مقدمة الذاكرة،كما يتكرر كل حين نسف البيوت في الضفة وغزة.والمعتقلات الإسرائيلية تتكدس بالشباب والشيوخ....والجرحى لا يجدون دواءهم إذا كانوا محظوظين في الوصول إلى أي مستشفى.
كان مناخ تجاوز المتاعب وتقبلها كثمن بسيط يمكن تحمله،هو المناخ الذي أشعناه،رضوى وأنا ،كلما تحدثنا إلى تميم معا أو فرادى.... وهو المناخ الذي ساعده على التخلص بسرعة من الشعور بأنه طفل سيئ الحظ.
أما حكمة رضوى،ورعايتها لتميم في القاهرة،وميلي الدائم للفكاهة والسخرية والتعليقات المضحكة،التي كان يقابلها بقهقهة طفولية مجلجلة عبر التليفون،فقد ساعدته على أن يعيش طفولة مرحة ومريحة.
وكان المنفى المجري نعيما لتميم...كان البيت الذي سكناه بيتا صغيرا في الطابق الثالث والأخير من عمارة لطيفة وسط عمارات صغيرة متشابهة يحيط بها سور بحيث يجعلها وحدة واحدة.مساحته لا تتجاوز ثمانين مترا مربعا.... وهو يقع على تلة ذات جمال ساحر،تطل على نهر الدانوب اسمها "تلة الزهور".... للبيت شرفة صغيرة علقت على سورها المعدني أصصا مستطيلة تجاوز فيها شتلات الجيرانيوم ذات الورود الحمراء المكتنزة... كنت أمنحها الكثير من الوقت والعناية إلى حد أن تميم قال لي مرة:
-إنت بتقعد مع الموشكاتلي بتاعك أكثر ما بتقعد معي ومع ماما!(الموشكاتلي هو التسمية المجرية للجيرانيوم).
وللبيت حديقة واسعة جدا تنحدر مع إنحدار التل ،تتوسطها أراجيح،ومربعان رمليان مسيجان أعدا خصيصا لأطفال الحي.... في وسط الحديقة شجرتان شاهقتان من أشجار الحور.... متلاصقان تقريبا.... واحدة منهما أقصر قليلا من أختها.... أول ما يهتم به تميم عند وصوله إلى البيت أن يطمئن على وجودهما في مكانهما المألوف.... كان يسرع إلى شباك غرفته الصغيرة ليتأملهما.
في أقصى الحديقة شجرة تفاح يتكدس الأطفال فوقها وعلى فروعها وعلى العشب الفستقي اللون تحتها وكأنها تثمر تفاحا وأطفالا!هذا يقطف،وذاك يلتقط،وثالث يأكل،ورابع يملأ جيوبه أو أكياس النايلون التي يحملها ،ويركض إلى أهله،فخورا بمحصوله اللذيذ.

كان بوسع تميم أن يقود دراجته ذات العجلات الثلاث كما يحلو له دون مخاطرة ما دام داخل البوابة الكبيرة وفي نطاق الحديقة .ورغم ذلك ،كنا نطل عليه من نافذة المطبخ فنطمئن عليه بين الحين والآخر .
أما إذا تساقط الثلج أثناء وجوده في إجازة نصف السنة في بودابست فكل دقيقة عنده عيد الأعياد...كنت أرى ما تتيحه له بودابست فأقول لنفسي إن من حق المنافي علينا أن نذكر لها بعض محاسنها إذا كنا نكره الكذب.

في هذا البيت الجميل،في هذا المشهد الطبيعي المبهج،وأنت تطل يوميا على هذه الخضرة الفستقية الفائضة بالحياة،يرن هاتفك ذات ليلة ليقول لك الصوت المتلعثم إن فلان توفي "قبل نص ساعة".... تكتشف أنك لا تستطيع المشاركة في تشييعه إلى القبرلأنك بلا جواز سفر أو بلا فيزا أو بلا إقامة.... أو لأنك ممنوع من الدخول.الخ الخ.
في الواحدة والنصف ليلا جاءني صوت منيف عبر الهاتف....مات أبي....
علمت بعد ذلك أنه كان يتناول عشاءه وذهب للنوم...استيقظت أمي على صرخة رهيبة وانتهى الأمر..لم أعرف ما الذي أفعله بنفسي...نسيت تماما ما هي عادة الصباح في بودابست....هل يطلع حقا كل يوم؟
والليل حولي لا يمر، وليس حولي من يواجعني ويكذب (صادقا) من أجل روحي،أو يلوم هشاشتي حتى ألومه!
أما المسافة بين أحبابي وبيني،فهي أقبح من الحكومة!

في المدرسة تجلت شخصية تميم كولد سريع البديهة خفيف الظل وابن نكتة قبل ان يبلغ الثانية من عمره فاجأنا أنه يخطب مقلدا الرئيس أنور السادات مرددا بعض مفرداته المأثورة: (حافرمه) و (بسم اللاااه) وغيرها مما نسيته الآن.
كان يعود كل يوم من "مدرسة الحرية" بالجيزة بحصيلة معتبرة من النكت التي يحفظها من زملائه المصريين.
-لحظة لحظة!أعطوني ورقة وقلم أحسن أنساهم لما أرجع على الناصرة.
استغاثت نائلة في سهرة ضمتنا سويا معها ومع توفيق زياد في القاهرة قبل سنوات وأخذت تكتب ملخصا للنكت المتتابعة... يحفظ كل نوادر دير غسانة وقصص المضافة وأخبار العجائز من رجالها ونسائها...يحكي بلهجتهم الفلاحية تماما كأنه ولد في "دار رعد".
غضبه الحزين على قطع شجرة التين الخضاري فاق غضب الأسرة كلها...زانه لن يغفر لامرأة عمي المسكينة ما فعلته بشجرة لم يرها بعينيه ولم يأكل من ثمارها أبدا لكنه لا يتخيل دار رعد بدونها.
-انه يعرف برندتك يا"أبو حازم"غيابيا بكل ما فيها.... يستطيع أن يعرف مكان صورة عمه منيف فيها.
هذا الولد الذي رأى النور لأول مرة في حي المنيل بالقاهرة عاصمة جمهورية مصر العربية والذي يخاطبنا في البيت باللهجة المصرية، والذي لم ير من فلسطين شيئا طوال سنواته العشرين ، يتحرق لرؤيتها كأنه لاجئ اكتهل في مخيم بعيد.

يكتب أبياتا من الميجانا والعتابا فيرمي كتابه المقرر في العلوم السياسية ويأتيني في غرفة مكتبي منشرح العينين ويمسك بالعود الذي اشترته له رضوى من الشام بارشادات من نزيه أبو عفش ويبدأ بالغناء كأنه "الحزرق"مغني دير غسانة العجوز.

كنت أشارك بأمسية شعرية في قرطاج عام ؟؟؟؟ واشترينا له أنا ومارسيل خليفة أول عود في حياته.... كان عمره ثلاث سنوات وكان العود بحجم الدمية الصغيرة لكن مارسيل جربه في محل الصناعات التقليدية التونسية وقال إنه عود بالفعل رغم حجمه المضحك.

في القاهرة أحضرت له رضوى مدرسا لآلة العود ،الأستاذ محمود فصل له عود أكبر قليلا.... ثم واصل دروسه على يد الأستاذ تيمور ثم أستاذ أديب... وما زال يتلقى الدروس على يديه.

كان إميل حبيبي يقول له مداعبا:

-ليش ما طلعتش إرهابي زي أبوك!

عاودت سؤال "أبو ساجي"عن الفترة المتوقع ان تمر قبل ان نحظى بتصريح لتميم.... فقال انهم يتلاكؤن في الموافقة على دخول الشبان ... وقد يتساهلون مع كبار السن... مع من تجاوزوا الخمسين ... كلمة "الخمسين"رنت في أذني رنين فنجان قهوة ينكسر على الرخام قبل ان تلمسه أصابع الضيف.

أشعر أنني عشت طويلا وعشت قليلا... انني طفل وكهل .... أقصد في الوقت نفسه....

تأخرنا سبع نوات قبل ان نأتي بتميم إلى الدنيا... تزوجنا في عام ؟؟؟؟ وقررنا منذ البداية تأجيل مسألة الإنجاب (حتى تتضح الأمور!) ولم نكن ندري ما هي الأمور التي ننتظر أن تتضح! وضعنا العام أو وضعنا الاقتصادي أو السياسي او الأدبي والدراسي؟

أكملت رضوى رسالتها للماجستير في جامعة القاهرة بعد زواجنا بسنتين... ثم سافرت في بعثة حكومية إلى أمهرست ماساتشوستس لدراسة الأدب الأفروأمريكي كجزء من مسيرتها في سلك التعليم الجامعي.

كم ضحكنا رضوى وأنا من القفشة اللئيمة التي عممها الأستاذ محمد عودة عندما سأله صديق مشترك التقاه مرة خارج مصر عن أخبارنا وهل أصبح عندنا أولاد أم لا؟ فأجابه عودة:

-رضوى ومريد قرروا أن يؤجلوا الخلفة إلى ما بعد حل مشكلة الشرق الأوسط!

شعرنا بعد عودتها بالدكتوراة عام ؟؟؟؟أن الوقت قد حان لنوع من الإستقرار الأسري... حملت وأجهضت في عام ؟؟ ...ثم حملت ورزقنا بتميم في ؟؟؟؟/؟/؟؟ أي قبل ترحيلي من مصر بخمسة أشهر.

كانت الولادة متعسرة.... رأيت بعيني وجع الولادة فشعرت أن من الظلم أن لا ينسب الأطفال إلى الأم.... لا أدري كيف اغتصب الرجل حق نسبة المولود لنفسه؟

ولم يكن شعوري مجرد رد فعل مؤقت على رؤية أم تتعذب في ساعات الوضع .... ما زلت أومن إلى الآن أن كل "مولود "هو ابن "والدته" .... وهذا هو العدل.

قلت لرضوى عندما خطونا الخطوات الأولى مغادرين باب المستشفى وهي تحمل تميم على ذراعيها وعمره يومان فقط:
-تميم كله لك.... أشعر بخجل شخصي من حقيقة أنه سيحمل اسمي وحده دون اسمك في شهادة ميلاده.

ثم كان للرئيس المصري أنور السادات دور حاسم في تحديد حجمنا كأسرة! فقراره بترحيلي من مصر،ترتب عليه أن أظل أبا لولد واحد لا ثاني له... وأن لا يكون لرضوى ولي بنت، مثلا،إلى جانب تميم.... أو أن لا يكون لي عشرة أولاد وبنات بالتمام والكمال!
أصبحت أقيم في قارة، ورضوى في قارة أخرى... لم يكن من الممكن ان تعتني بأكثر من طفل واحد وهي بمفردها...

هذه هي الهوية إذا.... هوية لم الشمل .... غلاف من البلاستيك الأخضر اللون يضم اسمي واسم رام الله،وكلمة متزوج،وكلمة تميم،وختم فلسطيني....

عندما انتقل منيف من قطر للإقامة في فرنسا تعددت زياراتي له لسهولة التأشيرات ولقربه من بودابست حيث أقيم..... ذات صيف كنت أشارك في ندوة دولية للمنظمات غير الحكومية في جنيف بشأن فلسطين فاصطحبت رضوى وتميم وأقمنا في ضيافة منيف في منزله في "فيجي فونسونو"وهي قرية على مسافة عشر دقائق بالسيارة من جنيف.
لكن الذهاب إلى جنيف (وهو أمر قد يتكرر عدة مرات في اليوم الواحد) يعني المرور بنقطة الحدود بين فرنسا وسويسرا.... في كثير من الأحيان يكتفي الشرطي بإشارة من يده لسائق السيارة بأن يواصل طريقه... وأحيانا يعن له أن يلقي نظرة عابرة على جواز السفر قبل أن يبتسم محييا الركاب،ويمضي كل في سبيله.
في ذلك الصيف لم نكن وحدنا ضيوفا عند منيف بل اجتمع عنده أيضا أقرباء زوجته وأولادهم،واثنان من شقيقاتها.
مررنا من نقطة الحدود في سيارتين... تقدم الشرطي وطلب جوازات السفر.... جمعناها وقدمناها له فرأى العجب العجاب:
وجد بين يديه جوازات سفر من كل حدب وصوب: أردنية وسورية وأمريكية وجزائرية وبريطانية ومن "دولة بيليز" أيضا وبأسماء تدل على أن أصحابها من عائلة واحدة، فالكل "برغوثي" ، بالإضافة لجواز سفر رضوى المصري وجواز سفر إميل حبيبي الإسرائيلي، وقد كان وقتها قادما من الناصرة ليشارك في الندوة الفلسطينية ذاتها في جنيف ، فدعوته إلى بيت منيف ، ليأكل "القطايف "في بلاد الفرنجة.... فهمت من الذين يفهمون اللغة الفرنسية ممن معنا،أن الرجل طلب أن يشرح له أحدنا هذا الكوكتيل من وثائق السفر.... وعندما بدأ أحدهم يشرح الأمر قاطعه ضاحكا:

-لا أريد أي شرح !لا أريد أن أفهم!
وتمنى لنا مشوارا سعيدا في جنيف.... واصلنا طريقنا وقد انتقلت لنا دهشة الفرنسي من وضعنا.... قال أحدهم:
-والله احنا فضيحة عن جد يا جماعة!

لا هذه الهوية ولا حتى جواز السفر الفلسطيني الجديد الذي بدأت السلطة الفلسطينية في إصداره بعد اتفاقية أوسلو سيحل مشاكلنا على الحدود... الدول تعترف على الورق بالهوية الفلسطينية وبجواز السفر الفلسطيني... ولكن على الورق فقط.
أما على الحدود ،في المطارات،فيقولون لحاملها يجب أن تحصل على موافقة مسبقة من الجهات الأمنية.... وهذه الموافقة المسبقة لن تحصل عليها أبدا!
ورغم ذلك فملايين اللاجئين في مخيمات الشتات غير مسموح لهم بالانتخاب و لا الترشيح ولا ابداء الرأي ولا المشاركة السياسية.
في لبنان هناك قرار حكومي الآن بمنع الفلسطينيين المقيمين في المخيمات من العمل في ؟؟ مهنة!أي ان بوسعهم جمع القمامة وتلميع الأحذية فقط... ومن يسمح له بالسفر من لبنان لا يسمح له بالعودة إليه.
هل يعقل أن ينطبق هذا على أكثر من ربع مليون لاجئ فلسطيني الأصل،منهم آلاف ولدوا في لبنان؟ وهناك غيرهم من المقيمين فيه منذ ثلاثينات القرن وأربعيناته،أي قبل النكبة أصلا،ولكن جذورهم الفلسطينية تحرمهم من غفران الذنب الفلسطيني الذي ،وحده ،لا يغتفر.
لقد أخطأ بعض الفلسطينيين بحق لبنان،وهاهم أبناء المخيمات المعدمون يسددون الثمن يوميا... وليت كل من أخطأ بحق فلسطين يسدد الثمن أيضا!
يقولون إن مواضيع اللاجئين والنازحين،أي أربعة ملايين إنسان ،والمستوطنات والقدس وتقرير المصير، مؤجلة إلى مفاوضات الحل النهائي.... ماهو العاجل إذا يا جماعة ؟ ناقشت هذا السؤال مع معظم من التقيت بهم.... وتركني عدد آخر ألتقط إجابته من كلامه العابر ،دون أن أوجه له السؤال...المؤكد أن الكل ينتظر.... و أن ابتعاد جندي الإحتلال عن بيوتهم،ولو لمئات الأمتار ،يعطيهم أملا مباغتا بابتعاده أكثر في المستقبل...كأن العيون في هذه الأيام تحدق في الجغرافيا أكثر من تحديقها في التاريخ.
الأشواق والصبوات والأحلام، ترجئ الإعلان عن وجودها مؤقتا... لقد تحولت إلى ورشة يومية يعنى المشتغلون فيها بكل ساعة عمل هنا والآن.... ولكن الملفت،برغم عزوفهم عن التحليلات الشاملة والمستفيضة وضيقهم بها،أن المرء يلمس لديهم باستمرار،ظلالا من الإرتياب بنوايا إسرائيل وحيلها ومفاجأتها المقبلة... إنه أمل مشوب بالهواجس.
قليل جدا منهم يستخدم تعبير "النصر"...وأكثرهم ينتظر بتوتر ويتكيف مع الواقع المملى بصعوبة.
المستفيدون استفادة مادية مباشرة وفورية من الوضع الجديد هم وحدهم الذين يرون فيه انتصارا يستحق الرقص والاحتفال، ويدافعون عنه بلا تحفظ.

سمعت تعبيرات ملفتة على ألسنة المثقفين الذين وجدوا في شوارع الإنتفاضة وفي الأداء المبهر للناس خلال سنواتها الأولى بالتحديد ،تحققا نادرا للذات الوطنية التي كانت تتشكل يوميا بصورة تلقائية رغم كل التضحيات... هناك شعور بارتباك المعنى واختفاء الرعشة.

قال لي أبو محمد أحد جيراننا القدامى:

-كان رفع علم فلسطيني صغير على سطوح مدرسة أو بيت أو حتى على أسلاك الكهربا في الشوارع،يكلف الشاب حياته... كان جيش رابين يطلق النار ويقتل من يحاول رفع علم واحد... ورغم ذلك قدمنا الشهداء طوال الانتفاضة من أجل رفع العلم،الآن العلم في كل مكان وراء طاولة كل موظف مهما صغرت وظيفته.

-يزعجك غياب الرومانسية من الأمر؟

-بل غياب السيادة الفعلية التي يعنيها العلم المرفوع... إسرائيل تحرمنا من السيادة حتى على وسائل المواصلات... وما تزال هي المرجع لنا في الأمور السيادية.... شفتهم على الجسر؟ ماذا يفعل الطرف الفلسطيني على الجسر؟ مش شفت وسمعت؟

-شفت وسمعت.

تحدث عن الإغلاقات المستمرة للضفة وغزة بجرة قلم من حكومة إسرائيل:

-يمنعون حتى القيادات من السفر إن أرادوا ... تظن أنه بإمكانك الذهاب إلى القدس؟ أو حتى إلى غزة؟ أعلنوها منطقة مغلقة وحجتهم في هذه المرة الانتخابات.... يمنعون المصلين من الوصول إلى الحرم حتى يوم الجمعة... حواجز وتفتيش وأجهزة كمبيوتر... لا يتوقفون عن توجيه رسالة واحدة لنا وبكل السبل: نحن الأسياد هنا.

-هل كان مجيئي غلطة إذا يا أبو محمد؟

-بالعكس .... كل من يستطيع أن يرجع وأن يقيم فليرجع على الفور.... يعني نتركها للفلاشا واليهود والروس وزعران بروكلين؟ هل نتركها للمستوطنين؟ ليعد من يستطع العودة من الخارج... بتصريح ، بلم شمل، بوظيفة ،بالجن الأزرق.... ابنوا في قراكم إذا قدرتم.... إبنوا مستوطنات فلسطينية في فلسطين يا أخي! قال غلطة قال! يا عمي تعالوا.

أشعل سيجارة من أخرى واستأنف مرافعته المتحمسة:

-بس من قال لك أن أولاد الحرام مغمضين؟ وافقوا على دخول بضع آلاف غصبا عنهم أمام العالم.... بس وحياتك يا أبو تميم حاسبينها بالورقة والقلم.... مليح إنك عرفت تدخل... بس ياريتك جيت بعد الإغلاق أو قبله.... حرام أن لا ترى القدس.

-هل هو مستحيل فعلا؟

-يعتبرون القدس إسرائيل.... الإغلاق يعني منع التنقل بين مناطق الحكم الذاتي وإسرائيل إلا لأصحاب التصاريح الإسرائيلية .... أو إذا كان معك ما يثبت إنك V.I.P

-وغير هيك؟

-تهريب ... في ناس بيروحوا تهريب ...وانت وحظك.

سكت برهة ثم قال كأنه يقرع لي جرسا:

-بس بعد هالعمر تزور القدس تهريب!

لا يعرف العالم من القدس إلا قوة الرمز.... قبة الصخرة تحديدا هي التي تراها العين فترى القدس وتكتفي.

القدس الديانات،القدس السياسة، القدس الصراع هي قدس العالم.

لكن العالم ليس معنيا بقدسنا، قدس الناس.

قدس البيوت والشوارع المبلطة والأسواق الشعبية حيث التوابل والمخللات،قدس الكلية العربية،والمدرسة الرشدية، والمدرسة العمرية، قدس العتالين ومترجمي السياح،الذين يعرفون من كل لغة ما يكفل لهم ثلاث وجبات معقولة في اليوم.

خان الزيت وباعة التحف والصدف والكعك بالسمسم.

المكتبة والطبيب والمحامي والمهندس وفساتين العرائس الغاليات المهور.

مواقف الباصات القادمة كل صباح من كل القرى بفلاحين يبيعون ويشترون.

قدس الجبنة البيضاء والزيت والزيتون والزعتر،وسلال التين والقلائد والجلود،وشارع صلاح الدين.

جارتنا الراهبة وجارها المؤذن المستعجل دائما.

السعف الماشي على الطرقات في أحد السعف... قدس النباتات المنزلية والأزقة المبلطة والممرات المسقوفة.

قدس حبال الغسيل...هذه القدس هي قدس حواسنا وأجسامنا وطفولتنا.

هي القدس التي نسير فيها غافلين عن "قداستها"لأننا فيها...لأنها نحن.

نتجول فيها بطيئين أو مسرعين بصنادلنا أو بأحذيتنا البنية أو السوداء نساوم الباعة ونشتري ملابس العيد.

نتحوج لرمضان وندعي الصيام، ونشعر بتلك اللذاذة الغامضة عندما تلامس أجسامنا المراهقة أجسام السائحات الأوروبيات في سبت النور.... نشاركهن ظلام كنيسة القيامة ونرفع معهن الشموع البيضاء التي تنيرها.

هذه القدس العادية،قدس أوقاتنا الصغيرة التي ننساها بسرعة لأننا لن نحتاج إلى تذكرها ،ولأنها عادية كما أن الماء ماء والبرق برق،كلما ضاعت من أيدينا صعدت إلى الرمز.... إلى السماء.

كل الصراعات تفضل الرموز.

القدس الآن هي الآن قدس اللاهوت.

العالم معني ب"وضع" القدس، بفكرتها وأسطورتها.

أما حياتنا في القدس وقدس حياتنا ،فلا تعنيه.... إن قدس السماء ستحيا دائما....أما حياتنا فيها فمهددة بالزوال .

إنهم يحددون عدد الفلسطينيين فيها ،وعدد البيوت الفلسطينية،والنوافذ والشرفات والمدارس والحضانات،وعدد المصلين في يوم الجمعة والأحد.... إنهم يحددون للسائح من أين يشتري هداياه،وأي أزقة يسلك،وأي البازارات يدخل.

الآن،نحن لا نستطيع دخولها سائحين ولا طلابا ولا عجائز.

الآن،لا نقيم فيها ولا نرحل.
الآن،لا يستبد بنا السأم فيها فنهاجر منها إلى نابلس،أو الشام،أو بغداد ،أو القاهرة ،أو أمريكا.
الآن،لا نستطيع أن نكرهها بسبب غلاء الإيجارات مثلا.
الآن،لا نستطيع أن نتذمر منها كما يتذمر الناس من مدنهم وعواصمهم المملة المرهقة.
أسوأ ما في المدن المحتلة أن أبناءها لا يستطيعون السخرية منها.... من يستطيع أن يسخر من مدينة القدس؟
الآن لا تصلنا المكاتيب على عناويننا فيها.
أخذوا عناوين بيوتنا وغبار أدراجنا.
أخذوا ازدحامها وأبوابها وحاراتها.
أخذوا حتى ذلك المبغى السري الذي كان يثير خيالاتنا المراهقة في حارة باب الحطة،بغانياته البدينات كتماثيل الهند.
أخذوا مستشفى المطلع،وجبل الطور الذي سكن فيه خالي عطا وحي الشيخ جراح الذي سكنا فيه ذات يوم.
أخذوا تثاؤب التلاميذ فوق مكاتبهم ومللهم من الحصة الأخيرة يوم الثلاثاء.
أخذوا خطى جدتي في طريقها لزيارة الحجة حفيظة وابنتها الحجة رشيدة.... أخذوا صلاتهما وغرفتهما الفقيرة في "البلد القديمة".... أخذوا الحصيرة التي كانتا تلعبان عليها البرجيس والباصرة.
أخذوا ذلك الدكان الذي كنت أسافر إليه خصيصا من رام الله لشراء حذاء من الجلد الممتاز،وأعود للعائلة بفطائر من حلويات "زلاطيمو"،وكنافة من حلويات "العكر".وبعد ستة عشر كيلومترا في باص بامية،وبأجرة خمسة قروش ،أعود إلى بيتنا في رام الله مزهوا متباهيا.... فأنا عائد منها،من القدس.
الآن لن أرى قدس السماء ولن أرى قدس حبال الغسيل...لأن إسرائيل متذرعة بالسماء احتلت الأرض.

-صديق لك اسمه أبو نائل على التليفون.
ناداني أبو حازم.... أسرعت للرد... اتفقنا أن نتقابل في منتزه رام الله. ذهبت مع حسام فوجدناه قد سبقنا واختار طاولة رغم ازدحام المكان.
سأله حسام:
-كيف شايف الأوضاع يا أخ "أبو نائل"؟
قال:
-أنا حسمتها بسرعة وبلا أي تردد ونحن في تونس... قالوا حسب أوسلو سيسمح بعودة بعض الناس....وسألوني عن موقفي.
قلت لهم:

-اسمعوا،الموافق مكانه هناك(يقصد هنا).... والمنافق مكانه هناك.... والمعارض مكانه هناك.... احسبوني في أي خانة تشاؤون فأنا سأذهب.... ولا فرق عندي أن أذهب لأكون في السلطة أو في الشارع أو في السجن...أنا سأذهب.... وجئت بالفعل.

قدمت له سيجارة فردها معتذرا:

-تركت التدخين.

-وكيف نجحت؟

-أنا أتعب جدا من تغيير سجائري...تعرف أني أدخن الروثمان، في السنين الأخيرة صار سعر الروثمان في تونس غالي جدا... فوق طاقتي... تركت التدخين كله.

سأله حسام عن عمله الآن.

أبو نائل عمل لسنوات طويلة سفيرا لفلسطين لدى الصين واثيوبيا وإيطاليا.

قال:

-في وزارة الشؤون الاجتماعية، هنا في رام الله.

بعد ذلك انتقلنا إلى حديث الأدب.... أبدى إعجابه برواية غرناطة لرضوى وبالتالي عرجنا على قضايا الشعر فهو صاحب ذائقة متميزة وقارئ مدمن.

-الله يكون في عون أهلنا يا رجل... لا كتب ولا مكتبات ولا جرايد ولا مجلات كله ممنوع....أدخلت معك شيء من دواوينك؟

-أحضرت ثلاث نسخ من الدواوين الأخيرة.

فجأة قفزت "مكتبة" صندوقة إلى مخيلتي.

كانت قريبة من عمارة اللفتاوي.... كنت أدخلها يوميا وأندس بين أرففها للفرجة على الكتب... أحب رائحتها وألوانها وملمسها... في سنوات الدراسة الابتدائية والإعدادية، كنت آخذ كتابا عن أحد الأرفف،أتصفحه فإذا شدني قرأت منه خلسة بضع صفحات وأعدته إلى مكانه لأعود إليه في اليوم التالي.

هكذا قرأت أول مختارات من الشعر العربي الحديث...وفيه قصائد لبدر شاكر السياب فاندهشت لاختلاف أجوائها وشكلها وموسيقاها عن القصائد العمودية التي كنت أحاول كتابتها في تلك الأيام.

وهناك قرأت صفحات من مجلات وكتب تتحدث عن الجنس والزواج وبدأت أتلمس ذكورتي من خلال أجوائها التي لا ترد في القاموس العائلي او الاجتماعي الذي يحيط بي.كنت أرى روايات لنجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله ويوسف السباعي وروايات ضخمة الحجم لإحسان عبد القدوس.... وكتب ارنست همنجواي وجان بول ارتر وسيمون دي بوفوار وألبرتو مورافيا وكولن ولسون...ومجلة الآداب.

كنت أترك رأسي يغوص في الكتاب كرأس خروف في العشب الأخضر إلى أن جاءني صاحب المكتبة ذات يوم وجرني من يدي إلى طاولته.

حدق برهة في وجهي ثم قال:

-يا أخي ارحمني... والله العظيم انك بتداوم في المكتبة أكثر مني أنا....وبعدين معك؟
بعد أيام طويلة عدت إليه واشتريت "البؤساء" لفكتور هوجو... لا لشيء إلا لأظهر له أنني قارئ متين وخطير وأنني لا أداوم في مكتبته للتسلية والفرجة على الصور العارية (مع أن هذا الأمر كان أيضا من بين أغراضي الخفية طبعا.)
في تلك الليلة والنهار الذي تلاها قرأت كتاب البؤساء كله دفعة واحدة،ولكن في بيتنا هذه المرة.
كان هذا أول كتاب اشتريه من مصروفي الشخصي... وقد حرمني ذلك من سندويشات الشاورمة العجيبة التي تنبعث رائحتها من مطعم "أبو اسكندر"الذي كنا من زواره كل مساء،لنتجنب العشاء العائلي المتكرر،ونشعر أننا في نزهة مستقلة في مساءات رام الله البديعة.... كم موهبة انكسرت منذ النكبة في هذه البلاد؟
كم مدينة ذبلت؟
كم دارا لم يصنها أحد؟
كم مكتبة كان يمكن أن تتأسس في رام الله؟كم مسرحا؟
الاحتلال أبقى القرية الفلسطينية على حالها وخلف مدننا إلى قرى.
إننا لا نبكي على طابون القرية بل على مكتبة المدينة... ولا نريد استرداد الماضي بل استرداد المستقبل ودفع الغد إلى بعد غده.
اندفاع فلسطين في طرقات مستقبلها الطبيعي أعيق بفعل فاعل،كأن إسرائيل تريد أن تجعل الجماعة الفلسطينية كلها ريفا لمدينة إسرائيل.... بل إنها تخطط لرد المدن العربية كلها إلى ريف مؤبد للدولة العبرية.
هل يعقل أن أذهب إلى الحسبة،سوق الخضار في رام الله، بعد غياب ثلاثين سنة فأجدها على حالها الذي كان رثا منذ ثلاثين سنة وكأن الباعة لم يغيروا صناديقهم ولا ملابسهم ولا يافطات أسعارهم؟ وهل يعقل أن أجد أرضيتها كما كانت تماما،كسطح المستنقع، لزجة ،غامقة اللون، مغطاة بالبقايا والقشور والعفن الملون؟
وهل يعقل أن أتأمل واجهات المباني المطلة على الشارع الرئيسي، فأجدها تكاد تشبه أرضية الحسبة؟
لم أذهب إلى القد ولا إلى تل أبيب والمدن السياحية لكن الجميع يتحدثون عنها كقطعة من أوروبا في تنسيقها وخضرتها و مصانعها ومنتجعاتها.
ركضوا بكل ما لديهم إلى الأمام واتخذوا كل التدابير اللازمة ليطمئنوا أننا نظل نركض إلى الخلف.
كنت أتأمل الحال مع كل مشهد تراه العين وكل كلمة تسمعها الأذن...هنا،من هنا يمكن أن تكون الحقائق تجسيدا لا تجريدا،إنها تبني ذاتها على تراب الواقع، لا على سراب الأفكار المسبقة.
هنا تعود الفكرة إلى جسدها.

غادرنا منتزه رام الله وافترقنا...عدت بصحبة حسام إلى البيت مشيا على الأقدام...رام الله الموزعة على هذه الربوات والتلال الخضراء لها نكهة قرية... اتصالها المباشر بالبيرة قد يعطي انطباعا بأنهما معا يشكلان مدينة.... لكن جو الحياة في رام الله والبيرة معا يظل جوا ريفيا.

علاقات الناس ببعضهم هنا هي علاقات الريف... ا لعائلات تعرف بعضها فردا فردا...معظم المارة في طرقاتها ينادون على بعضهم بالأسماء... بعد أن تجمع فيها عدد كبير من العائدين من الشتات مع السلطة الفلسطينية الجديدة، بدأت بالتدريج تتخذ لها صفة من صفات المدن التي بطبيعتها ملتقى للغرباء.

الملفت في حالة رام الله أو البيرة أن الغرباء هنا ليسوا غرباء على الإطلاق.انهم الأبناء الغائبون وقد أصابتهم الغربة،وأبناء القرى المحيطة،وأبناء المدن الضائعة منذ النكبة في ؟؟؟؟ ،الذين اختاروا العودة إليها والإقامة هنا تحديدا وفي الضواحي الآخذة في التمدد التدريجي،توخيا لملامح ليبرالية في الأفق الاجتماعي ولطراوة المناخ وجمال الطبيعة .ثم إنها تكاد تلتصق بالقدس جغرافيا... والقرب من القدس بديل مؤقت لاحتمال حرمان الفلسطينيين منها في نهاية المطاف.

قال حسام إنه قد يسافر إلى عمان بعد أسبوعين.

-خير؟

-عرس سليمان... قرروا يعملوا العرس في عمان.

-أي سليمان؟

-ولو!ابن أخت سهى يا رجل... ابن سامة

-لكن سليمان وعروسته عايشين هون في الضفة.

-خالاته وقرايبه وقرايب العروسة برة.... وأهل والده في القدس.... لا تصاريح ولا إذن زيارة.... اللقاء في عمان أسهل لمعظم الناس.

-أما حالة!

عندما تزوجت "اعتقال"من "روبرت"في بودابست كنت أظن أن زواج الغرباء هو الذي يتم في المنافي البعيدة،كنت أظن أن الوطن هو الدواء الوحيد للكدر المكتوم الذي كنت أقرأ محاولاتها لإخفائه عني وعن العريس وعن المدعوين.

هل الوطن هو الدواء حقا لكل الأحزان؟وهل المقيمون فيه أقل حزنا؟

تعرفت على إعتقال في بودابست ضمن من تعرفت عليهم من المهاجرين العراقيين... قالت لي في لقائنا الثاني:

-أنت الوحيد اللي ما تندرت على اسمي... كل من يسمعه يسألني عن هذا الاسم العجيب إلا أنت... كملت حديثك دون أن تضطرني للشرح والتفسير.

قلت لها مداعبا:

-"ولكن يبدو أنك راغبة في الشرح رغم ذلك!

تصادقنا.

أنا أتجنب السلوكات الجاهزة والمفروغ منها عادة... بالاضافة إلى ذلك فإنني فيما يتعلق بالمرأة لا أعلق إطلاقا على مظهرها الخارجي... ولا أقول لها كلما قابلتها،"أنت مشرقة اليوم" أو"ما هذا الجمال والسحر!"وبقية الكليشيهات الأخرى.

طال مكوثنا في المجر وتخرجت اعتقال وحصلت على الدكتوراه في مجال السنيما وكانت تترجم لبعض المجلات الأدبية في بودابست.
كانت تجلس بالساعات تحكي لرضوى ولي عن أمها في العراق وعن أشقائها وعن غربتها في بودابست.
جاءتني ذات مرة بعد تعرفنا بسنوات لتبلغني بأنها ستتزوج من محام مجري اسمه روبرت،وأنها تريدني وكيلا عنها في مراسيم الزواج.ولم أضطرها لشرح الظروف التي دفعتها لتجاوز كل زملائها العراقيين في المجر،لتلجأ لي بالذات لتزويجها،ولتختارني من بين كل من تعرفهم في هذه الغربة،وليا لأمرها.
وهكذا وجدتني في أعجب أوضاع الغريب!
اصطحبها في سيارتي التي زينتها بالورود،إلى مكتب عقود الزواج في الحي الحادي عشر في بودابست... ووجدتني أهتم بارتداء بدلة رسمية كحلية اللون وأهيئ نفسي لحدث لا يتكرر كثيرا بل ومن النادر أن يحدث لشاب ما زال في الثلاثينات من عمره... هي ارتدت فستان العرس الذي استأجرته من محل متخصص،واحتضنت في حجرها باقة صغيرة من الزهور البيضاء والصفراء.
عندما انطلقنا بالسيارة كان الرذاذ المسائي الخفيف يلمع قطرة قطرة على أضوائها الأمامية... وكنا،أنا الذي لا شقيقة لي،واعتقال،التي تصطحبني لأزوجها في الغربة،نتبادل نظرات اعتراف كل منا بالجميل الذي يسديه للآخر.
أمام مكتب العقود كان المطر ينهمر بشدة فوق رؤوسنا ونحن نقطع الرصيف العريض إلى القاعة.
كان روبرت بالغ السعادة في ذلك المساء ولم ينتبه للدموع التي لمعت في عيني اعتقال بشكل مباغت .
التفتت إلي فاتضحت دموعها أكثر.
-أمي كانت تقول لي لا تخلي المي تفور من القدر أحسن تتزوجين بالمطر... شفت يا مريد ،دا تشتي.
جلسنا أمام موثقة العقود التي كانت ترتدي العلم المجري وشاحا عل صدرها... كنت أرغب في الضحك من كل هذا المشهد الذي وضعت فيه! لكن الرعشة في صوت اعتقال وهي تقول باللغة المجرية "إيجان" أي "نعم" نقلتني فورا إلى حالة لا ينفع معها الضحك... وضعت توقيعي على العقد.
غادرنا القاعة إلى عشاء في أحد المطاعم... كان موكب العرس قليل العدد.
سألتني اعتقال على العشاء،
-مريد،انت شفت عرس عراقي بالعراق؟

في زيارة لاحقة قمت بها إلى بودابست،بعد أن ارتحلت منها نهائيا،سألت عن اعتقال وروبرت وزرتهما.
عرفاني على طفلتهما الوحيدة"هانا" التي تقول عن القطة "بزونة"وتتحدث معي باللهجة العراقية الأصلية وتسألني إن كنت أحب "كارمينا بورانا" لكارل أورف!
أعرف جيدا أن أعراس المنفيين ليست كلها كذلك.

بعض أعراس المنافي تكون باذخة واستعراضية إلى درجة الابتذال، لكن عرس اعتقال كان درسا في الوحشة والشعور بأنك "قليل"، بلا عزوة وبلا تاريخ يسبق وجودك هنا والآن.

كان المسكوت عنه الذي يدور في الأذهان قاسيا،المكتوم يمعن في التواري ليفسح المجال للفرح المعلن.... وكانت اللحظة في النهاية لحظة فرح لا بسبب حالتنا بل بالرغم منها... لكنني لم أقل لها شيئا من هذا... وهل كنت أو كانت هي بحاجة للقول؟!

الغرباء يلتقون بالغرباء... وتجربة الموجوعين العرب علمتني أن وجعي كفلسطيني هو جزء من كل... وتعلمت أن لا أبالغ فيه.

كل من كتب عليهم المنفى يتقاسمون الصفات ذاتها... ففي المنافي تختل المكانة المعهودة للشخص.

المعروف يصبح مجهولا ونكرة.

الكريم يبخل.

خفيف الظل ينظر ساهما.

الشكوك التي تحوم حول حظوظ المحظوظين منهم تتحول إلى مهنة من لا مهنة له إلا مراقبة الآخرين.

كانت أوروبا التي أقمت في وسطها سنوات وتنقلت فيها شرقا وغربا تغص بهم، من كل البلدان العرب... لكل منهم قصة لا أستطيع كتابتها... وقد لا يستطيع كتابتها أحد... هدوء المنافي وأمانها المنشود لا يتحقق كاملا للمنفي... الأوطان لا تغادر أجسادهم...حتى اللحظة الأخيرة، لحظة الموت.

"السمكة"،

حتى وهي في شباك الصيادين ،

تظل تحمل

رائحة البحر!

إن قصص الأوطان المجروحة كقصص المنافي الآمنة،لاشيء في الجهتين يتم على هوى الضحايا.

أتذكر فيلم ميشيل خليفي "عرس الجليل" الذي يصور مناظره وأحداثه في "دير غسانة" والذي يدور حول عرس يراد له أن يتم على أروع وأكمل وجه،ولكن الأحداث تتطور في اتجاهات معاكسة للآمال المرجوة باستمرار...لنكتشف أن لاشيء يتم على ما يرام في واقع كالواقع الذي ينسجه الفيلم،الواقع المجرح،واقع الاحتلال.

في المنفى لا تنتهي الغصة... إنها تستأنف.

في المنفى لا نتخلص من الذعر ... إنه يتحول إلى خوف من الذعر.

ولأن الملفوظ من بلده محبط والهارب من بلده محبط، فإن المجموعات المنفية لا تستطيع أن تتجنب التوتر و"النرفزة" في التعامل اليومي فيما بين أفرادها.

عيونهم يقظة دائما لتقييم بعضهم البعض... مشاعرهم وهواجسهم الساخنة إزاء ذويهم المتروكين في الوطن لا تجد لها أملا ممكنا إلا محاولاتهم الواعية لتبريدها عمدا،فيبدو الشخص منهم قاسيا رغم رقة طبعه ورهافته... وعندما تستيقظ العاطفة لسبب ما، أو حتى بلا سبب، خذ ما تشاء من الحزن!

وكما أنهم تخلصوا من وضع لم تكن فيه الأمور على ما يرام، فانهم يكتشفون أن الأمور في المنفى أيضا لا تتم على ما يرام.

**انتهى الجزء السابع**

## الجزء الثامن

**"لم الشمل"**

عدنا إلى البيت لنجده مكتظا بالضيوف وأبو حازم يقول:

-وينك يا رجل؟ قلقنا عليك... وين أخذته يا حسام؟ رضوى وتميم اتصلوا من مصر وام منيف من عمان والبيت مليان.... وسأل أكثر من واحد بالتليفون.

كنت طلبت من رضوى أن ترسل لي بالفاكس صورة عن شهادة ميلاد تميم لاستكمال طلب التصريح الخاص به.... وأعطيتها رقم فاكس وزارة الثقافة... أكدت أنها أرسلته.

في صباح اليوم التالي ذهبت للحصول عليه.

التقيت بالأصدقاء يحي يخلف ومحمود شقير وعلي الخليلي ووليد وقيل لي إن الوزير موجود فدخلت للسلام عليه، وكان في اجتماع مع عدة أشخاص، عرفت من بينهم الدكتور حنا ناصر رئيس جامعة بير زيت الذي حياني وقال مداعبا "أهلا بالمعارضين".

في الوزارة دار نقاش مستفيض حول موقف المثقفين المصريين من التطبيع ومن العلاقة مع إسرائيل.

قلت فيما قلت إن من أجمل مواقف المثقفين المصريين موقفهم من هذه المسألة... وان من مصلحة القضية الفلسطينية أن نؤيد جهودهم في هذا الإتجاه... وان نكون سعداء باستمرارهم في هذا الموقف... هم بذلك يخوضون معركتهم الثقافية المصرية والعربية ومعركتهم ضد تبعات كامب ديفيد وضد سياسات إسرائيل التي تتجبر فينا هنا.

يجب ألا ننسى أن الحركة الطلابية المصرية العظيمة التي بلغت أوجها عام ؟؟؟؟ في اعتصام جامعة القاهرة ولدت من رحم "جماعة أنصار الثورة الفلسطينية" بكلية الهندسة في تلك الجامعة... وان القضية الفلسطينية كان تمحور نضالات الشباب المصريين وسببا في تشكيل مصائر العديدين منهم وتكوينهم الفكري والثقافي.

قلت أيضا إن العالم كله يمارس ضغوطا ضد الفلسطينيين في الحرب وفي السلام ، بينما لا أحد يضغط على إسرائيل ... نذهب للتفاوض،نطلب خطوة من رئيس وزرائهم فيرفض... "نحرد" ونغادر الجلسة ونشكو أمرنا لزوجاتنا ولبعض الصحفيين الذين لا يملكون من أمرهم شيئا بينما السيد رئيس وزراء إسرائيل يغادر مائدة التفاوض لينام في ... القدس !

من منا في الوضع الأصعب هنا؟ ألا يستحق العدو شيئا من الصعوبة؟

طلب مني أصدقاء أن أقدم لهم مخطوطة من أشعاري لطباعتها... فضلت أن يضم أول كتاب لي يصدر في الوطن مختارات من شعري وليس ديوانا واحدا.

القطيعة بين شاعر الغربة وأهل بلده تكون كاملة أو شبه كاملة ،فهي لا تعتمد على الكتب... إسرائيل كانت تمنع إدخال معظم المؤلفات الفلسطينية والعربية نثرا شعرا... قصاصات الصحف وبرامج الإذاعات والتلفزيونات العربية والكتب القليلة المهربة كانت تشكل نوعا من الحل.

وعدت الصديق محمود شقير أن أترك له قبل مغادرتي مجموعة من القصائد المختارة وقد طبعوها بعد شهور بالفعل وصدرت عن وزارة الثقافة بالتعاون مع دار الفاروق بنابلس ... أخيرا عاد مني الصوت أو بعضه إلى أصحابه ومكانه.

توجهت إلى المركز وكررت شكري "لأبو ساجي" على عنايته واهتمامه وأعطيته شهادة ميلاد تميم...
-اطمئن...إ ن شا الله خير... اترك لي تليفونك وعنوانك في عمان أو في مصر وأنا أول ما تصل الموافقة بخبرك بنفسي.
-بإمكانك أن تتصل بأنيس أيضا... هو عارف طريقي ولكن متى تتوقع صدور الموافقة؟
-يمكن تتأخر... انت مستعجل جدا؟
-تميم جاي لعمان بعد أسبوعين أو ثلاثة .... أنا راجع إلى عمان بكرة ... إذا وصل التصريح بسرعة سأرجع إلى رام الله ومعي تميم... المهم يوصلنا التصريح قبل بداية العام الدراسي لأن تميم وراه الجامعة زي ما انت عارف.
ودعته وخرجت.

تميم سيعيش هنا ذات يوم...ذات يوم كنت أشارك في ندوة في فينا ... غادرت مقعدي لاجراء مقابلة صحفية سريعة وعدت لأجد سيدة تجلس مكاني فإذا بها المحامية الإسرائيلية فيليسيا لانجر المتخصصة في الدفاع عن المعتقلين الفلسطينيين.
أدارت رأسها إلى الخلف ،رأتني واقفا ،فقالت:
-يا إلهي ! نحن متخصصون في احتلال أماكن الفلسطينيين حتى ولو في النمسا!
كنا في أسوأ فترة في الثمانينات حيث وصلت حرب المخيمات الفلسطينية في لبنان إلى أقذر مراحلها .... المنظمة متشرذمة تتحارب فيها الفصائل بهمجية.... شهداء صبرا وشاتيلا يموتون للمرة الثانية ببنادق الطرفين الفلسطينيين ومن يناصرهما.... وأضيف لهم أيضا شهداء جدد من المخيمين ومن برج البراجنة.
الأبرياء يقتلون بلا هدف معلن.
كنا في استراحة بين الجلستين على مائدة واحدة في بهو فندق المؤتمر،قياديان من الحركة الوطنية اللبنانية والسيدة لانغر ويفجيني بريماكوف خبير الشؤون العربية في الاتحاد السوفييتي وصديقان من السويد.
جاء من يخبرنا بأن مفتي لبنان حلل لأهالي المخيمات في بيروت أكل القطط والكلاب.... لم أكن متأكدا مما إذا كان الخبر حقيقيا أو مجرد استغاثة أخرى عبر وسائل الإعلام،لوضع حد للجحيم الذي بدا بلا نهاية .... لكن تراكم التوتر مما وقع في المخيمات طوال الأيام الفائتة وعبثية الاقتتال والقتل،استحضرت ذلك الشعور باختلاط المأساة بالمسخرة مرة أخرى.
قلت لفيليسيا:

-أين نذهب يا ناس؟ هل تقبلينني لاجئا في "بلدكم"؟

تعمدت استخدام هذا التعبير كأنني أريد أن أعرف كيف تنظر هي إلى "بلدنا".... كنت أشير متهكما إلى مسؤولية إسرائيل عن وجودنا في صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة... عن وجودنا في مخيمات أصلا... وعن وجودنا دون إرادتنا في بلاد الآخرين... وعن شكل مصيرنا كله في فلسطين وفي الشتات.

توقعت منها (نتيجة لمواقفها المعروفة والمساندة لنا)أن تلطم خديها مثلا،أن تتأمل عبارتي قليلا فتعتذر عن جرائم دولتها ضدنا.... فإذا بها تفشل في التقاط المرارة المدوية والنبرة الهستيرية في عبارتي ويأتيني ردها مذهلا كصفعة على وجه كهل نائم:

-يا ريت ! لكن قوانين حكومتنا لا تسمح بذلك!!

الإسرائيلي قد يتعاطف معنا،غير أنه يجد صعوبة عظيمة في التعاطف مع "قضيتنا " ومع روايتنا.... إنه قد يمارس رأفة الغالب بالمغلوب،وقد يشبه العدو من يعاديه،وفي فلسطين تطابق الشبه واكتمل:المكان للعدو ... المكان لنا... الرواية روايته والرواية روايتنا... أقصد في نفس الوقت.

لكنني لا أقبل الحديث عن حقين متساويين في الأرض ،لأنني لا أقبل أن يدير اللاهوت في الأعالي الحياة السياسية على هذه الأرض.

ورغم ذلك كله فلم أكن ذات يوم مغرما بالجدال النظري حول من له الحق في فلسطين... فنحن لم نخسر فلسطين في مباراة للمنطق! لقد خسرناها بالإكراه وبالقوة.

عندما كنا نحن في فلسطين،لم نجفل من اليهودي... لم نكرهه ولم نعاديه ... كرهته أوروبا العصور الوسطى،ولم نكرهه نحن.... كرهه فارديناند وإيزابيلا ،ولم نكرهه نحن... كرهه أدولف هتلر،ولم نكرهه نحن... عندما طلب مكاننا كله ونفانا منه،أخرجنا وأخرج نفسه من قانون التساوي،صار عدوا ... وصار قويا...صرنا غرباء وضعفاء.

أخذ المكان بقوة المقدس وبقداسة القوة... بالخيال وبالجغرافيا.

هل أستطيع أن أحفظ حق تميم في هذا المكان؟

فليدخل هذا الصيف،ليدخل بعد صيفيين أو ثلاثة،ليدخل بعد عشرين صيفا.... المهم أن يكون من حقه أن يعيش هنا ذات يوم.... حتى لو اختار الغربة بعد ذلك.... فالغريب الذي يستطيع العودة إلى مكانه الأول يختلف عن ذلك الذي تلهو به غربته لهوا دون أن يكون مستشار نفسه .

أنظر إلى أبوتي لتميم وأتذكر أبوة أبي لنا... لعله كان أكثر حنانا علينا؟ أم أننا ببساطة جيل يتجنب،عن قصد ،إظهار كل عاطفة أمام الآخر، حتى أمام الإبن ؟

لعله تهرب ناجم عن حساسية من نوع آخر... كأننا ،بكتمان العاطفة الصاخبة ،نريد أن نقترح نموذج التحمل والقدرة على مواجهة مفاجآت الأيام...نقترح ذلك على الأبناء وعلى أنفسنا قبلهم... كأننا نختار الجانب العملي في التعبير عما بداخلنا ونتجنب عمدا تشجيع أبنائنا على الوضوح العاطفي.

عندما كنت أودع رضوى وتميم في مطار بودابست لم أكن أكف عن المداعبة والحديث بصوت مرتفع نسبيا في كل الأمور إلا في الموضوع الذي يشغل بالنا جميعا،وهو رحيلهم الوشيك.

كلن وداع أبي أو أمي لأي ولد منا مشهدا شديد الوطأة على الجميع... عندما ودعنا منيف المسافر للعمل في قطر،فوجئنا بالوالدة تسقط من بين أيدينا على بلاط مطار قلندية وقد أغمي عليها، وفقدت الوعي والنطق لدقائق،مما سبب لنا ،نحن الأولاد الصغار،هلعا وارتباكا وفوضى.

و كان أبي يكتب لي رسائل مؤثرة لا أعرف كيف أتجنب الاضطراب بعد قراءتها.

أعامل تميم معاملة زميل أو ند، ولا أتبين مدى تعلقي به إلا عندما أتحدث عنه أمام أصدقائنا الآخرين ،وفي غيابه.

وحتى في التخاطب اليومي مع رضوى، يغلب الطابع الذي يواري،والذي لا يفصح بالمفردات اللغوية عن العاطفة... إنها"مزيج من الجمالات"،أقول ذلك للأصدقاء والصديقات،ولا أظنني قلته لها مباشرة ذات يوم... عندما أرسم صورة شعرية لها فإن القصيدة تصبح إصغاء للذات ،وليست قولا لمخاطبتها.

في الخطاب اليومي معها ومع تميم أكثر من المزاح والمداعبات والإجابات غير المتوقعة التي تصل إلى حد المناكفة ، والاستفزاز اللطيف، لكنه استفزاز...

أعجب للذين يحتفظون بصور من يحبون في جيوبهم أو محافظهم الجلدية وحقائب سفرهم... إن فعلت ذلك فلسبب عملي بحت... هذه المرة مثلا أحضرت عدة صور لتميم من أجل إرفاقها بطلب الهوية.

عندما زارت لطيفة الزيات قواعد الفدائيين في الأردن في أواخر الستينات عادت إلى القاهرة تصفهم بوصف لم أجد أعذب منه.

قلت لها كيف وجدت الناس هناك؟ قالت وهي تضحك: إنهم "أجلاف طيبون".

هل سرق اللصوص رقتنا ؟

من سرقها إذا؟

الآن ،الأجلاف الطيبون هم أطفال الانتفاضة... من أين أتوا بكل هذه الصراحة المشوبة بالخشونة؟

الذين خالطتهم منهم في نطاق العائلة والأصدقاء، وجدتهم أقل خوفا وأقل تحفظا وارتباكا منا ونحن في مثل سنهم... مهارتهم اليدوية مبهرة لشخص مثلي... قدرتهم على المحاججة والنقاش وسوق البراهين ورواية القصص، تفوق قدرة الأطفال من أمثالهم في البلدان التي تحيا في ظروف طبيعية.

هل لأنهم رأوا الكثير ؟ هل لأنهم تحملوا مسؤوليات مبكرة؟ هل هم كذلك لأن أهاليهم انشغلوا بأمور أخطر من تدريبهم على الحياة والخزبلة؟ يتحدثون في الفصائل والأحزاب ويقولون هذا فتح، وذاك حماس / وذاك شيوعي، أو جبهة ،الخ... يحفظون الأغاني والأناشيد الوطنية ويتقنون الدبكة أو يتدربون عليها ... ولا يترددون في أن يغنوا لك أغنية ،أو يرقصوا رقصة يعرفونها ،عند أول طلب أو رجاء يوجه لهم،لا أريد أن أقول إنهم أفذاذ أو عباقرة ،ولكني أريد أن أشير إلى حساسية مختلفة اختلافا بينا عن مألوف الطفولة كما عشناه نحن.

كان أبي يستدعيني أحيانا أمام ضيوفه لأسمع نشيدا مدرسيا مثلا أو حتى جدول الضرب أو قصيدة مقررة من نوع "عصفورتان في الحجاز حلتا على فنن"، فأشعر برغبة في الهرب من الدار كلها! وأخترع كل الأعذار الممكنة لأتجنب ذلك الموقف.

أما "حبوب" فقد جلس ملتصقا بي على الكنبة في برندة جده "أبو حازم" وقال لي مباشرة وبدون مقدمات:

-أغني لك أغنية يا عمو؟

وفي يوم آخر قال لي:

-أنا رايح أشتري بسكوت... شو بتحب أشتري لك؟ معي مصاري.

وأخرج "أمواله" من جيب بنطلونه القصير،ليبرهن لي على صحة تصريحاته وأضاف بعد أن قبلته شاكرا:

-أنا باحكي كلام جد.

-أنا اللي بدي أشتري لك هدية... قل لي شو اللي بتكون سعيد لو أهديتك اياه؟

فإذا به يجيبني بسرعة:

-تعال نام عندنا .... ليش انت دايما عند بيت جدو أبو حازم؟

قلت "لأبو يعقوب" ان ابنه لطيف جدا ،وحكيت له عن دعوته لاستضافتي، وحماسه لشراء شيء لي من الدكان... فقال لي وهو ينظر إلى الولد نظرة تمزج الإعجاب المستتر والتلميح التربوي:

-هذا الولد أزعر! كل يوم بيرجع من مدرسته بمشكلة،إما ضارب ولد أو مجنن الأستاذ!

نعم.

لعل هذا ما أردت أن ألخصه حول طفل الاحتلال:

الشخصية المركبة التي تجمع شفافية المشاعر واقتحامية السلوك.

الفزع والجرأة،

الهشاشة والغلظة.

تساءلت مجددا عن ذلك الركام المسمى "شعر الحجارة" والقصائد التضامنية مع "أطفال الحجارة".

إنه التسطيح الذي يأخذ القريب والسهل من كل حالة إنسانية فيطمسها بدلا من أن يظهرها،ويسئ إليها في نفس اللحظة التي يزعم فيها لأنه يمجدها.

إنه الفرق الأبدي بين العمق والضحالة.... إنه الفرق بين الفن وحصص الإنشاء السياسي... واللافت للنظر أن الكتاب الذين عاشوا تحت الإحتلال وعاشوا الانتفاضة ،وقعوا في نفس الخطأ الذي وقع فيه كتاب الخارج،ففشلوا ،مثلهم ،في النفاذ إلى جوهر مادتهم الشعرية حتى وهم يكتبون تجاربهم الحية.

قلت لنفسي إن المسألة في جوهرها تكمن في شرط المعرفة الأكثر دقة بالحياة،وفي النضج الإنساني الذي هو أساس كل نضج فني... وهي سمات لا يقوم عمل فني مدهش بدونها ،بغض النظر عن التجربة المعاشة.

المهم هو تلك البصيرة النافذة والحساسية الخاصة التي نتلقى بها التجارب وليس التواجد في موقع الأحداث فقط... فهذا ،على أهميته ،لا يكفي للفن... قلت لنفسي إن الفن متطلب... الفن طماع.

لقد عشنا غربتنا في بلاد الآخرين ، وعايشنا غرباء يشبهوننا ،فهل كتبنا غربتنا ؟ ما الذي يجعل قصتنا ،نحن بالذات، جديرة بأن يصغي لها العالم؟

ومن يصغي لقصص أولئك الرجال والنساء والأطفال الذين أخذتهم الغربة إلى الضفة الأخرى التي لا يعود منها أحد، ضفة الموت "الأشهب المبتل"؟ لقد تبعثر موتانا في كل أرض. .. وفي أحيان لم نكن ندري أين نذهب بجثثهم والعواصم ترفض استقبالنا جثثا كما ترفض استقبالنا أحياء.

وإذا كان موتى الغربة وموتى السلاح وموتى الإشتياق وموتى الموت البسيط شهداء، ولو كانت الأشعار صادقة وكان كل شهيد وردة ،فيمكن لنا أن ندعي أننا صنعنا من العالم حديقة.

هذه ليلتي الأخيرة في رام الله.

قدمت طلب بتصريح لم الشمل لتميم وشعرت أن هذه الخطوة تعد وحدها إنجازا وهي كذلك بالفعل.

مر اليوم مزدحما بالضيوف من الأهل والأصدقاء والجيران والزملاء تختلط فيه الأحاديث وأنا أحاول أن أكون الطرف الذي يسمع، لا الذي يتكلم.

أخرجت أوراق "منطق الكائنات" ودخلت إلى سريري... في الغرفة ،الصمت كامل كأنه دائرة مرسومة في كتاب... منذ فترة وأنا أميل للإصغاء.

"منطق الكائنات " كله قائم على أن الكائنات من جماد ونبات وحيوان وإنسان هي التي "تقول"... ودوري هو الإكتفاء بالإصغاء إلى أقوالها.

في ديواني الأول كنت أقترح على البشرية أمرا لا أقل من "الطوفان وإعادة التكوين"... كنت في العشرينات من عمري... إنه السن المناسب تماما للتأكد من الحكمة!

كنت أكتب الشعر في الجامعة ثم في الكويت التي اضطرني خالي عطا إلى الذهاب إليها عندما التقيته في ال؟؟ في مصر لرعاية أسرته... كنت أتملص من البقاء هناك.

كنت أريد أن أواصل اهتمامي بالشعر والأدب... نشرت في مجلات"الآداب" و"مواقف" و"الكاتب".

لرضوى يعود الفضل الأكبر في اتخاذنا قرار ترك الكويت نهائيا والسفر إلى القاهرة... كنا تزوجنا سنة ؟؟؟؟ وبعد أقل من عام واحد غادرنا الكويت نهائيا... قررنا السفر إلى بيروت والبقاء فيها بضعة أيام، قبل أن نركب الباخرة إلى الإسكندرية فالقاهرة...في بيروت نزلنا في فندق الحمراء..زمن غلاف أحد الدواوين أخذت رقم تليفون "دار العودة".

- ألو ،الأستاذ أحمد سعيد محمدية؟

- نعم

- أنا اسمي مريد البرغوثي و..

- يا أهلا بالشاعر ... إنت بتحكي من بيروت؟

كانت رضوى بجانبي في الغرفة وضعت يدي على سماعة الهاتف وقلت لها مندهشا:

- بيقول لي أهلا بالشاعر!

كنت أظن أنني بحاجة لمقدمة ذكية وطويلة لطلب موعد للقائه وطرح فكرة نشر ديواني الأول في الدار المرموقة التي هو صاحبها ومديرها... وكنت وأنا المقيم في الكويت أظن أن أحدا لم يسمع بي في بيروت،عاصمة الشعر العربي... ثم واصلت حديثي:

- أنا في فندق الحمرا.

- شرف اشرب فنجان قهوة... أكيد عندك ديوان...هاته معك.

في دقائق وافق على نشره وصدر بالفعل في يناير؟؟؟؟ كنت أعطيت نسخة أخرى من المخطوطة لمنى السعودي لتصمم لي غلاف الديوان... رسمته بالفعل... لكنها وضعت عليه أم منيف البرغوثي بدلا من مريد البرغوثي!

بالطبع لم يكلف صاحب الدار نفسه إعادة تصميم الغلاف فظهر الديوان وقد أخفي اسم منيف بمستطيل من الحبر الفضي وكتب اسمي فوقه.

ما يزال بوسع المدقق أن يقرأ الاسمين ممتزجين مع بعضهما إلى يومنا هذا.

كل ما في الأمر أن منى كانت تعرف منيف ولا تعرفني قبل لقائي بها ويبدو أنها سهت أو اختلط عليها الأمر.

المهم أن امتزاج اسمي واسم منيف بهذه الصدفة العجيبة اكتسب عندي وعنده بعدا رمزيا محببا،مما خفف من قبح الغلاف.

أحاول أن أنام... لا أنام...

أكتب شذرة من هنا وشذرة من هناك.

ملاحظات عابرة ،تلخيصات سريعة لمناقشة ما... عندما أطفئ النور أغمض عيني تبدأ ثرثرة العمر تعلو في هذه الغرفة الهادئة المعتمة.

هواجس وأسئلة وصور عن الحياة التي مرت والحياة التي تنتظرني وتنتظرنا.

انهماك النهار يتحول إلى الليل إلى وطأة وثقل.

هناك شيء يطالب بأن يكتمل ولكنه لا يكتمل.

أحاول قياس المسافة التي خلفها البعد بين الأحياء هناك والأحياء هنا... وبين الأحياء والموتى هنا وهناك.

أمسك بمخطوطة "منطق الكائنات"وأقرأ:

السعيد هو السعيد ليلا،

والشقي هو الشقي ليلا،

أما النهار،

فيشغل أهله!

أحاول أن أضع الغربة بين قوسين... وأن أضع نقطة أخيرة في سطر طويل من حزن التاريخ،التاريخ الشخصي والعام...ولكني لا أرى إلا الفواصل.

أريد رتق الأزمنة معا... أريد وصل لحظة بلحظة...وصل الطفولة بالكهولة...وصل الحاضرين بالغائبين والحضور كله بالغياب كله... وصل المنفى بالوطن... ووصل ما تخيلته بالذي أراه الآن.

إننا لم نعش معا على أرضنا ولم نمت معا.

هناك ،في محطة قطارات الشمال في باريس في الحادية عشر ليلا كان منيف يترنح قبل أن يسقط على حافة الرصيف في صقيع نوفمبر ليعود لأمه ولنا في صندوق.

هذا الذي عاش بالأصدقاء وللأصدقاء وكان يحب أن يحيط حياته بالناس،يزورهم، يستقبلهم، يدعوهم، يسأل عن أحوالهم بالهاتف، هل كان يهيئ نفسه لمثل هذا اليوم الأخير،مات موتا وحيدا مستوحشا غامضا في "محطة الشمال"...لم يكن معه أحد على الإطلاق ! لا أحد.

؟ نوفمبر؟؟؟؟ كنا ثلاثتنا رضوى تميم وأنا على مائدة الغداء في بيتنا في القاهرة...رن الهاتف قمت بالرد....صوت أخي الأصغر علاء يتحدث من الدوحة... قال وهو يبكي كلمات قليلة جدا لا أذكرها.

سرت البرودة في أكتافي.

قلت كلاما لا أتذكره.

كل ما أتذكره بوضوح أن رضوى قفزت من مقعدها تسأل وهي مخطوفة الوجه عما حدث... قلت لها كأنني أكتب كلماتي على ورقة وأضع تحتها خطا لتأكيدها:

-منيف مات ... مات...

كان أحد أصدقائه قد اتصل من جنيف وقال انه تعرض لحادث في محطة "الجار دي نور"في باريس... اتصلت ببيته وبجنيف أحاول فهم أي شيء فقيل لي انه ما زال على قيد الحياة وهناك محاولة لإنقاذه...ثم قالوا لي إنه مات.... عشت في هذا التضارب قبل أن أتصل بالوالدة في عمان... أدركت أنهم أبلغوها بأنه مصاب فقط بعد حادث تعرض له.

قلت لرضوى إن أمي لن تعيش بعده... اتصلت بمجيد وعلاء في الدوحة... طلبت منهما أن لا يؤكدا للوالدة نبأ الوفاة...أردت أن أكون بجانبها عندما تتيقن من الكارثة.

قلت لرضوى إن مهمتي الوحيدة الآن هي أن أحمي أمي من الموت المفاجئ... قلت لها لو نجحنا في جعلها تعيش بعده يومين فإنها ستعيش.

المهم أن نتجاوز لحظة تلقيها الخبر... كنت أتعامل مع المأساة تعاملا غريبا... كأني رميت في زلزال وخرجت منه أبحث عن مصير أمي فيه.

كأنني تمكنت من تنحية الخبر نفسه بعيدا عني بما يتيح لي القدرة على السيطرة على زمام الأمور... لابد لأحد ما أن يسيطر على زمام الأمور.

كنت كمن هوجم فجأة... فحول نفسه فجأة، إلى غرفة العمليات يدير منها الرد المناسب على الهجوم... فكرت في الجميع في أمي وأولاد منيف وزوجته واخوتي وكان لابد من التركيز على الدور الممكن القيام به واقعيا.

طلبت من مجيد وعلاء في الدوحة أن يحصلا على تأشيرة إلى فرنسا والسفر فورا ليكونا بجانب أسرته... كان مستحيلا ان أحصل على تأشيرة من مصر... سافرا إلى باريس بالفعل... سافرت في اليوم التالي مع رضوى وتميم إلى عمان... استقبلنا حسام في المطار... حكى لنا التفاصيل:

منيف سافر بالقطار من بيته في فيجي فونسونو إلى باريس... قضى فيها بعض الأشغال ثم توجه إلى محطة قطارات الشمال ليلحق بقطار الرابعة والنصف بعد الظهر ليحمله إلى اجتماع في مدينة"ليل"... وصل متأخرا عن موعد قطاره... انتظر في المحطة ليستقل القطار التالي بعد نصف ساعة قطار الخامسة... في الحادية عشرة قبل منتصف الليل،يعثر عليه البوليس الفرنسي ملقى على رصيف المحطة ينزف دما (؟!)

ما الذي منعه من أن يأخذ قطار الخامسة؟

ما الذي أبقاه في المحطة سبع ساعات دون أن يغادرها؟

هل اختطف؟

هل هاجمه لصوص أو نازيون جدد من حليقي الرؤوس؟

هل هو اغتيال سياسي؟

هل تعرض لغيبوبة مفاجئة وهو المصاب بمرض في الكبد يعالجه منذ سنوات فطمع به بعض المارة بهدف السرقة؟

جاءت سيارة إسعاف فوجدت فيه رمقا خافتا.

حاولوا إنقاذه دون جدوى... مات بعد دقائق.

قال صاحب مقهى في المحطة إنه شوهد وهو يدخل المقهى مترنحا نازفا... ظنه الجرسون مخمورا... منعه من الدخول... دفعه إلى الخارج.

عاد يحاول الدخول مرة أخرى.

يبدو أنه أراد الإستغاثة... ربما أراد أيضا الوصول إلى التليفون مشى خطوتين أو ثلاث... سقط على مائدة يجلس عليها شابان برتغاليان... قام الشابان ودفعاه بقوة إلى الخارج... سقط للمرة الأخيرة بعد أربع خطوات من باب المقهى.

حسام يشرح كل هذه التفاصيل باكيا وبشكل متقطع ،بطيء، متعدد النبرات... قال إنهم لم يخبروا أمي بشيء.

قالوا لها إنه تعرض لحادث بالسيارة ولكنه بخير حتى الآن... قال إن الدكتور جهاد والدكتور محمد يلاحظانها باستمرار.

قال إن بيتنا ملئ بكل نساء العائلة المقيمين في عمان وإنه منعهن من استخدام عبارات التعزية:

-كلهن يعرفن... الوالدة وحدها لا تعرف... قلبها حاسس بالكارثة أكيد...لكنها متعلقة بخبر منك يعطيها أي أمل... لم نخبرها بناء على طلبك.

دخلنا من باب بيتنا الذي كان مفتوحا على مصراعيه.
نظرت إلى الصالون ...وجدت المشهد الذي وصفه حسام... بعض السيدات يرتدين ثيابا سوداء.... أمي جالسة في شبه غيبوبة ترتدي ثوبا أقرب إلى الأزرق الفاتح... بمجرد دخولنا رضوى وتميم وأنا انفجر جميع من بالبيت بالنحيب... لا أدري كيف تجنبت الإنهيار في تلك الدقائق... ولأنني نجحت في تجنبه في تلك اللحظة تحديدا فإنني لم أعد معرضا للإنهيار بعدها... خوفي على أمي وانشغالي بحماية حياتها صانني أنا أيضا.
أمي لم ترزق ببنت أبدا ... وليس لها أخت... كان وجود رضوى في عمان مهما... أمي عاملت رضوى معاملة الإبنة منذ رأتها للمرة الأولى بعد زواجنا... كنت أعرف أن وجود رضوى إلى جوارها في هذه اللحظات تحديدا سيعني لها الكثير.
اقتربت منها معانقا وأنا مرتاب في قدرتي على التماسك حتى النهاية.
-قل لي يمة شو اللي صار لأخوك ؟لابسات اسود وبيقولن انه فيه نفس. انه عايش في المستشفى ويمكن يطيب... شو بتقول لي يمة... لا تكذب علي يا حبيبي.
كنت أريد أن أصرخ عمري كله حتى أموت هنا، عند هذه اللحظة.
لم أعرف كيف أجيبها.
وجدتني أقول لها وأنا أضع رأسها على صدري ويداي تطوقانها بشدة:
-بدنا اياك تظلي عايشة... أوعديني تظلي عايشة... البسي أسود يمة.

و هناك في ضاحية سَرى قرب لندن يرقد تحت التراب البعيد وَلَدٌ من قرية الشجرة و من مخيم عين الحلوة معا هو و ناجي العلي.
قال لي شقيقي وداد و هو يجلس بجواري في السيارة التي حملتنا من ويملبدون الى طريق طويلة متعرجة عبر الغابات الانجليزية و نحن نتابع الخريطة حتى نعثر على منطقة المقبرة:
- ما الذي اتى بنا الى هنا يا مريد!
قلت له مصححا:
- قل ما الذي اتى (به) الى هنا!
و عندما وصلنا لم يكن أي واحد منا يعف الهم الذي هو حامله .. هم الصغار من اولاده ام هم وداد ام همنا الذي لا صاحب له ..هم تاريخنا كله و حكايتنا معه
و هناك في جوف تلك البئر المهجورة في غابة على جبل "فيشجراد" على الحدود بين المجر و تشيكوسلوفاكيا يرقد "لؤي" الشاب الوسيم المرح الذي رمته الغربة الى المجر فتدبّر امره.
استطاع ان يعمل مديرا لمخيم سياحي وبار ملحق به هناك في اعلى نقطة في الجبل المكسو من ادنى نقطة في سفوحه الى قمته الشاهقة بالاشجار.

تزوج من فتاة مجرية لطيفة الشكل و المعشر...رزق منها بطفلين جميلين.
كنا نذهب تحت الثلوج الى مخيمه الذي يبعد اربعين كيلو مترا عن بودابست فيعلق على باب البار يافطة "مغلق" و نصنع معا شوربة السمك في قِدْر على نار الحطب المجلوب من الغابة.
تلعب الورق او ندعو عددا من اصدقائنا و صديقاتنا الى عشاء عربي عنده نلعب بكرات الثلج نجمع الفطر من السفح الهائل الانحدار و نعود لنعد منه اشهى الوجبات على انغام الموسيقى و اغاني فيروز تساعدنا في ذلك زوجته اللطيفة التي تعلمت بعض الكلمات العربية.
و عندما فكر باللحاق بشقيق له في الولايات المتحدة الامريكية ذات يوم اختفى لؤي و لم يعثر له على أي اثر.... غافلته زوجته اللطيفة الودودة اثناء مشاهدته التلفزيون في وقت متاخر من الليل و اطلقت عليه الرصاص.
سحبت جثته الى ظلام الغابة بمساعدة شقي روماني و دفنته في تلك البئر المهجورة غطت جثته بكميات كبيرة من الاسمنت (!) الى ان اكتشفها البوليس و أودعها السجن.
كان اصحابنا الذين يرون حياة لؤي يرون فيه الفلسطيني المرتاح السعيد الحريص على اناقته علاقاته و اناقة طعامه و اناقة ملابسه الفلسطيني الذي استطاع ان "يدبر حاله" و يكون اسرة و يوفر بعض المال بعرقه و جهده اليومي.
لن يستطيع لؤي في بئره الشديد السواد الان ان ينظر الى اطمئنانهم ليخبرهم ان السعادة تكذب ان الامان يكذب ان الوسامة تكذب ان الحب يكذب و ان الهواء الذي يحيط بالفلسطيني هواء مهدد!
الغربة حملت له بالضبط ما هرب منه عندما جاء من جنوب لبنان : الموت!
و هناك على سلالم طائرة الميدل ايست في مطار بيروت سقط ابو العبد درويش والد زوجة منيف ميتا و هو في طريقه لزيارة بناته في قطر فاحتفظوا بجثته اسبوعا كاملا في الثلاجة حتى تم الاتصال باهله.
و رنين الهاتف لا يتوقف في ليالي البلاد البعيدة.
يلتقط احدهم السماعة متوجسا يغالب النعاس يسمع صوتا متلعثما على الطرف الاخر يخبره بموت احد الاحباب او الاهل او الاصدقاء او الرفاق في البلد او في البلاد... روما و في اثينا و في تونس و في قبرص و في لندن و في باريس و في اميركا و في كل بقعه اوصلنا اليها زماننا... حتى اصبح الموت " كالخس في السوق كدَّسه البائعون" نعم، في تفاهة الخس و بلا مهابة و بلا نهاية.
قلت لناجي و انا ارى اولاده و بناته يستحمون في بركة الفندق:
- ليتهم ينتظرون عليك حتى يكبر الاولاد قليلا و يصبح بوسعك تركهم وحدهم في هذا العالم.
كانت رائحة قتله تتصاعد يوما بعد يوم و حَمْلة الكراهية ضده تغري أي كاتم صوت بالاستفادة من اجوائها المرعبة و كنت خائفا عليه.

زارني في بودابست مع اسرته لعلاج ابنته الصغيرة "جودي " علاجا طبيعيا من اصابة في ساقها تعرضت لها اثناء الغارات الاسرائيلية على صيدا . قضينا شهرا معا و لم اره بعدها الا عندما ذهبت الى لندن بعد شهور لزيارةِ..... قبره!

كان يرتدي الشورت و يجلس بجواري على حافة البركة و عظام قفصه الصدري بارزة لفرط نحوله و في يده سيجارته:

- تعرف يا مريد فكرت بهذي المسالة، لكنني حلّيتها بسرعة مرة و الى الابد، سالت نفسي شو ترك لي ابوي لما مات؟ لا شئ.

و رغم ذلك قدرت اعيش و أدبر حالي بيدبرو حالهم !

عرفت ناجي للمرة الاولى عام ١٩٧٠ في الكويت.

كان يعمل في جريدة السياسة و كنت اقضي بعض المساءات في مكتبه الصغير. كنت اعمل مدرسا في الكلية الصناعية و أعد اول مجموعة من قصائدي للنشر... عرفته عن قرب و رأيت كيف يمكن ان يلمس المرء الموهبة بالاصابع... عرفت ايضا كيف تكون الشجاعة واضحة كالتابوت!

نجلس معظم الليل نتحدث في كل الشئون ثم اتركه ليرسم كاريكاتير اليوم التالي و أقول لنفسي ما الذي سيرسمه يا ترى غدا؟

اشتري الجريدة صباحا، فأندهش من ان ذلك الشاب المحتار البسيط الضاحك الحزن قد لخّص الدنيا في مربعه اليومي كما لا يستطيع أفصح المحللين السياسيين ان يفعل. و استمرت الصداقة من سنةٍ لاخرى و من بلدٍ الى آخر.

في العام ١٩٨٠ القيت ضمن مهرجان شعري في جامعة بيروت العربية قصيدة عنوانها " حنظلة طفل ناجي العلي" و نشرتها جريدة السفير على صفحة كاملة بعد ذلك مزيّنة برسوم ناجي .

هنا كلُّ شئ مُعَدٌّ كما تَشتهي

فلكلّ مقامٍ مقالْ:

مُكَبِّرَةُ الصوتِ في ليلةِ المهرجان

و كاتِمَةُ الصوتِ في ليلةِ الاغتيالْ!

و بعد سبع سنوات من هذه الليلة جاءت ليلة الاغتيال فعلا

كنت مع رضوى و تميم في فندق على بحيرة البالاطون في المجر نقضي اجازتنا الصيفية استيقظنا مبكرا و فتحنا الراديو على اذاعة لندن باللغة الانجليزية فاذا بي التقط شبه جملة تتحدث عن "رسّام فلسطيني مرموق".

قبل ان نكمل الاستماع الى الخبر ادركنا ان ناجي راح.

استيقظ تميم و نحن نحاول تنقية المحطة حتى نسمع المزيد من التفاصيل عن الخبر . سأل:

- ماما، بابا، مالكم؟

- قتلوا عمّو ناجي.

أطلق الرصاص على ناجي يوم ١٩٨٧/٧/٢٢ و هو بالصدفة ذكرى زواجنا ايضا و كأن ايامنا الخاصة تفقد مغزاها واحد بعد الاخر و كان الاحداث تمد اصابعها الغليظة لتمزق الرزنامة الخصوصية لكل منا و ترمي اوراقها الصغيرة في الهواء.

قبل ذلك بسنوات كثيرة في ظهيرة السبت ١٩٧٢/٧/٨ و هو عيد ميلادي كنت اجلس في مبني الاذاعة في ماسبيروو بعد تسجيل لقاء ادبي معي عندما رايت شفيع شلبي ينزل عن الدرج مسرعا ليبلغني باغتيال غسان كنفاني في بيروت.

ذهبت مع سليمان فياض الى يوسف ادريس في "الاهرام".

قلنا له اننا نريد ان نعد جنازة رمزية لغسان كنفاني في القاهرة تتزامن مع ساعة تشييع جنازته في بيروت.

اجتمعنا بعد الظهر في مقهى ريش يوسف ادريس و نجيب سرور و الدكتور عبد المحسن طه بدر و يحي طاهر عبدالله و سليمان فياض و سعيد الكفراوي و ابراهيم منصور و غالي شكري و رضوى و كتّاب آخرون لا اتذكرهم بشكل شامل و دقيق فقد مر على اغتيال غسان ربع قرن كامل الان!

وصل عددنا جميعا في ذلك اليوم الى ما يقارب الخمسين.

خطط يحيى الطاهر عبدالله اليافطات بخطه المتقن البديع مشينا صامتين على هيأة جنازة من ريش في شارع سليمان باشا الى نقابة الصحفيين في شارع عبد الخالق ثروت هناك... كان رجال الامن بانتظارنا اخذوا يوسف ادريس الى الداخل و بقينا جميعا في حديقة النقابة نتتظر خروجه... وجه الضابط ليوسف ادريس سؤالا محددا:

- هل كان معكم فلسطينيون في المسيرة؟

قال له يوسف:

- انا حقول لك اسامي الخمسين شخص كلهم... اكتب عندك : يوسف ادريس ، يوسف ادريس ، يوسف ادريس، يوسف ادريس،يوسف ادريس، يوسف

و هنا اوقفه الضاب عن الكلام انهى اللقاء و مضى في سبيله.

عاد يوسف لينضم لنا في الحديقة روى لنا ما حصل و تفرقنا بعد ذلك.

و رغم المناسبة الحزينة لم نتطع الا الضحك على واحدة من اليافطات التي اصر يحيى الطاهر عبدالله على كتابتها و هى:

(انهم يقتلون الجياد... اليس كذلك؟)

عندما عدت الى البيت و اخبرت الدكتورة لطيفة بما فعلناه و حدثتها عن اليافطة اطلقت ضحكتها العريضة و قالت :

- خيبة تخيبكم ... تلاقي الناس في الشارع ضحكوا عليكم لما قالوا بس... مش تكتبوا حاجة تفهمها الناس

و عندما حدثتها عن موقف يوسف ادريس قالت :

- هو يوسف كده... يتخذ موقف بطولي ثم يظل متلخبط و متوتر و خايف لغاية ما يعمل عكسه... كويس انها جت كده.

أي عيد زواج بعد اليوم يا ناجي؟ و أي عيد ميلاد بعد اليوم يا غسان؟ ما الذي نذكره و ما الذي ننساه!

و المسالة لا تخص فردا مثلي من دون الاخرين فواجعنا و مواجعنا تتكررو تتكاثر يوميا حتى اصبح كل يوم يمزق يوما غيره تهبط المناسبة على نقيضها فتهدم فينا كل المناسبات.

أصيبت رزنامتنا بالعطب و بتراكم الاوجاع طبقة فوق طبقة، حتى اصبح الزمان الفلسطيني نفسه اضغاثا من النقائض، و الفكاهات التى لها طعم العلقم و رائحة الانقراض. هناك ارقام معينة انسخلت عن معناها المحايد و الموضوعي و اصبحت تعني شيئا واحدا لا يتغير في الوجدان.

منذ الهزيمة في حزيران ١٩٦٧ لم يعد ممكنا لي ان ارى رقم ال٦٧ هذا الا مرتبطا بالهزيمة.

اراه في جزء من ارقام هاتف احد الاقرباء او الاصدقاء على باب غرفة في فندق على اللوحة المعدنية لسيارة مارة في الشارع في أي بلد من بلدان العالم على تذكرة سينما او مسرح على صفحة كتاب او مجلة على عنوان كتاب او مؤسسة او منزل في اية مدينة على مقدمة قطار او رقم رحلة جوية على اللوحة الالكترونية في أي مطار من مطارات الدنيا.

انه لم يعد يعني بالنسبة لي ما يعنيه في سياقه الجديد و المتغير كأن رقم ٦٧ شاخ منذ ولد في ذلك الاثنين الخامس من حزيران الاثنين الغابر المقيم الذاهب العائد الميت الحي رقم تجمد في شكله الصحراوي الاول شكله الرهيب.

كأنه ليس رقما بل تمثال من الشمع لرقم تمثال من الجرانيت من الرصاص من الطباشير التى لا تمحى عن اللوح الاسود في قاعة سوداء.

لا اتطير منه و لا اتشاءم حين اراه في صورته المتنوعة لكنني الاحظه بشكل خاص اسجل ذلك لنفسي فقط.

انقله من اللاوعي الى الوعي للحظة عابرة ثم يغطس ثانية كالدلافين التى تقفز ثم تغطس في المحيط.

لا اذهب الى اية خلاصات و لا الي أي استنتاجات لا ارتعش لا احزن لا اشعر باي توتر اتمني فقط التعرف عليه بحواسي الخمس... كانه وجه اعرفه يعنيني و لا يعنيني لكنه دائما هناك موجود كما نعرف ان الدلافين في مكانٍ ما هناك في اعماق المحيط حتى لو لم نرها.

هل هزيمة حزيران عقدة نفسية عندي؟ عند جيلي؟ عن العرب المعاصرين؟

لقد وقعت بعدها احداث و خيبات لا تقل خطورة و نشبت حروب و نُفِّذتَ مجازر و تغيرت اللهجات السياسية و الفكرية غير ان ال ٦٧تختلف عن كل ذلك.

نحن مازلنا ندفع فو اتيرها الى يومنا هذا و لم يقع في تاريخنا المعاصر حدثٌ لا علاقة له بال٦٧.

كنت عائدا الى منزلي في حي المهندسين بالقاهرة عندما قابلت بالصدفة واحدا ن اعز اصدقائي في تلك الفترة هو يحيى الطاهر عبدالله و كانت حرب ١٩٧٣ في يومها الرابع او الخامس و كان يسير بجواري في نشوةٍ ملحوظة لكنه يراني واجما،مضطربا و لا أشاركه نشوته.

وقف في الشارع بشكل مفاجئ و قال لي:

- - مالك عامل كده زي الغراب و شكلك مش مبسوط؟

- نعم انا غراب لاني شايف ما يستحق ان انعق عليه...هذه الحرب يا يحيى لن تنتهى على خير

يوم الثلاثاء ١٦ اكتوبر اي بعد عشرة ايام من بداية الحرب فقط جلست الى جهاز التلفزيون في بيت الدكتورة لطيفة الزيات نستمع سويا الى خطاب الرئيس السادات في مجلس الامة المصري فاذا به يقدّم و هو يرتدي بزَّته العسكرية المثقلة بالاوسمة التى تصل الى حِزامه ما اسماه "مشروعي للسلام مع اسرائيل".

.في اليوم التالي تصاعد الحديث عن الثغرة في الدفرسوار بشكلٍ مُلْفِتْ.

بعد ايام ظهر كيسنجر في المنطقة و اتخذت الاحداث مسارها المعروف الذي ادّى الى زيارة رئيس جمهورية مصر العربية الى اسرائيل ثم اتفاقية كامب ديفيد.

و ارتفع العلم الاسرائيلي على بُعد مائة متر من تمثال نهضة مصر الذي خلد فيه النحّات العظيم مختار ثورة ١٩١٩ و لا تزال تجرى تحت رفيفهِ اليوميّ عند كوبري الجامعة مياه نهر النيل غامضةً ثم واضحةً ، واضحةً ثم غامضةً لا يدري احدٌ ما الذي يجول في وقارها الازرق من افكار.

ارتفع العلم الاسرائيلي على بعد ثلاثمائة متر فقط من قُبَّة جامعة القاهرة قبة المعتصمين ذاتها، القبة التي ذات يوم بعيد و انا مجرد طالب في الجامعة شاهدت بعينيّ مواكب السيارات تتجه اليها ليترجل منها جواهر لال نهرو و جوزيب بروس تيتو وشواين لاي و كوامي نكروما و جمال عبد الناصر يصعدون درجها الرخامي و يجلسون على كراسيها و امامهم اوراق و ملفات لم أرها ، و لكن كلماتٍ لا تُنسى تسربت منها الى وعي تلميذ قادم من جبال دير غسانة، كلمات حول الاستقلال و التنمية و الحرية.

" كلمات كلمات كلمات" يا امير الدنمارك!

كنت لا أطيق السادات،صوتا و صورةً و سياسةً و في قاعة جمال عبد الناصر تحت قبّة جامعة القاهرةفي شتاء ١٩٧٢ كنت ورضوى مع المعتصمين نشاركهم اعتصامهم جزءاً من النهار أو النهار بطوله و لو امتد بنا النقاش نقضي نقضي ليلتنا نائمين على الكراسي في القاعة حتى مطلع النهار التالي و لم اكن ادرك خطورة فعلتي تلك. فالحكومة تعامل كل من ليس مصريا في نشاط من هذا النوع "كعنصر مُندس". و كانت هذه الكلمة تثير اشمئزازي كلما سمعتها الى يومنا هذا.

صباح الاثنين ٢٤ يناير فوجئت برضوى تعود الى البيت بعد خروجها بأقل من ساعة، كانت قد سبقتني الى الاعتصام و معها ساندويتشات قامت باعدادها ليلا لتحملها الى الطلبة و كان آخرون يفعلون الشئ نفسه باستمرار قالت ان الجامعة مطوَّقةٌ بجنود الامن يمنعون دخول اي شخص الى الحرم الجامعي... بعدها عرفنا ان الشرطة اعتقلت كل المعتصمين و ساقتهم في العَرَبات الى السجون.

كان الطلاب و الطالبات ينظرون من نوافذ الناقلات بأعينهم التي أعياها السهر اليوميّ المتواصل و ارهاق النوم على كراسي القاعة الى شوارع القاهرة النائمة في ذلك الفجر الخاسر و الحزين ينثرون من النوافذ قصاصاتٍ من الورق كتبوا عليها ثلاث كلمات : "إصحي يا مصر"!

منذ ال٦٧ و النقلة الاخيرة في الشطرنج العربي نقلة خاسرة!

نقلة الى الوراء ... نقلة سلبية تنتكس بالمقدمات مهما كانت تلك المقدمات ايجابية.

بعد معركة الكرامة التى خاضها الفلسطينيون و الاردنيون معا ضد العدو ذهبنا الى ايلول ضد انفسنا.

بعد حرب ال٧٣ و عبور القناة ذهبنا الى كامبد ديفيد.

بعد مناهضتنا في كامب ديفيد عرّبناها و عمّمنا و قبلنا ما هو أقل منها فائدة و أكثر منها فضيحة.

بعد الاجتياح الاسرائيلي للبنان خرجت منظمة التحرير من الصمود البطولي الى الاقتتال و الاعتدال و التكيف مع شروط اعدائها.

بعد الانتفاضة الشعبية على ارض فلسطين ذهبنا الى اوسلو.

دائما نتكيف مع شروط الاعداء من ال٦٧ و نحن نتأقلم و نتكيف!

و ها هو بنيامين نتانياهو رئيس وزراء اسرائيل يهدئ من مخاوف امريكا على التسوية الراهنة بقوله ان العرب في النهاية سيتأقلمون مع تشدده لانهم تعودّوا على التأقلم ما ما يُفرض عليهم!

هل أنا معقد من ال٦٧؟ نعم أنا معقد. الكمال لله! هزيمة حزيران لم تنته.

في ثاني ايام الحرب ومع ارتفاع وتيرة الاناشيد الوطنية و البيانات المظفرة من الاذاعة ، تدفق طلاب الجامعة على مراكز التطوع للذهاب الى الجبهة... وقفت في طابور المتطوعين و سجلت اسمي.

اعطوني بطاقة صغيرة خضراء و عليها اسمي و تحته عبارة واحدة تقول :

يُستدعى للخدمة يوم ١٢ يونية ١٩٦٧"

و يوم ٩ يونيه جلست الى التلفزيون في شقتي بالزمالك أشاهد خطاب جمال عبد الناصر و الاة كلها معلقة بشفتيه في تلك الليلة لعلنا نفهم شيئا مما دار و يدور على جبهة القتال منذ بداية الحرب.

جلست بجواري صاحبة الشقة التى كنت اسميها مدام سيزوستريس ( وهو اسم استعرته من قصيدة اليوت " الارض الخراب") و كانت امرأة شقراء صفراء ملوّنة و بدينة بشكل متطرف.

فإذا بنا نسمعه يقول:

- اننا تعرضنا لنكسة.

ثم يضيف انه سيتنحى تماما و َنهائيا (قال بفتح النون و ما تزال ترن في أذني هكذا : نَهائيّا) عن كل مناصبه الرسمية الخ.

قفزت فورا من الصالة الى الباب الى الشارع

وجدت نفسي واحدا من ملايين البشر الذين قفزوا في نفس اللحظة الى عتمة الشارع، و عتمة المستقبل.

متى خرجت هذه الملايين؟انا خرجت بعد انتهاء الخطاب مباشرة و ربما قبل انتهائه لقد خرج الجميع في نفس اللحظة اذا.

في لحظة تكوّن المعرفة بما حدث لهم.

لم تكن هناك فجوة من الدقائق و لا حتى من الثواني بين الفعل ورد الفعل... بين الاذن و الخطوة، رأيت مجتمعا كاملا منتشرا في الشوارع في لمح البصر.

قضينا الليل في الشوارع و على الجسور فوق نهر النيل كأننا نطوف بلا هدف محدد او كأننا نطوف جميعا لنفس الهدف.

عشنا في الشوارع حتى مساء اليوم التالي.

و عندما مرت الايام و السنوات عرفنا اننا كنا نشارك فيما سماه المؤرخون بعد ذلك " مظاهرات ٩ و ١٠ يونيو التى اعادت عبد الناصر الى الحكم.

المهم ان احدا لم يطلبنا بعد ذلك للخدمة التطوعية الموعودة...انتهت حرب الايام الستة بخطاب عبد الناصر...ظل مستقبل الناس غامضا و كلما بشرونا باتضاحه ازداد غموضا.

ازداد غموضا بوفاة عبدالناصر ثم ازداد غموضا بتولي انور السادات ثم ازداد غموضا بحرب رمضان و باتفاقية كامب ديفيد التى أعلنت بوضوح" ان حرب رمضان هى آخر الحروب!

و ازداد غموضا بعد الاجتياح الاسرائيلي للبنان ثم بعد الاجتياح ثم بعد حرب المخيمات ثم بعد اوسلو و هو ما يزال غامضا الان! حتى هذه اللحظة!

و منذ الخامس من حزيران ١٩٦٧ تُركنا لنتدبر امورنا الحياتية في ظل الهزيمة الممتدة الهزيمة التى لم تنته بعد...انها العلامة المحددة لما تلاها و يتولها الان.

نعم... ان ال٦٧ هى الانطباع المستمر في البال منذ ان عشتها في مقتبل العمر اعلم انني لا اصلح للعمل السياسي المحترف ربما لهذا السبب انني استقبل العالم بالمشاعر و الحدس و هذا لا يتماشى مع تدابير الضرورة السياسية...انا لا استيع اذا سرت في مظاهرة ان اهتف...قد اشارك فيها اعلانا لموقفي لكنني لا ارفع صوتي لاصيح بأيّ شعار او مَطلب مهما كنت مقتنعا بمضمونه.

بل ان الصور التى تترسب في ذهني من الظاهرات هى تلك الصور الفكاهية للمحمولين على الاكتاف هاتفين بشعاراتهم ذات الايقاع المنتظم...و كما يحدث في افلام ايزنشتين يتحول هؤلاء الهتافون المخلصون الى مجرد افواهٍ ضخمة الاتساع مفتوحة على آخرها و الى اسنانٍ بيضاء غير منتظمة في الغالب تملأ المشهد الوارد على الذاكرة كلّه.

اما حركة الاذرع و قبضات الايدي المضمومة التي تضرب هواء المظاهرة فتثير فيّ ضحكا استحي ان يلاحظه من هم حولي لئلا يظنوا انني اتهكم عليهم او اسخر منهم و من جدية تلك الحركات و معناها.

نعم اضحك حتى داخل المظاهرة و لا استطيع كتمان اسبابي ابوح به لاقرب شخص يجاورني ولي من الحظ بعد ذلك ما لي فاما ان يتفهم موقفي الغريب او ان يراه موقفا غريبا استحق عليه اللعنة.

عندما كان ابو توفيق يركب سيارة الجيب التابعة للاعلام الجماهيري و يطوف بها في شوارع الفكهاني مرددا عبارته التي لا يغيرها ابدا:

" يا شهيدنا الجميل".

و يبدا في تعداد مناقب الشهيد الذي خسرناه لتونا، كان المشهد مؤثرا في البداية لكن تكرار سقوط الشهداء تكرار الجنازات و تكرار ابو توفيق لعبارته الاثيرة "يا شهيدنا الجميل" كان يجرّ تداعياتٍ تُسْبغ على الماساة طابع الروتين و التعود و احيانا يساعد على اختلاط الذهول بنوع غريب من انواع الفكاهة.

نعم اقصد ذلك النوع النادر من فكاهة الموت فكاهة الجنازات! من المعروف ان النضال الطويل الذي يستهلك عشرات السنين و اعمار الناس يترك ظلالا من الشجاعة و التحمل و لكنه يترك ايضا ظلالا من العدمية و السخرية من المصائر المتاحة التى لا راد لها و يزيد من ذلك التراجع المتواصل بعد كل محاولة للتقدم الى الامام هنا تصبح السخرية جزءا من سايكولوجيا الاستمرار في المسعى رغم تعثره المتكرر.

تعود هو نفسه على الفقد كما تعود الشهداء على تكرار تضحيتهم و كما تعودنا نحن المشيعين على تشييعهم بالصخب نفسه الى موطنهم المجازي : فلسطين و موطنهم الواقعي : القبر.

كانت اللصقات التى تُصَوِّرُ وجوههم و تحمل التحية لهم، تملا جدران الفكهاني لكنها لتتابع الشهداء واحدا بعد الاخر اخذت تهجم على بعضها البعض اصبحت زاوية الملصق الاحدث تحجب جانبا من ملامح الملصق القديم و هكذا الى ان اتخذت الملصقات العديدة المتجاورة و المتراكمة فوق بعضها شكلا يبعث على الارتعاش كلما تاملته:

انه شكل لملصق واحد واسع الارجاء شكل لشهيد واحد متوزع في وجوه عديدة و كأن الموت موتٌ واحد كثيف.

كأن حياة الاحياء بعد ان غاب عنها كل هؤلاء اصبحت أمرا يعلمنا الخجل و الاعتذار و تفضيل الصمت على النشيد.

من هنا كانت الاذاعة الجماهيرية المتنقلة التى يتفانى ابو توفيق في القيام بواجبه من خلالها عند كل جنازة جديدة تقول و لا تقول و كنا نسمعها و لا نسمعها و كانت تثير تداخلا من النقائض في صمتنا.

كانت الجنازات جزءا لا يتجزأ من حياة الفلسطنيين في كل تجمع بشري ضمهم في الوطن او في المنافي في ايام هدوئهم و في ايام انتفاضتهم و في ايام حروبهم و في ايام سلامهم المشوب بالمذابح.

و لذلك عندما تحدث اسحق رابين بكل بلاغة عن ماساة الاسرائيلين بصفتهم الضحية المطلقة وسط رغرغة عيون المستمعين و المشاهدين في حديقة البيت الابيض و في العالم كله ادركت انني لن انسى الى وقتٍ طويل كلمته في ذلك اليوم:

- نحن ضحايا الحرب و العنف،

لم نعرف عاما واحدا او شهرا واحدا لم تبكِ فيه امهاتنا ابناءهن.

و سرت في بدني تلك القشعريرة التى اعرفها جيدا و التي أُحس بها كلما قصرت في جهد او فشلت في مهمة :
رابين سلبنا كل شئ حتى روايتنا لموتنا!

هذا الزعيم يعرف كيف يطالب الدنيا بان تحترم الدم الاسرائيلي دم كل فرد اسرائيلي بدون استثناء.
يعرف كيف يطالب الدنيا بان تحترم الدمع الاسرائيلي .
و استطاع ان يصور اسرائيل كلها كضحية لجريمة نحن نقترفها.
يقلب الحقائق .
يغير الترتيب.
يصورنا و كاننا البادئون للعنف في الشرق الاوسط و يقول ما يقول ببلاغة و بشكل يمكن تصديقه و تبنيه.
ما زلت اتذكر كل كلمة قالها اسحق رابين في ذلك اليوم:

- نحن الجنود العائدين من الحرب ملطخين بالدماء راينا اخواننا و اصدقاءنا يُقتلون امامنا و حضرنا جنازاتهم عاجزين عن النظر في عيون امهاتهم... اليوم نتذكر كل واحد منهم بحبٍّ ابدي.؟

من السهل طمس الحقيقة بحيلة لغوية بسيطة: إبدأ حكايتك من "ثانيا"! نعم... هذا ما فعله رابين بكل بساطة لقد اهمل الحديث عما جرى "اولا"...و يكفي ان تبدأ حكايتك من "ثانيا" حتى ينقلب العالم.
إبدأ حكايتك من "ثانيا" تصبح سهام الهنود الحمر هى المجرمة الاصيلة و بنادق البيض هى الضحية الكاملة!
يكفي ان تبدأ حكايتك من "ثانيا" حتى يصبح غاندي هو المسؤل عن مآسي البريطانيين!يكفي ان تبدأ حكايتك من ثانيا حتى يصبح الفيتنامي المحروق هو الذي اساء الى انسانية النابالم!
و تصبح اغاني "فكتور جارا" هى العار و ليس رصاص "بينوشيت" الذي حصد الالاف في استاد سنتياغو!
يكفي ان تبدا حكايتك من ثانيا حتى تصبح ستي ام عطا هى المجرمة و ارييل شارون هو ضحيتها!
قل لي يا عزيزي "ابو توفيق" ما الذي بوسع سيارتك الجيب الصغيرة ان تفعله ازاء هذا اللامعقول؟
هاهم الاسرائيليون يحتلون دورنا كضحية!و يقدموننا بصفتنا قَتَلَة! اسرائيل تبهر العالم بكرمها معنا:
قال رابين:

- ان توقيع اعلان المبادئ ليس سهلا بالنسبة لي كمحارب في جيش اسرائيل و في حروبها و لا لشعب اسرائيل و لا لليهود في الدياسبورا

منازلهم المبنية فوق منازلنا تعلن بشهامةٍ نادرة استعدادها " لتفهُّم" هوايتنا الغريبة في سكنى المخيمات المبعثرة في شتات الالهة و الذباب...كأننا كنا نرجوهم ان يطردونا من منازلنا و نتوسل اليهم ان يرسلوا بولدوزراتهم لهدمها امام اعيننا!

بنادقهم الكريمة في دير ياسين "تغفر" لنا انها كومت اجسادنا في ساعةِ غروبٍ هناك ذات يوم! طائراتهم الحربية "تسامح" مقابر شهدائنا في بيروت...جنودهم يسامحون قابلية عظام مراهقينا للكسر اذا ما دقها احدهم بحجر ضخم!

اسرائيل الضحية تُضفي على سكّينها الساخن الملون وميض الصفح! و حتى يكتمل الوجع قالت ذلك و صورته ببيان مبهر... و ان من البيان لسحرا.

في احتفال الدنيا المصغية و المفتوحة العينين لم يتذكر احد "شهيدنا الجميل" يا عزيزي "ابو توفيق"!

حتى نحن، اهله الناكقين باسمه، لم نتذكره..

**انتهى الجزء الثامن**

## الجزء التاسع (الأخير)

### يوم القيامة اليومي

المخدة سجل حياتنا....المسودة الأولية لروايتنا التي كل مساء جديد، نكتبها بلا حبر ونحكيها بلا صوت... و لا يسمع بها أحد إلا نحن...هي حقل الذاكرة، وقد تم نبشه وحرثه وتثنيته وعزقه وتخصيبه وريه في الظلام الذي يخصنا...ولكل امرئ ظلامه...لكل امرئ حقه في الظلام.

هي الخربشات التي تأتي على البال بلا ترتيب ولا تركيب.

المخدة هي محكمتنا القطنية البيضاء، الناعمة الملمس، القاسية الأحكام.

المخدة هي مساء المسعى.

سؤال الصواب الذي لم نهتد إليه في حينه، والغلط الذي ارتكبناه وحسبناه صوابا.

وعندما تستقبل رؤوسنا التي تزدحم فيها الخلائط، مشاعر النشوة والرضى أو الخسران والحياء من أنفسنا، تصبح المخدة ضميرا وأجراسا عسيرة.

إنها أجراس تقرع دائما لنا، ولكن ليس من أجلنا و لا لصالحنا دائما.

المخدة هي "يوم القيامة اليومي".

يوم القيامة الشخصي لكل من لا يزال حيا... يوم القيامة المبكر الذي لا ينتظر موعد دخولنا الأخير إلى راحتنا الأبدية.

خطايانا الصغيرة التي لا يحاسب عليها القانون والتي لا يعرفها إلا الكتمان المعتنى به جيدا،تنتشر في ظلام الليل على ضوء المخدات التي تعرف،المخدات التي لا تكتم الأسرار ولا يهمها الدفاع عن النائم.

جمالنا الخفي عن العيون التي أفسدها التعود والاستعجال،جدارتنا التي ينتهكها القساة والظالمون كل يوم،لا نستردها إلا هنا ولولا أننا نستردها هنا كل ليلة لما استطعنا الاستمرار في اللعبة ... في الحياة.

المخدة لا تدعي شيئا.

الميكروفون قد يكذب... الغزل الرقيق ،المنابر،الأرقام ،الرسائل،التقارير،الواعظ،القائد،الطبيب،الأم قد تكذب... المخدة المنسوجة من نسيج الحقيقة،الحقيقة بصفتها سرا قد تواريه حسابات النهار.

كم ادعى المهزوم نصرا وصدقه... لكنه يضع رأسه على مخدته الصغيرة فتأتي له بالخبر اليقين حتى وإن أنكره... "لم أنتصر".يقولها لنفسه دون أن ينطق بها... وإن لم يجرؤ هو على قولها تجرؤ هي:"لم تنتصر يا هذا"... قد يعاود الظهور بمظهر المنتصر أمام الملأ... قد يؤيده البعض... لكن هذا البعض أيضا يرتعش تلك الرعشة الباردة عندما يختلي بالنفس،في مساء مواقفه المحسوبة، ومساء تأييده الملفق.

جدارة العمر ،إقرار الذات،الشعور بالزهو واعتناق رواية من الروايات دون غيرها، كل هذه التيقنات الأكيدة نهارا،وفي غبار الازدحام الإنساني، وفي حمى المنافسة والصراعات، تحولها مخداتنا إلى مجرد فرضيات:

المخدة هواجس تطالبنا بأن تمتحن جيدا وبلا رأفة.

مستلقيا على ظهري في السرير،أصابع يدي تتشابك تحت رأسي على المخدة، لم أعرف ما الذي أبقى عيني مفتوحتين باتجاه السقف...والسقف لم يعد له وجود في هذه العتمة التامة...كأن النوم لا يخصني ...كأنه اختراع قصد به سواي.

هذه ليلتي الأخيرة في رام الله...

ليلتي الأخيرة في هذه الغرفة الصغيرة وتحت نافذتها المطلة على أسئلة لا حصر لها والمطلة على مستوطنة.

كأنني بتجاوز ذلك الجسر الخشبي الصغير تمكنت من المثول أمام أيامي... وجعلت أيامي تمثل أمامي... ألمس تفاصيل منها بلا سبب... وأهمل تفاصيل منها بلا سبب... ثرثرت لنفسي عمرا كاملا وزواري يحسبونني صامتا.

عبرت الجسر المحرم علينا،وفجأة،انحنيت ألملم شتاتي،كما ألم جهتي معطفي إلى بعضهما في يوم من الصقيع والتلهف... أو كما يلملم تلميذ أوراقه التي بعثرها هواء الحقل وهو عائد من بعيد.

على المخدة لملمت النهارات والليالي ذات الضحك،ذات الغضب،ذات الدموع،ذات العبث،وذات الشواهد الرخامية التي لا يكفي عمر واحد لزيارتها جميعا،من أجل تقديم الصمت والإحترام.

أهيئ حقيبتي الصغيرة استعدادا للعودة إلى الجسر ،إلى عمان فالقاهرة، ثم إلى المغرب حيث سأقرأ شعرا في أمسية بالرباط.... أقضي في الرباط أقل من أسبوع... ثم إلى القاهرة لأعود وبصحبتي رضوى وتميم لقضاء الصيف مع أمي وعلاء في عمان.

في عمان سأنتظر تصريح تميم...سأعود معه إلى هنا... سيراها... يراني فيها... وسنسأل كل الأسئلة بعد ذلك...

الليلة،وكل من في البيت نائم، والصباح وشيك، أسأل سؤالا لم تجد لي الأيام جوابا عليه حتى هذا المساء... ما الذي يسلب الروح ألوانها؟

ما الذي، غير قصف الغزاة أصاب الجسد؟

**تمت**